
HISTORY AS IT HAPPENED
دراسة
فريق
متميزون
E-BOOK
التاريخ كما كان
2
مقالات تاريخية من إعداد
فريق بصمة
كتوبيا
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

التاريخ كما كان (٢)

مقالات تاريخية

من إعداد: فريق بصمة

نبذة عن الكتاب

في هذا الكتاب محاولة بسيطة لإزالة الغبار عن بعض الأحداث التاريخية وتناولها من منظور موضوعي بدون إفراط أو تفريط، بدون تجميل أو تشويه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

«جنة الله في أرضه، كانت قبلة الناس منذ بضعة قرون، تبارت هي وجارتها، شقيقتها الصغرى، في جذب المسلمين وغير المسلمين من شتى بقاع الأرض وعلى اختلاف ألوانهم وأعراقهم، وعقائدهم لينصهروا معًا في بوتقتها، ويشكلوا حضارة من أعظم حضارات العالم في هذا الزمان، وليتبوأ الإسلام بناءً على ذلك مقعد الصدارة -كما اعتاد- دومًا على أيدي حكام المسلمين العظام».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما يظنّ الكثيرون، أنّ هذه الكلمات ما هي إلا جزء من وصف أحد مؤرخي القرن العشرين، للأندلس وحواضرها قرطبة وغرناطة وغيرهما، ربما يجول بخاطر البعض أنّ هذه الجنة هي اسطنبول القرن السادس عشر، أو دمشق القرن الثامن، أو بغداد ما قبل هولاكو. لكنّ أحدًا لن يتخيل أن تأتي هذه الكلمات على لسان أحد مؤرخي القرن الرابع والعشرين، متحدثًا عن دولة الإمارات العربية، وشقيقتها الصغرى قطر. ربما تبدو هذه الكلمات محل اختلاف، أو تبدو مبالغة بعض الشيء على مَن عاش هذا العصر، وحضر أواخر القرن العشرين، وأوائل القرن الحادي والعشرين، بل ربما بدت هذه الكلمات للبعض محض جنون ومثار سخرية. لكن نظرة فاحصة على تاريخ الدولة الإسلامية منذ ارتقاء معاوية -رضي الله عنه- عرش دولة المُلك العضوض، وحتى زوال هذه الدولة على يد عبد المجيد بن عثمان، قد تجعلنا نعيد النظر قليلًا، فيما نظنه مجرد خيال خصب.

هل كانت الأندلس حقًّا جنّة كما قرأنا عنها؟ هل عاش مسلمو مصر والشام حياة رائعة في عهد العثمانيين؟ هل كان ابن طولون عظيمًا؟ وهل يشفع لصفية وكوسم وخرم ما فعلنه من أعمال خير، كي يتناسى التاريخ ما فعلنه، وما أوعزن لأزواجهنّ من سلاطين بني عثمان بفعله؟ هل عمد عمر بن عبد العزيز - خامس الخلفاء الراشدين- إلى انتخاب مَن يخلفه؟ هل حسُن إسلام أهل قرطبة وإشبيلية؟ هل كان عبد الحميد الثاني هو فاروق القرن العشرين؟

ربما تبدو هذه الأسئلة وغيرها مثيرة للجدل بعض الشيء، سيقول هواة التاريخ الإسلامي ناصع البياض أنّ مجرد ذكر هذه العناوين، ما هو إلا تتبع لثغرات لا طائل من ورائه، وأنّ أغراضًا خبيثة ومحاولات مُغرضة للنيل من الإسلام وأمجاده تقف خلف هذا. لكن الحقيقة أنّ تناول مثل هذه الموضوعات دون إفراط أو تفريط، ووضعها في سياقها التاريخيّ، إنما يصبّ بالأساس في مصلحة الإسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا يكذب التاريخ والمؤرخون؟ تبدو هذه الجملة صادمة بعض الشيء، لكنها حقيقية إلى حد بعيد سواء كان هذا الكذب متعمَّدًا من قبل هؤلاء المؤرخين، أم كان عن غير قصد، بحكم تعامي التاريخ الدائم عن التفاصيل، والشيطان الذي يكمن فيها، واهتمامه فقط بجمال ألوان الصورة وروعة إطارها، بعد تصغيرها بحيث لا تظهر عيوبها. لكنحتى وإن فهمنا لماذا يكذب هؤلاء، فسيظل السؤال الأصعب هو: لماذا نصدق نحن هذا الكذب؟ لماذا نتجاهل كل المؤشرات التي تطل علينا بين الحين والآخر، محاولة تنبيهنا إلى خطأ ما نرتكبه؟ هل نحن بحاجة إلى مئات الحلقات وعشرات المسلسلات، لنعلم أنّ السلاطين العثمانيين الأوائل- حتى وإن كانوا محاربين عظماء- قد ارتكبوا أخطاء جسيمة، بعدما سمحوا لنسائهم بالتدخل في الحياة السياسية، وإفسادها في الكثير من الأحيان؟ هل يبدو عصيّا علينا

أن نفهم أنّ جنود الانكشارية - وكما كانوا سببًا في توسع حدود الدولة العثمانية- كانوا سببًا في انهيار الدولة؟ لماذا ننكر وجود قانون قتل الأشقاء، ونحن نعلم أنّ دولة بني عثمان قد شارفت على الانتهاء عدة مرات، بعدما عانت من عدم وجود ورثة للعرش بسبب هذا؟ هل تعلم أنّ الفرغاني -المعماري القبطي الذي صمم جامع ابن طولون- مات في السجن بعدما حبسه ابن طولون؟ وماذا عن الظاهر بيبرس الذي قتل قطز؟ ومعتصم وامعتصماه الذي عذّب ابن حنبل؟

ألا يمكن بعد كل هذا أن يزيف مؤرخو مستقبلنا حاضرنا، كما زيف مؤرخونا ماضينا وماضي أجدادنا؟ ألا يمكن أن يغزلوا الشعر فيمن نراهم اليوم هم سبب جل مصائبنا وأكبر همنا؟ ألا يمكن أن يروا ما نراه اليوم ذلًا مجدًا وسؤددًا؟ أن يروا حروب المصالح معاركَ جليلة من أجل رفعة الإسلام؟ أن ينعتوا الملوك الذين ظلوا عشرات السنين جاثمين على صدور شعوبهم، بالقادة الفاتحين العادلين؟ هل يمكن لنا أن نرى برج خليفة جنبًا إلى جنب في كتب العمارة مع قصر الحمراء والجيرالدا، ونرى مطاري دبي والدوحة كآثار تاريخية عظيمة مثلهما كمثل محطة قطار حيدر باشا؟ ربما يكون هذا هو تاريخنا الذي سيحكيه أحفادنا، ولن نمتلك حينها الفرصة لرفضه أو الاعتراض عليه، لن نستطيع الصراخ بأنّ كل ما يُذكر إنما هو محضُ زيفٍ وهراء، وأنّ الصورة كانت أكثر سوءًا مما تبدو في المرآة. لو كان لنا أن نعيش حينها، لربما عرفنا أنّ ما سيقوله التاريخ عنا بعد قرون، هو نفس ما قلناه نحن -أو على الأقل صدقناه- عن تاريخ أجدادنا.. سنحزن كثيرًا على ذلك وسنتمنى لو قُص تاريخنا كما كان...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جدليات

خمسمئة عام على دخول العثمانيين مصر

بقلم: أيمن حويرة

«ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضي إلى الجهاد لقتال الكفار فمُنع، أليس له قتالهم؟».
توجه قائد الجيش بسؤاله هذا إلى القاضي، أملًا في أن ينال فتوى تسمح له بالتقدم باتجاه نهر النيل، والهجوم على القوات المتمركزة هناك، وقد نالها، فكان أن انتصرت جيوشه انتصارًا سريعًا، وسيطرت على بقية البلاد دون مقاومة تُذكر. وقد فرح الناس بذلك لما عانوه من ظلم وجور من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو ذُكرت هذه الفقرة في كتب التاريخ الحديث مبهمة هكذا، دون تصريح بهوية المنتصر والمهزوم، لانبرى القراء لتأكيد أنّ المقصود هنا هو دخول العثمانيين مصر، أو «الغزو العثماني لمصر»،كما يروق للكثيرين نعته بذلك. لكن نظرة سريعة لتاريخ الأحداث -السادس من مارس عام ٩٦٩- تخبرنا أنّ القاضي المصري، أبا الطاهر محمد بن الأحمد، هو صاحب هذه الفتوى، وأنّ جوهر الصقلي، قائد جيوش الخليفة العبيدي (الفاطمي كما ينسب نفسه) المعز لدين الله، هو طالب هذه الفتوى، رغبة منه في شنّ حربٍ على مصر، والاستيلاء عليها، بعد رفض الحاكم الإخشيدي (المسلم) أبو الفوارس بن الإخشيد الاستسلام.

تبدو القصة شديدة الشبه -ظاهريّا- بدخول العثمانيين إلى مصر، بعد تعلل السلطان سليم الأول بموالاة المماليك للصفويين، رغم دعم العثمانيين السابق للسطان المملوكي قنصوه الغوري وقائده الأمير حسين الكردي، في معركة ديو البحرية ضد البرتغاليين (الثالث من فبراير عام ١٥٠٩). أرسل السلطان سليم رسله إلى السلطان المملوكي في مصر، طومان باي، يدعوه إلى تسليم مصر دون قتال، على أن يوليه إمارتها تحت الحكم العثماني، لكن طومان باي رفض، وتصدّى بجيشه للقوات العثمانية في معركة خلدها التاريخ، ولم يأت الثاني والعشرون من يناير عام ١٥١٧ إلا والعثمانيون يحتفلون بانتصارهم الطاغي، وفرض سيطرتهم على أنحاء البلاد، وقد فرض مشهد إعدام طومان باي قدرًا كبيرًا من الرهبة والخوف، في قلوب من تبقى من الجيش المملوكي، بل والخليفة العباسي -الاسمي- والذي يقال أنه تنازل بعدها طواعية عن الخلافة، لينهي بذلك سبعة قرون ونصفًا من خلافة بني العباس، ثُلثها كانت خلافة شرفية من القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل ينعت المصريون الدولة العبيدية بالاحتلال؟ هل يعيبون عليها إغارتها على الإخشيديين المسلمين؟ هل يبكون الخلافة العباسية التي حكم الإخشيديون مصر في عهدها وكنفها؟ الإجابة على جميع هذه الأسئلة في غالب الأمر ستكون بالنفي القاطع، فالتاريخ كما ترويه الكتب المصرية يُبجل الفاطميين، - كما تنعتهم هذه الكتب- ويثمّن لهم الكثير من أعمالهم، وأهمها بالتأكيد تشييد الجامع الأزهر، متجاهلًا حقيقة أنّ الأزهر كان منبرًا للفكر الشيعي طوال قرنين كاملين، حتى أتى صلاح الدين الأيوبي وأصلحه.

لكن وعلى ما يبدو، لم يحظ بنو عثمان بمثل هذا الكرم، الذي قابل به المؤرخون دخول جوهر الصقلي وجيوشه مصر، لم يكن التاريخ منصفًا بما يكفي، ليساوي على أفضل الأحوال بين الحدثين، فينعت كلاهما إمّا بالخير أو بالشر، اختار أن يغضّ الطرف عما فعلته الجيوش العبيدية وأن يقف كثيرًا عند

ما قام به العثمانيون. بل إنه كان في غاية الإجحاف وقمة العبث، حين سمى ما فعلته جيوش سليم الأول احتلالًا، بينما أثنى على ما اقترفه الفرنسيون من جرم، يوم أن سَيّر نابليون بونابرت جيوشه إلى مصر، ونعت ذلك زورًا بـ «الحملة». أي حملة هذه التي تدنّس فيها الخيول المساجد، وتنهب خيرات البلاد تحت مسمى التنوير والتحضر؟! ألم يكن من الأجدر بمن هبوا دفاعًا عن المماليك وكالوا السباب للعثمانيين أن يتريثوا قليلًا، أن ينظروا إلى الماضي بأعين منصفة، أن يقروا بالظلم الذي لاقاه المصريون في أواخر عصر دولة المماليك، ألا يدري هؤلاء أنّ مصر تحت الحكم العثماني، لم تكن تُدار في حقيقة الأمر إلا من قبل المماليك، وأنّ الفرنسيين قد احتلوا مصر بعد فرار هؤلاء المماليك.

«هل كان العثمانيون ملائكة؟»

ربما يتبادر للأذهان هذا السؤال كرد فعل استنكاري، وكسلاح يرفعه كارهو العثمانيين في وجه المدافعين والمتعاطفين معهم، والحقيقة أنّ العثمانيين لم يكونوا ملائكة أو شياطين، وإنما هم بشر يصيب ويخطئ، مثلهم كمثل غيرهم من الدول والحكام، الذي تعاقبوا على الدولة الإسلامية منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وحتى سقوط دولتهم منذ قرن مضى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن حقبة العثمانيين في مصر هي الأروع بالتأكيد، لكن نظرة سريعة إلى الدولة الإسلامية منذ زوال دولة الأمويين، وانتهاء فترة الخلفاء العباسيين الأقوياء، تخبرنا أنّ الانحدار الذي أصاب مصر والعالم الإسلامي بأسره، لم يكن وليد الصدفة، ولم يكن خطيئة العثمانيين وحدهم، سقوط القدس بأيدي الصليبيين مرتين يشهد بذلك، سقوط بغداد ١٢٥٨ ترك غُصة في الحلق، وجرحًا لم يندمل في قلب الدولة الإسلامي، لكنه في الوقت نفسه قد بعث رسالة مفادها، أنّ الحفاظ على الدين هو واجب الساعة، هو فرض عين لا يسقط عن المماليك لمجرد وجود العباسيين في سدة الحكم، لا يكفي العثمانيين أن يأمنوا مكر الصفويين، أو زهد البرتغاليين الظاهري. لم يكن العهد العثماني عهد ازدهار حضاري كما هو العصر العباسي، أو دولة عبد الرحمن الناصر في الأندلس، لكن فضلهم في الحفاظ على الإسلام نابضًا في مصر والشام وغيرهما، لا يمكن إنكاره أبدًا. ربما لم يجُد عصرهم بأمثال المتنبي، وأبي بكر الرازي، وابن رشد، والبخاري، لم تكن اسطنبولهم كقرطبة الداخل، أو بغداد المنصور، لكن قاهرة بيبرس أيضًا لم تكن كذلك، لم يكن جامع السليمانية بأقل من مسجد السلطان حسن، ولم تكن إسكندرية كليبر وبونابرت، بأفضل من إسكندرية القانوني. صحيح أنّ دخول العثمانيين مصر منذ خمسمئة عام لم يكن فتحًا، وأنّ مصر بعد هذا الدخول لم تكن جنة، تمامًا كما لم تكن جنة قبلها، لكنه بالتأكيد لم يكن احتلالًا، مثلما لم يكن الاحتلال الفرنسي مجرد حملة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا أمر السلطان سليمان القانوني بقتل ابنه مصطفى؟

بقلم: كريم عبد المجيد

لا يختلف مؤرخو الدولة العثمانية القُدامى منهم أو المعاصرون، على أنّ أعظم سلاطينها على الإطلاق هو السلطان «سليمان القانوني» [١٥٢٠-١٥٦٦]؛ ففترته تُعرف بالعصر الذهبي، التي توسعت فيه الدولة بضم أراضٍ جديدة، ورسُخَت فيها المؤسسات القائمة، وقد كان للسلطان يد طولى في هذا النمو والازدهار الكبير؛ بعدله وحكمته التي عُرف بهما، لكن مسألة قتله لولده مصطفى زلة، لا تزال عظيمة تؤخذ على سليمان القانوني.

ومصطفى [١٥١٥-١٥٥٣] هو الابن الأكبر والوحيد لسليمان من زوجته «ماهي دوران»، أما بقية أبنائه الأربعة وبنته الوحيدة فهم من «خُرَّم سلطان» المعروفة في التاريخ الغربي باسم «روكسلانة»، ويتناول هذا المقال تفصيل قصة مقتل الأمير المغدور، كما يناقش الأسباب التي دعت السلطان لاتخاذ قرار بإعدامه، مع توضيح دور خُرَّم والصدر الأعظم «رُستَم پاشا» صهر السلطان، في قتل الأمير.

أين ذُكرت حادثة مقتل مصطفى؟

ذُكرت هذه الحادثة الصحيحة في كثير من المصادر الشرقية والغربية، بالعربية والتركية والفارسية والإيطالية والإنجليزية والفرنسية، فمن المصادر العربية نذكر «نُصرة أهل الإيمان بدولة آل عثمان» للمؤرخ المصري «محمد بن أبي السرور البكري الصديقي» [ت ١٦٧٦]، مؤرخ مصر في القرن السابع عشر، أما المصادر التركية فنجد «تاريخ بچوي» للمؤرخ العثماني الكبير «إبراهيم بچوي» [ت ١٦٥٠] كما نجد ذكرًا للحادثة في كتاب «كُنه الأخبار»، للمؤرخ ورجل الدولة العثماني «مصطفى عالي» [ت ١٦٠٠] الذي عاصر الحدث وسجله بدقة، أما المصادر الفارسية فنجد كتاب «جواهر الأخبار: بخش تاريخ إيران از قراقويونلو تا سال ٩٨٤ هـ» للمؤرخ الإيراني «بوداق منشي قزويني» المعاصر للحدث. أما المصادر الأوروبية فنجدها في تقرير سفير البندقية لبلاده في نفس عام إعدام الأمير، ونجدها في كثير من الأعمال المسرحية التي جسّدت الواقعة، مثل مسرحية «مصطفى» للشاعر وكاتب المسرحيات الإنجليزي «فُلك گري□يل»، التي طُبعت عام ١٦٠٩، ومسرحية «سُليمانو» للكاتب الإيطالي «پروسپرو بونارلّي»، التي عُرضت لأول مرة عام ١٦٣١ بإيطاليا.

التنافس على عرش سليمان

كان الصراع بين أبناء السلطان سليمان على من سيخلفه في العرش، يزداد كلما تقدم به العمر، وكان من الواضح أنّ لمصطفى الحظ الأوفر عليهم جميعًا، بسبب تأييد وحب الجميع له، وقد انقسم الصراع بين فريقين: مصطفى وأمه ورجال الدولة من جانب، وخُرَّم زوجة القانوني بمساعدة صهره رُستم پاشا من جانب آخر، فخُرَّم تريد لأحد أبنائها أن يخلف أباه على العرش، ومصطفى يسعى لعرش أبيه، كونه يرى في نفسه الأفضلية وحب قيادة الدولة، بالإضافة إلى الدعم الكبير من شرائح المجتمع المختلفة.

ويتضح من مجرى الأحداث أن خُرَّم كانت تدبر، بالتعاون مع رُستَم، ليخلف مُحمد [أكبر أبنائها] والده على العرش، وكان لها يد في انتقال الأمير مصطفى من حاكم على ولاية «مانيسا»، [بالقرب

من العاصمة] إلى «أماسيا» [بعيدًا عن العاصمة] عام ١٥٤٠، ومن ثم تعيين الأمير مُحمد بأمر من سليمان كحاكم لمانيسا، للتدرب على شؤون الإدارة، كما هو متبع مع الأمراء، مما جعل الأمير مصطفى في منافسة صعبة للوصول إلى العرش، في حالة وفاة السلطان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتفيدنا تقارير سفراء الدول الغربية عن التنافس بين خُرَّم ومصطفى، إذ أرسل سفير «امبراطورية الهابسبورج» لدى الدولة، تقريرًا إلى بلاده عام ١٥٤٧ وعام ١٥٥٠ يفيد أنّ رُستَم يريد أن يمنع مصطفى من فرصة الصعود للعرش، لأجل الأمير سليم، في حين أنّ مصادر أخرى تشير إلى أنّ خُرَّم، تريد بالتعاون مع رُستَم وابنتها، أن يَصعدوا ببايزيد إلى الحكم، خاصة بعدما انفطر قلب خُرَّم بالوفاة الفجائية للأمير «محمد» عام ١٥٤٣. أما دور رُستَم في هذا الصراع البارد فتمثل في تشويه صورة مصطفى أمام السلطان، بإظهاره بمظهر العاصي المتحالف مع الأعداء، ففي عام ١٥٤٩ عندما قام الجوريجيون بالهجوم على ولاية «أرضروم»، أرسل مصطفى لطلب المساعدة من العاصمة لردّ العدوان، ولكن رُستَم لم يستجِب له خوفًا من أن يظهر كبطل بعد هزيمة الجوريجيين، وقد تكرر الأمر عام ١٥٥٠ عندما هجمت مجموعات من اللصوص من إيران، على قرى شرقي الأناضول ونهبوها، فطلب مصطفى المساعدة مرة أخرى، ولكنه لم يلق أي استجابة من رُستَم. وقد وصلت رسالة إلى سليمان بعد وفاة الأمير، [مازالت محفوظة في أرشيف قصر «الطوب قابى» باسطنبول]، يقول فيها المرسل بأنّ رُستَم قد خطط لإظهار مصطفى بأنه متحالف مع الصفويين، عبر تزوير ختم الأمير، واستخدمه في إرسال رسائل تعاون وصداقة باسمه، إلى الشاه «طهماسب» شاه الدولة الصفوية، وقد استجاب الشاه لهذه الرسائل وبادله الجواب عليها، ولا شك بأنّ رستم قد استخدم هذه الرسائل ضد الأمير، ليثبت عليه تهمة الخيانة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما على جانب الأمير مصطفى، فكان يحشد جميع أعوانه ليشكلوا جبهة داعمة له للوصول للعرش، فداخليًّا قام ببعث رسالة إلى والي أرضروم «إياس باشا»، يطلب منه أن يكون داعمًا له في أن يصبح سلطانًا للدولة، ولكن بعد وفاة والده وليس في حياته، وقد أجابه إياس باشا بتأييده له بنص ما زال موجودًا إلى الآن. أما خارجيًّا فكان هناك تواصل بين مصطفى وسفير «البندقية» باسطنبول، وقد أرسل بمبعوث إليه يدعى «نبي بك»، يطلب المساعدة من البندقية كظهير دولي، لفوز الأمير بالسلطنة، وقد سافر هذا المبعوث برسالة من مصطفى، ومن أسير يُدعى «توماس مايكل» ابن نبيل بندقي في السجون العثمانية، إلى مجلس الشيوخ البندقي في الأول من أكتوبر من عام ١٥٥٣، وقد أشيع في البندقية أنّ هدف الزيارة هو عقد صفقة، يتم بمقتضاها تزويد البنادقة الأميرَ بالخبرات الحربية والتقنية المتقدمة، في حالة وصوله للعرش، مقابل أن يعيد إليهم «حصن المورة» الذي فقدوه سابقًا أمام الدولة، وما زال أرشيف دولة البندقية بمدينة «ساو پولو» بإيطاليا، يحتفظ بنسخة من رسالتين، حملهما سفير الأمير إليه وهو عائد لاسطنبول.

تنفيذ الإعدام: الأسباب وردود الفعل

تمتع مصطفى بحب الكثيرين له من جنود الجيش، والعلماء، ورجال الدولة والشعب، ولم يُفكر أحد أبدًا باعتلاء العرش غيره بعد وفاة والده، إلا أنّ الأقدار منعت مصطفى من الوصول بشكل أبدي. وتبدأ القصة بالحملة العسكرية، التي أرسلها سليمان على الدولة الصفوية بقيادة رُستَم پاشا؛ بسبب قيامهم بالهجوم على أراضي الدولة، فعَبر رُستَم بالجيش من اسطنبول على طول الطريق، حتى

وصل إلى قونيا بوسط الأناضول، وفي أثناء الانتقال، شاعت أخبار وسط الجنود، بأنّ هناك من أخبر الأمير بأنه قد حان الوقت المناسب، ليقود هو الجيوش بدلًا عن والده الكبير، وأنّ عليه أن يتخلص من رُستَم بالهجوم عليه في طريق الحملة وقتله، لكن مصطفى لو قام بهذا لظهر بمظهر العاصي الخارج على قائد السلطان، ويضيف سفير البندقية لدى الدولة في تصويره لواقعة خروج جيش الحملة، أنه في أثناء توجه الحملة إلى قونيا بقيادة رُستَم، أبدى الانكشارية لرُستَم رغبتهم في الذهاب إلى مصطفى في «أماسيا»، (على طريق الحملة) للسلام عليه بصفته سلطانهم القادم، لكن رُستَم رفض الأمر، وطالبهم بالبقاء معه، فتجاهلوه وذهبوا إلى مصطفى إلا قليلًا منهم، وقد أكرمهم الأمير، وقدّم إليهم الطعام والمال، وتم إرسالهم في اليوم الذي يليه إلى قونيا للحاق بالحملة.
لم يتأخر رُستَم في استغلال هذه الأمور، ليقوم بزيادة بث الريبة في صدر السلطان تجاه ولده الأمير، فأرسل يخبره بعدم انصياع الانكشارية لأوامره وذهابهم لمصطفى، وأنه من الممكن أن يجذبهم إلى طرفه بهذا الشكل في أي وقت، لينقلب على السلطنة، مما زاد من تحفّز السلطان، الذي تجهز للخروج بنفسه إلى الحملة، وإن كان غرضه المعلن قيادة الحملة بنفسه، لكن الغرض الحقيقي كان التخلص من مصطفى.
عندما وصل سليمان لمنطقة «أرغلي» بقونيا، [وبناء على تقرير سفير البندقية] أرسل في طلب مصطفى، وقد نَصح الأميرَ مساعدوه ووالدتهُ بألا يذهب إلى هناك، لكنه كان بين أمرين أحلاهما مُر، فلو رفض الذّهاب فسيكون عاصيًا للسلطان، ولو ذهب لخاطر بحياته بسبب أقوال رُستَم، وما كان من الأمير إلا أن استجمع شجاعته، وامتطى جواده وذهب حيث خيمة أبيه. دخل الأمير إلى الخيمة ورأى والده يجلس أمامه، فانحنى تقديرًا واحترامًا إلا أنَّ الجلادين لم يمهلوه أي وقت وانقضوا عليه لخنقه، فكانت نهايته نقطة سوداء في سجل سليمان؛ إذ لطّخ يده بدماء بريئة لم يَثبُت على صاحبها تهمة، وقد كان ذلك في ٢٧شوال ٩٦٠هـ الموافق ٦ أكتوبر ١٥٥٣م. انتشر خبر مقتل الأمير مصطفى، فسبّب حالة من الحزن والغضب والثورة بين أفراد الشعب، والجيش، والانكشارية، الذين وجهوا اتهاماتهم لرُستَم بشكل مباشر كسبب في قتل مصطفى، وقام السلطان بعزل رُستم للتخفيف من حالة الغضب، وعين بدلًا عنه «قارا أحمد پاشا»، لكن سرعان ما عاد رُستَم لمنصبه، فور عودة السلطان من حملته في ٢٩ سبتمبر ١٥٥٥.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمرت ردود الفعل على مقتل الأمير بأشكال مختلفة، كان من أبرزها ظهور شخص مُزيف يَدّعي أنه الأمير مصطفى في الروملي [البلقان]، بسبب الشبه الكبير بينه وبين الأمير الشهيد، وادَّعى حقه في عرش السلطنة، وقد تمكنت القوات العثمانية من القبض عليه، وإرساله إلى «اسطنبول» حيث أُعدم هناك، وإن استطاع الجيش القضاء على مصطفى المزيف، إلا أنّ الاعتراض أتى من جهة أخرى، على شكل مراثٍ للأمير بواسطة مجموعة من الشعراء، يتهمون رُستم وخُرَّم بقتل الأمير، وكان من أبرزهم الشاعر الكبير «يحيى بك» الذي اتهم رُستم بشكل مباشر بقتل مصطفى، كما وجه الانتقادات في شعره إلى السلطان سليمان لتصديقه الإشاعات المغرضة، وقد لقيت المرثية التي ألفها انتشارًا بين طبقات الشعب، وفيها يقول:
توارى عن الدنيا ذاك السلطان
وحزن الناس جميعًا لفراقه
فهذه مصيبة أصابت الجميع بأسى بالغ

وأقامت الأفلاك والملائكة المأتم لوفاته
فهم قتلوا هذا المظلوم بغير ذنب
وسيكتب التاريخ مكر رُستَم

والسؤال الذي يحتاج لإجابة واضحة: لماذا صدَّق السلطان سليمان هذه الأقاويل عن ابنه، رغم ما يعلمه عنه من إخلاص وصدق؟ وهل بالفعل كان في نية الأمير الخروج على السلطان؟

مع كثرة ما كان يقال لسليمان من رُستم بالإضافة إلى زوجته خُرَّم، وما كانا يملآن به صدره تجاه الأمير، فإنّ لسليمان دورًا شخصيًا في اتخاذ قرار الإعدام، فهو ما زال يذكر ما حدث بين والده السلطان «سليم الأول»، وجدّه السلطان «بايزيد الثاني»، فرغم تفضيل بايزيد لابنه الأكبر الأمير «أحمد»، كي يخلفه على العرش وتأييد رجال الدولة له، فإنّ الأمير سليم استطاع الوصول للعرش بالقوة، لوجود الانكشارية إلى جانبه، فخلع والده عن العرش، ولاحق الأمير أحمد وأخاه الآخر الأمير «كوركود» وقتلهما شر قِتلة، فهذه الأحداث ما زالت حيّة في وجدان القانوني، واعتقاده أنّ مصطفى قد يقوم بالانقلاب عليه، كما فعل والده مع جدّه سابقًا، جعلت السلطان يخشى على نفسه وعرشه ومكانته، فلو فعل مصطفى هذا فلن يستطيع إيقافه أحد، وقد ظنّ سليمان أنه يُضحي بخائن يتآمر مع الأعداء للحفاظ على الدولة، ولبئس ما فعل!

أما الأمير مصطفى فلا يوجد ما يُثبت أنه حاول التواصل مع الصفويين، أو أنه فكر في الخروج على أبيه رغم استطاعته ذلك، وإن كان تفكيره في طلب العرش بعد أبيه وسعيه له بطلبه التأييد من كل جانب، مقابل المكائد التي كانت تحاك ضده، وفي ظل كبر والده في العُمر، أمر واجب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخلافة ... غاية أم وسيلة؟

بقلم: أيمن حويرة

مع حلول الثالث من مارس كل عام، وفي ذكرى إلغاء الخلافة الإسلامية، بعد رحلة استمرت ثلاثة عشر قرنًا، يطغى الحنين والأسى دومًا على كلمات الكثيرين، تظهر رغبتهم الطاغية في استعادة هذا الكيان، الذي -ولاندثاره منذ أكثر من عشرة عقود- لم يعاصره أبدًا أيٌّ من هؤلاء المنادين بعودته. على الجانب الآخر يصطف فريق كامل من أعداء الخلافة، تلك الفكرة التي يلفظها هذا الفريق، بمجرد ذكر اسمها فقط، دون التطرق لتفاصيلها أو مستقبلها. ينخرط كارهو الخلافة في معارك ضارية مع مؤيدي عودتها، يتبارى الفريقان أحدهما في تصيد أخطاء تجارب الماضي، والآخر في التبشير بأمجاد المستقبل، دون اهتمام الطرفين بنقاش فكري حقيقي، عن ماهية ما يختلفان فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل حقًا قدمت الخلافة للإسلام والحضارة ما يبرر المطالبة بعودتها؟ وحتى وإن كان لها الفضل -كنظام حكم- فيما وصل إليه المسلمون يومًا ما، هل تظل خيارًا مطروحًا يتواكب مع طبيعة العالم الآن ومتغيراته؟ ثم هل يمكن أن ننعت أصلًا الدولة الأموية والعباسية والعثمانية بالخلافة؟ وإن كان لنا أن نسبغ عليها عباءة الخلافة، هل يرغب مناصرو فكرة إحياء الخلافة، في استنساخ هذه الدول مرة أخرى بما ارتكبته من أخطاء؟ هل هناك تصور آخر عصري في أدبيات الإسلاميين أو دراسات مفكريهم، يجعل من الخلافة حلمًا ورديًا وهدفًا يُسعى خلفه؟

بالتأكيد تدور هذه الأسئلة بخاطر رافضي عودة الخلافة، ينظر هؤلاء إلى الحضارة الإسلامية وإنجازاتها، بمعزل عن الخلافة أو الجانب العقائدي فيها، يُرجعون التفوق الإسلامي لأسباب دنيوية بحتة لا دخل للدين فيها. تفوق الأمويون عسكريًا لأنّ الفرس اندحروا والروم تقهقروا، ازدهرت الحركة العلمية في العصر العباسي رغم ظهور دويلات، ربما لا تدين كلها لبغداد بالولاء، وحتى الأندلس صاحبة الصورة الوردية المبهرة، لم تنعم بالاستقرار السياسي كثيرًا، ولم تكن جزءًا من خلافة المشرق إلا قرابة أربعة عقود، فأنّى للخلافة أن تكون سببًا في بزوغ نجم قرطبة!

يثور الإسلاميون كثيرًا حين تصل هذه الكلمات إلى مسامعهم، يملؤهم الغضب وينبرون مدافعين عن الخلافة مفنّدين الأفكار السلبية التي تم طرحها عنها. يرتحلون إلى الماضي باحثين عن أفضل اللوحات التي رسمتها دول الخلافة المختلفة، يجمعون زهرة من بستان الراشدين، مع أخرى من حديقة الأمويين، عدل الفاروق، وعظمة عبد الرحمن الناصر، زهد عمر بن عبد العزيز، وقوة هارون الرشيد، وشجاعة الداخل، وهيبة القانوني. لكن الشيطان دائمًا ما يكمن في التفاصيل، ولهذا فلن يتطرق هؤلاء كثيرًا لهذه التفاصيل، سيتظاهرون إما بعدم أهميتها، أو بإدعائها وكذبها. لن يذكر أحدهم المجازر التي أقامها العباسيون للأمويين، حين يأتي ذكر قاهرة المماليك، سيتناسى الجميع أنّ أي مجد تحقق حينها لا دخل للخلافة فيه، فقد كانت الخلافة حينها اسمية لا فعلية. أمّا العثمانيون فستطغى فتوحات القانوني، على أخطاء بضع وعشرين خليفة جاءوا من بعده، وستتردد أسطورة جمعية الاتحاد والترقي، وأتاتورك الذي أسقط الخلافة، دون الحديث عن الأسباب الحقيقية التي قادت لهذا السقوط، ومهدت له ربما قبلها بأكثر من قرنين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن ومع كل هذا، هل كانت تجربة الخلافة فاشلة؟ أو بصورة أخرى هل حال المسلمين ودولتهم -التي صارت دولًا ثم دويلات- أحسن حالًا الآن؟ هل استطاع ملك المغرب تحرير الأقصى؟ هل استطاعت مصر إعانة سوريا، كما فعلت قديمًا يوم أن كانتا دولة واحدة؟ وهل أمدّت الحجاز الصومال بالمال والغذاء، كما كانت الصومال تفعل دومًا منذ عدة قرون؟ إجابة كل هذه الأسئلة تخبرنا، بأنّ كارهي الخلافة إنما يستندون في كرههم ورفضهم، إلى حيثيات واهية إلى حد كبير، حيثيات ترجع وجاهتها المزعومة فقط لضعف حجة الإسلاميين، والخلل الواضح في تصورهم للخلافة المستقبلية. بل يبدو أنّ المشكلة الرئيسة التي يتجاهلها الطرفان، والتي تمسّ منهجيتهما بصورة كبيرة، هي توصيف القضية نفسها قبل الخوض في الدفع إما بصحتها أو بطلانها، السؤال الذي ينبغي أن يجيبه الطرفان أولًا هو: هل الخلافة غاية أم وسيلة؟

سيجيب الإسلاميون عن هذا السؤال بأنها غاية، هي بشرى بشّرنا إياها رسول الله -عليه الصلاة والسلام- ونحن في انتظار تحقيقها، خلافة على منهاج النبوة كخلافة الراشدين التي دامت فقط ثلاثين عامًا، والتي انقطعت بعدها لألف وثلاثمئة عام. ألف وثلاثمئة عام لم نظفر فيها بالكثير من الخلفاء أشباه الراشدين، وحتى من استحقوا أن تزين أسماؤهم صفحات المجد الإسلامي، لم يسلموا من بعض الزلات التي لا ضير نظريًا في ذكرها، لكن الحديث عنها يطعن قليلًا في سلامة الفكرة والغاية، فضلًا عن غياب أي أفكار أو رؤى، تتحدث عن الوسيلة لبلوغ هذه الغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفريق الآخر بزعامة العلمانيين -والذي يضمّ في صفوفه فئات بعضها يحمل الأيدولوجية الإسلامية-، يؤمن بأنّ الخلافة ليست غاية ولا حتى وسيلة، هم لا يؤمنون أصلًا بأنّ ما تحقق في الماضي من حضارة، إنما يعود فضله إلى الخلافة، بل إنّ أكثرهم لا يعتقد أصلًا بعظمة ما تحقق في الماضي، ينعت الفتوحات الإسلامية بالاحتلال، ويمحو إنجازات الخلفاء مع أول زلة لأيٍّ منهم. يزعم هذا الفريق أنّ الفكرة لم تعد صالحة، إن جاز أن نفترض صلاحيتها قديمًا. لكن هؤلاء لا يقدمون حلًا بديلًا أو تصورًا مقنعًا، لا للغاية التي يطمحون لها، ولا للوسيلة التي يرغبون في انتهاجها، لتحقيق هذه الغاية. ربما يخطئ الإسلاميون، حين يقدمون تصورًا منقوصًا قاصرًا، لشكل الدولة التي يرمون إلى الوصول إليها، لكن رؤية العلمانيين تبدو أكثر قصورًا. يبدو أنّ غايتهم فردية لا تضع المجتمع أو الدولة ضمن أولوياتها، يتحدثون عن الحرية المطلقة، ويدفعون بأنّ هذه الحرية حتمًا ستؤدي إلى الحضارة، متجاهلين عشرات الدول الأوربية، والأمريكية، التي تنعم بهذه الحرية، لكنها تقبع في ذيل الأمم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ستظل هذه الحرب مستعرة، سينتظر الإسلاميون كثيرًا حتى يُنعم الله علينا بخلافة آخر الزمان، والتي حين تأتي ستكون النهاية قد حانت، وسنكون قد أنفقنا عمرنا دون عمل، انتظارًا لتحقيق البشارة، سيتغنى العلمانيون بالحرية والإنسانية، التي يجب أن تسمو فوق الأديان والعقائد، دون النظر إلى أسطورة عودة الخلافة، التي عفا عليها الزمن، سيدّعون أنّ الحياة ستكون أفضل كثيرًا هكذا، لكنهم سينتظرون كثيرًا أيضًا، ولن تصبح الحياة أفضل، ولن تدوم هذه الحرية أو الإنسانية، طالما تعارضت مع سنن الله وشرائعه. وسيبقى مفهوم الخلافة التي أؤمن أنا به، نبراسًا لمن أراد ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. سيبقى كل منا خليفة لله في أرضه، يعمرها وينشر فيها دين الله، وستبقى الخلافة بمفهومها السياسي حلمًا، أتمنى أن يرزقنا الله تحقيقه، حلم وحدة إسلامية لا تشبه قصص الماضي

بالضرورة، ولا تلتزم بإطارات التاريخ، خلافة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، خلافة لن تكون وردية تمامًا، كما لم تكن سابقتها، ولن تكون كارثية كما يتصورها رافضوها... خلافة بشرية تمامًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل انتقلت الخلافة إلى العثمانيين؟

بقلم: كريم عبد المجيد

تحمل الإجابة عن هذا السؤال الكثير من النزاع، بين مؤيدي الحكم العثماني والرافضين له، كما تحمل الانقسام بين كل فريق من الفريقين بداخل نفسه، فهناك مؤيدون لحكم العثمانيين، ولكنهم يرون أنهم لم يحصلوا على لقب الخلافة، وهناك مؤيدون مع الإقرار بشرعية حكمهم وتقلدهم للخلافة، كما أنّ هناك رافضين يرفضون الحكم العثماني كله، ولا يعتبرونه إمامة شرعية، وهناك من الرافضين من يراه خلافة مع الجور والظلم، كما هو حال الخلافة الإسلامية كلها من وجهة نظرهم، وهي مسألة هامة بها الكثير من التفصيلات، التي بحاجة إلى بسط وشرح واسع مطول، أحاول إجماله هنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد سقوط الدولة العباسية في «بغداد» على يد التتار، خرج الخلفاء العباسيين من مسرح التاريخ بشكل كلي، ولم يتبق منهم إلا لقب «الخلفية»، بعد انتقاله إلى القاهرة تحت الحكم المملوكي، وكانت الصلاحيات التي يتمتع بها الخليفة العباسي في القاهرة صلاحيات شرفية، وكان الحُكم الفعلي في مجريات سياسة الدولة، للسلطان المملوكي.

ومع بزوغ نجم العثمانيين وتوسع دولتهم، وذياع صيتهم في العالم الإسلامي، اتجهت الأنظار إليهم كمنافس قوي على زعامة الأقطار الإسلامية في الشرق والغرب، وكان المماليك ينظرون إليهم كمنافسين لهم، كما تطلع آل عثمان إلى بسط سلطان نفوذهم،على الأراضي المقدسة في مكة والمدينة، الأمر الذي حدث فعليًّا بسقوط الدولة المملوكية، بعد دخول السلطان «سليم الأول» القاهرة بعد معركة الريدانية عام ١٥١٧؛ لينتقل حكم الشام ومصر والحجاز إلى الدولة العثمانية، ويُطرح على إثره سؤالٌ، حول مشروعية العثمانيين في نيل لقب ومكانة «الخلافة»، بديلًا فعليًّا عن سقوطها الذي تمّ من قرون مضت.

ويرى كاتب هذه السطور، أنّ العثمانيين قد حازوا اللقب والمكانة، بسيطرتهم على قلب العالم الإسلامي، وبإقرار رجال العلم والدولة حينها بشرعيتهم، في تولي «الإمامة العظمى» أو الخلافة؛ لتوافر الشروط الشرعية والسياسية لحيازة هذا المنصب، إلا أنّ الأمر لا يتم بذكر رأي شخصي، دون أدلة وحُجج تثبت الأمر من جهة، وتَرد من جهة أخرى،على القائلين بعدم أحقية العثمانيين الحصول على المنصب، وهم يستندون في هذا الأمر على سببين رئيسين: أولهما كونهم ليسوا عربًا، وأنّ الإمامة لابد أن تكون في نسل عربي قرشي، وثانيهما كونهم لم يدَّعوا اللقب إلا في القرن «الثامن عشر»، لأغراض سياسية حينها ولم يظهر على الساحة مرة أخرى، إلا في عهد السلطان «عبد الحميد الثاني»، مع فكرته السياسية التي تقوم حول مبدأ «الجامعة الإسلامية»، وهما المسألتان اللتان نناقشهما في السطور القادمة.

إمامة القرشي المشروطة

تستند مشروعية حكم الخليفة عند الفقهاء ورجال العلم، إلى شرطية تولي شخص «قُرشي» خلافة النبي في سياسة المسلمين، وهو شرط انبنى على «حديث» شهير للنبي عليه الصلاة والسلام يقول فيه: «الأئمة من قريش»، وهو حديث صحيح، كما له أحاديث أخرى صحيحة تفيد بأنّ الإمامة/ الخلافة من قريش، طالما استطاع الخليفة القرشي أن يقيم الدين، مثل حديث: «إنّ هذا الأمر في

قريش لا يعاديهم أحد، إلا كبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدين»، وهي مجموعة أحاديث اعتمد عليها الفقهاء في القول بإمامة القرشي، طالما توافرت له مقومات الحُكم، واستطاع إقامة الدين وسياسة الناس به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمّا في حال امتناع الشروط،وعدم وجود القُرشي الذي يستطيع أن يقوم بأعباء الخلافة، فلا مانع من تولي «غير القُرشي»، بل وغير العربي بالكلية منصب «الخليفة»، طالما توافرت فيه الشروط كما ذكروا، مع إقرار شرعية حكم المتغلب بقوة السلاح. وهو نقاش فقهي مُطوّل عُمل به في هذه الأزمان، وعليه كانت تسير أمور تداول السلطة بين الخلفاء، خاصة عند الانتقال من دولة إلى دولة، فبناء على ما سبق، لا مانع شرعي من تولي الأتراك العثمانيين الإمامة العظمى، ولا يوجد حينها سواهم يستحق هذا اللقب، وهذا التكليف.

وقد أثيرت مسألة قرشية الخليفة، في عهد السلطان والخليفة «سليمان القانوني» (١٥٢٠-١٥٦٦)، فقام أحد رجال الدولة الكبار في عهده وهو الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- «لطفي باشا»، بوضع رسالة فقهية بالعربية بعنوان: «خلاص الأمة في معرفة الأئمة».يناقش فيها مناقشة شرعية، أحقية السلاطين العثمانيين بالخلافة، ويفنّد دعاوى من قال بوجوب تعيين خليفة قرشي تحت أي ظرف، وهي رسالة صغيرة مُحققة ومنشورة.

اعتراف العالم الإسلامي بخلافة العثمانيين

وعلى المستوى العملي، فقد اعترف العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه، -باستثناء السعديين في المغرب- بأحقيّة العثمانيين بالخلافة، وذلك قبل القرن الثامن عشر بأكثر من قرنين من الزمان، وبالتالي فهو قبل الإدعاء الذي يقول، بأنهم نسبوا اللقب إلى أنفسهم لأول مرة في القرن الثامن عشر، خاصة بعد توقيع معاهدة «كوتشوك كاينارجا»، بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٧٧٤، فقد سيطرت روسيا على «القِرم» ذات الأغلبية المسلمة، وتطلب التدخل حينها من سلطة «الخلافة»، كي يقوم الخليفة العثماني بالتفاوض مع الروس، حول حقوق المسلمين في هذه المنطقة، التي دان حُكامها بالولاء لسلاطين الدولة مع احتفاظهم بالاستقلال في الحكم والإدارة، ففي بند من بنود المعاهدة تم ذكر السلطان العثماني، بصفته «إمام المؤمنين وخليفة الموحدين»، وهو أمر كان قد ثَبُت واستقر في الأذهان، وجرى بناء عليه النظرة إلى الدولة، بين عامة المسلمين من داخل حدودها أو خارجها كما سنرى.

ويستند مَن يستند إلى عدم أحقيّة انتقال الخلافة إلى العثمانيين، إلى رفض الحدث الذي ذُكر في بعض كتُب التواريخ، والذي يحدثنا عن انتقال الخليفة العباسي «المتوكل» مع السلطان «سليم الأول» إلى اسطنبول، بعد سقوط دولة المماليك بالقاهرة، وتنازل الخليفة في جامع «آيا صوفيا» إلى السلطان سليم عن لقب الخلافة، ليصبح سليم أولَ خليفة من خلفاء بني عثمان، وهو رفض صحيح تاريخيًّا، فلم يُذكر في أي من كُتب التواريخ المعاصرة لدخول السلطان سليم الشام ومصر، ولا الكتب التي أتت بعدها بقرون، ذكرٌ لحادثة تسليم المتوكل الخلافة إلى سليم، بل ظهرت تلك الرواية لأول مرة في القرن الثامن عشر، في كتابات الدبلوماسي الأرمني (D’hosson)، الذي عَمِل بالسفارة السويدية في اسطنبول، وهو رجل له عمل هام عن تاريخ الدولة العثمانية بعنوان: «الصورة العامة للامبراطورية العثمانية» طبع بالفرنسية في باريس.

وإن كنتَ أؤيد الحقيقة القائلة باستحداث هذه الرواية في نفس القرن، وأنّ المتوكل أخذ فعلًا إلى اسطنبول دون وجود مراسم لتسليم الخلافة، إلا أنها لا تطعن في مشروعية الحصول على المنصب، فسواء سلمها المتوكل أو لم يسلمها، فإنّ استلام سليم لها -أو ابنه سليمان كما يرى بعض المؤرخين- أمر يقرّه الواقع حينها، لتوافر شروط القوة في الخليفة الجديد، وانتفائها عن الخليفة العباسي، وهي خطوة حازت بها الخلافة قوتها الحقيقية الماضية، مع انتقالها إلى العثمانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما عن أدلة استخدام اللقب، فنجد أنّ غالبية السلاطين العثمانيين قد استخدموا اللقب، قبل المعاهدة سالفة الذكر، وقد ذُكر لقب «الخليفة» أو «ظل الله في الأرض»، في المراسلات الخارجية من عهد سليمان القانوني، كما كان الاعتراف بها من القوى الأوروبية بكون السلطان العثماني هو خليفة المسلمين، قبل دعوة السلطان «عبد الحميد الثاني» بفترة طويلة، فقد تدخل السلطان «عبد المجيد الأول» (١٨٣٩-١٨٦١) بصفته خليفة للمسلمين بناء على طلب من بريطانيا، لتهدئة الثورة الهندية التي قامت على الاحتلال البريطاني لشبه الجزيرة الهندية عام ١٨٥٧، كما تمت مراسلة السلطان عبد العزيز الأول (١٨٦١- ١٨٧٦) للتدخل كخليفة للمسلمين في «جزر كومورو» في المحيط الهندي، وفي «التركستان الشرقية» عندما طلب قادة مسلمون منه المساعدة ضد الإنجليز والروس، كما نجد أنّ الإمام «شامل الداغستاني» قد تواصل مع دولة الخلافة العثمانية، ونجده يسلم بولاية السلطان والخليفة العثماني عليه، ففي عام ١٨٥٦ بعد توقيع معاهدة «باريس» للسلام بين روسيا والدولة العثمانية بعد حرب القرم، قال بأنه: «لو طلب السلطان «عبد المجيد» منه أن يقوم بعمل معاهدة سلام بينه وبين روسيا، على غرار ما فعله السلطان معهم، لما استطاع أن يرفض طلبه»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن جوانب الموضوع المهمّة، نظرة علماء المسلمين من داخل الدولة وخارجها، للسلطان العثماني على أنه خليفة، فلدينا كثير من الآثار التي تدل على أنّ هذه النظرة، كانت معروفة ثابتة بين العلماء العرب أو الأعاجم، فنجد في كتب التراجم العربية، الحديث عن اسطنبول بأنها «دار الخلافة». وقد ذكر المؤرخون العرب هذه العبارة في كتبهم كثيرًا، مثل المحبي في كتابه: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، والمرادي في كتابه: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»، والبكري الصديقي في كتبه العديدة، والجبرتي في كتابه الشهير: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، ويوجد حتى الآن مثال لطيف لطبعة من غلاف كتاب «تاريخ راشد»، المطبوع في مطبعة «إبراهيم متفرقة» عام ١٧٤٠ في اسطنبول، بدايته كُتب أنّ هذا الكتاب طُبع في عهد السلطان «محمود خان»، «خُلدت خلافته ودام سلطانه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما عن خارج حدود الدولة، فنجد ذكرًا واعترافًا بالخلافة العثمانية من أصقاع ومسافات شاسعة، فيذكر العالِم الهندي الكبير «شاه ولي الله الدهلوي» (١٧٠٣-١٧٦٢) سلاطين الدولة في موضعين من كتابه: «التفهيمات الإلهية» بأنّ أول من حصل منهم على لقب «أمير المؤمنين» هو السلطان «سليم الأول»، وكان يُخطب لهم على منابر العرب والشام والحرمين، كما يذكر بخدمتهم للحرمين الشريفين، وإمارة موسم الحج، والمحامل، والقوافل، ويذكر الأديب والشاعر والمؤرخ الهندي المعروف «آزاد البلكرامي» في كتابه: «سبحة المرجان في آثار هندوستان» عام ١٧٦١ بأنّ مدينة «كولومبو» الموجودة بـ «جزر سيلان» (سريلانكا حاليًا)، كان يتواجد بها قريتان للمسلمين، وكان

خطيب الجمعة في هاتين القريتين يدعو لسلطان الهند المغولي، ولسلطان الروم (العثماني) كونه خادم الحرمين الشريفين، فما الذي يفسر أمر دعائه لسلطان الدولة العثمانية، إن كانوا لا يعتبرونه خليفة للمسلمين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد قابل صاحب كتاب «تحفة العالم» السيد «أبو طالب موسوي فندرسكى» سائحًا، قد زار مجموعة جزر في جنوب شرق آسيا مثل «سوماترا»، و«جاوا» و«ماليزيا» و«إندونسيا»، وذكر له بأنّ هذه الجزر يقطن غالبها مسلمون، وهم يخطبون الجمعة باسم سلطان الروم (الخليفة العثماني)، والمسلمون هناك مطلعون على أحوال بلاد الخلافة، وذلك في أوائل القرن الثاني عشر الهجري/ أواخر السابع عشر الميلادي.

ونخلص من العرض السريع لكل ما سبق، بأنّ سلاطين الدولة العثمانية قد حازوا منصب الخلافة بشكل شرعي، وباعتراف المسلمين حول العالم، وأنّ منصب الخلافة عندما تم إلغاؤه علي يد أتاتورك، كان منصبًا معترفًا به من قرون، ولم يكن وليد قرن أو قرنين، قبل سقوط الدولة وزوال منصب الخليفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الاحتلال العثماني لمصر

بقلم: كريم عبد المجيد

حلت علينا في عام ٢٠١٧ ذكرى مرور خمسمئة عام على الدخول العثماني للشام ومصر، الدخول الذي ترك أثرًا كبيرًا في بلدان الحاضر المشرقي الذي نعيش فيه اليوم، على المستوى السياسي والاجتماعي والعمراني، نتيجة للتغيرات التي حدثت فيه على مدى أربعة قرون، وأدت في النهاية إلى استلامنا للدول القطرية التي نعيش فيها اليوم، بعد سقوط الدولة العثمانية فعليًّا، بانتهاء الحرب العالمية الأولى.

ويظهر على الساحة التاريخية نقاشات كثيرة حول طبيعة الحكم العثماني لمصر، والذي يوسم من البعض بأنه احتلال، مثله مثل الاحتلال الأوروبي في القرن التاسع عشر، ويصفه آخرون بأنه فتح للأقطار العربية، وفترة من الفترات الطبيعية التي شهدت صعودًا وهبوطًا، نتيجة لطبيعة الحكم التي تقوى أو تضعف بمرور القرون، وهذا المقال يقف صاحبه على الجانب الذي ينفي فيه احتلال الدولة العثمانية لمصر، ويرى أنّ الحكم العثماني لمصر كحكم أي دولة إسلامية أخرى، يحمل في طابعه حسناته وسيئاته، وشهدت فيه مصر قوة وضعفًا، ولا يمكن أن نقارنه أبدًا بالاحتلال الأوروبي المدمر؛ لذا كان هذا المقال كمحاولة منطقية لمناقشة استفسارات وادعاءات، طرحت عدة مرات تصف الدخول العثماني لمصر بأنه غزو واحتلال.

س١: ويدور السؤال حول احتلال العثمانيين لمصر وليس فتحها

قبل مناقشة السؤال، يجب أن أذكر بأنّ المصطلحين «غزو» أو «فتح» كانا يستخدمان في الأدبيات التاريخية المعاصرة للقرون العثمانية دون تفرقة تذكر، فالاستخدام الاصطلاحي لهما بدأ يظهر لدى المؤرخين القوميين المصريين، لوصم الحكم العثماني «بالاحتلال»، وهي لفظة لم يستخدمها أي مؤرخ مصري أو عربي، عاش فترة الحكم العثماني للأقطار العربية.

ويشتهر في التاريخ بأنّ المصريين لم يتقلدوا مناصب عليا في الدولة العثمانية، كما يدعي الكاتب الكريم، إلا أنّ التاريخ يثبت عكس ذلك، فمثلًا لدينا القائد المملوكي المصري «أوزديمير باشا» الذي عاصر الدخول العثماني لمصر وترقى في مناصب الدولة حتى وصل إلى «بكلربكي» اليمن ثم الحبشة، [وبكلربكي رتبة تقل عن الوزير بدرجة]، وقد أنجب هذا القائد ابنه «عثمان باشا» الذي شارك في الحملات العسكرية للدولة، وقد ترقى في المناصب حتى وصل إلى منصب الصدر الأعظم [رئيس الوزراء]، في عهد السلطان «مراد الثالث» [١٥٧٤-١٥٩٥] وهو رأس المناصب في الدولة بعد منصب السلطنة كما هو معروف-.

أما على مستوى ولاية مصر، فمنذ النصف الثاني للقرن السابع عشر، بدأ المماليك بالفعل في التدخل بقوة في حكم مصر، وإن لم يتقلدوا منصب الولاية مباشرة، لكن فعليّا كان الحكم في أيديهم، والباشا العثماني ما هو إلا تابع لهم، وإذا نظرنا إلى عرق الولاة العثمانيين أنفسهم الذين أتوا إلى مصر، فسنجد قلة منهم مَن كان ذا أصل «تركي»، بل تجد أغلبهم أصحاب أصول بلقانية، والذي يميز الدولة العثمانية في جانب اختيار قادتها، أنها لم تكن تحسب حساب العرق التركي في سياسات الدولة، [بل كان يطلق لقب تركي على فلاحي الأناضول]، ولا تتعامل مع موظفيها ورجالها حسب الرقعة الجغرافية التي أتى منها، بل الأفضلية لكل مسلم، بغض النظر عن عرقه طالما أثبت كفاءة في موقعه.

أما عن موضوع القضاء، فنظام الدولة يشترط على من يصل إلى أعلى منصب قضائي في الدولة، [قاضي عسكر الأناضول والروملي] أن يكون قد تلقى تعليمه في مدارس «اسطنبول»، وأن يترأس الولايات القاضي العثماني الحنفي، إلا أنّ بقية القضاة على المذاهب الأخرى كانوا يعملون بشكل طبيعي جدًا، وجميع المذاهب الفقهية من شافعية ومالكية وحنبلية، كانت موجودة وحاضرة في مصر العثمانية، ولم يوجد تفضيل لمذهب على مذهب آخر، بل هناك من القضاة المصريين من آلت إليهم رئاسة هرم السلطة القضائية، وقضاء العاصمة العثمانية اسطنبول، مثل القاضي «أبو السعود بن عبد الرحيم بن علي المصري» الذي ولد في مصر وتلقى تعليمه فيها، ورحل إلى اسطنبول، ولازم في مدارس سليمان القانوني، وتولى قضاء عدة مدن في الدولة حتى وصل لرئاسة قضاء العاصمة اسطنبول، ثم أخيرًا أعلى رتبة قضائية في الدولة وهي «قاضي عسكر الأناضول»، والقاضي «تقي الدين محمد بن عمر الفارسكوري المصري» الذي رحل إلى اسطنبول، وتولى رئاسة القضاء فيها.

س٢: ويدور حول وهمية طلب الشعب المصري النجدة من الدولة العثمانية

يوجد حتى الآن شواهد، تدل بالفعل على إرسال رسائل استغاثة من علماء مصر والشام، لتخليص البلاد من المماليك، وضمها للدولة العثمانية، منها مثلًا ما ذكره المؤرخ العثماني «عبد الله چلبي رضوان پاشا زاده» في كتابه «تاريخ مصر»، [الذي يغطي تاريخ مصر من بداية الخليقة حتى عام ١٦٤٦] أنّ علماء مصر [الممثلين للشعب المصري] يلتقون سرًا بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه شكواهم من جور الغوري، ويستنهضون عدالة السلطان كي يأتي ويأخذ مصر.

وعلى الجانب الشامي، نجد نفس الأمر عن طريق اجتماع رجالات حلب وعلمائها وقضاتها وأعيانها، ثم قرروا كتابة عريضة بواسطة ممثلي المذاهب الأربعة، يشتكون فيها من ظلم المماليك، مع وعد بالوقوف مع السلطان سليم لو قرر الزحف على حلب، وهذه العريضة ما زالت موجودة ومحفوظة في الأرشيف العثماني، بمتحف طوب قاپي باسطنبول تحت رقم ١١٦٣٤ (٢٦)، وهي موقعة بأسماء العلماء والقضاة وبتركية ركيكة تدل على عدم تمكنهم من اللغة، وفعليًّا رحب أهل حلب بالعثمانيين، ووقفوا معهم ضد المماليك، وسلموهم المدينة دون قتال، وهذا ثابت تاريخيًّا.

أما عن أسباب التدخل نفسها فعديدة، ولا يمكن إرجاعها لطلب العلماء فقط (إن ثبتت من الجانب المصري كما ذكر المؤرخ العثماني)، وهي نتاج توتر في العلاقات بين الدولتين منذ عهد السلطان «محمد الفاتح»، والذي نادى بطومان باي سلطانًا ليس الشعب ومن يمثله من قضاة وعلماء، وإنما أمراء المماليك الذين تبقوا من معركة مرج دابق، وعادوا إلى القاهرة في حضرة شيخ يدعى الشيخ «سعود» في جلسة مغلقة، ثم علم بعد ذلك القضاة والعلماء الموجودون بالقاهرة وأصبح أمرًا واقعًا، وهذا ما ذكره ابن إياس في تاريخه.

س٣: ويدور السؤال حول عدم انتماء الوالي العثماني لمصر مقارنة بالمماليك

لب موضوع إدارة الدولة أو القطر، أن يكون القائم على الأمر شخصًا يجيد الإدارة، سواء كان واليًا من خارج المجتمع المصري أو من داخله، فلن يكتسب القائم بالأمر ميزة بمجرد أنه من أهل الولاية، فكثيرًا ما ضيع أهل البلد بلدهم بسوء إدارتهم، كما أنّ هذا الوالي وفقًا للقانون العثماني، يحاسب بدقة كبيرة على ما يفعله في الولاية، وهو يسير على قانون وضع للولاية عُرف في التاريخ العثماني باسم «قانون نامه مصر»، ويساعده الديوان الذي يعقد أسبوعيًّا، ويحضره كبار أهل البلد من علماء وقضاة وتجار وعسكريين وغيرهم، فهو لا يعمل منفردًا، ويتم مراجعة ما يقوم به من جانب السلطة

المركزية، [خاصة في فترات قوة الدولة]، فلو قصر في عمله فمن الممكن أن يتم إعدامه، وبناء على ذلك ليس هناك فرق بين القادم من هناك أو الذي نشأ في البلد، طالما أن الاثنين يطبقان القانون.
النقطة الثانية في القصة أنّ المماليك لم يختفوا من المجتمع المصري بسقوط دولتهم، بل ظلوا في المجتمع المصري كقوة فاعلة، وصلت لمحاولة الانفصال الفعلي بمصر عن الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، ولو نظرنا لعدد الفقهاء والعلماء العثمانيين الذين استقروا بمصر في عهد العثماني، لأدركنا أنّ العلماء المصريين يتفوقون عددًا ولا شك، فدائمًا ما كانت مصر على مر التاريخ بوتقة، ينصهر فيها من يأتي من كل البلدان، وهي ميزة من ميزاتها التي رفعتها مكانة كبيرة في التاريخ.
س٤: ويدور السؤال حول أخذ العثمانيين أموال مصر لصالح المركز
وصحة هذا الكلام تاريخيًّا لا أساس لها، ففيما يخص الخزينة الإرسالية السنوية فهي معروفة بما كان فائضًا عن حاجة خزينة الولاية بعد صرف جميع الأموال في مصارفها الخاصة، أي أنّ هذه الإرسالية لم تكن تُقتطع من القوت المصري لتسد به حاجة اسطنبول، بل هي فائض عن الحاجة التي تحتاجها الولاية، وكانت متغيرة من عام لعام لأسباب كثيرة، إلا أنه كان يُراعى ألا تزيد الإرسالية عن قوة الولاية المالية، وعندما تم زيادة المبلغ المرسل من والي من ولاة الدولة في عهد السلطان «سليمان القانوني»، أرسل إليه السلطان يستفسر عن سبب هذه الزيادة التي أرسلها، وأنها لابد أن تكون على حساب الولاية نفسها، فأخبره أنها حسن إدارة منه، ولم يزد شيئًا على كاهل الناس.
ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الصفة لم تظل على نفس الحال طوال العهد العثماني، ففي عهود القوة كان يتم ضبط المبلغ، وفي عهود الضعف والفتور كان الفساد والسرقة يثقل كهول الناس، أضف لذلك أنّ هذه الأموال لم تحتفظ بها السلطنة في خزينتها لزيادة ثرائها فقط، بل كان يوقف جزء منها على الجيش في الولاية الفلانية، أو يمول بها بناء جامع كبير في العاصمة أو في ولاية أخرى، أو يصرف منها على الأسطول أو الجيش، فهي أموال لتقوية الدولة كوحدة واحدة، وهذه السياسة المالية كانت تطبق على ولايات الدولة قاطبة، وليس على مصر فقط.
أضف إلى ما سبق أنّ هناك في أرشيفات الدولة، كميات من الوثائق التي تدل على إرسال الولاية في طلب مستلزمات من المركز، فيستجيب إليها المركز مباشرة ضمن عملية تكاملية اقتصادية، فمثلًا عندما أرسل والي مصر «أحمد پاشا جرجي» [حكم من ١٦٣٥ حتى ١٦٣٧] إلى السلطان يريد «نحاسًا» لضرب العملة، لأنه لا يوجد ما يفي منه في هذا الوقت في الولاية، استجاب له السلطان من العاصمة باثني عشر ألف قنطار من النحاس، فهل أرسلت بريطانيا وقت احتلالها لمصر في مرة أي شيء كانت مصر بحاجة إليه، كي أقارن بين الحكم العثماني والاحتلال الأوروپي؟ أما الحديث عن المؤسسات الخدمية من صحة وتعليم، فيجيب عنها الآلاف من الوثائق الوقفية التي ما زالت باقية حتى الآن بأرشيفات المحاكم الشرعية بمدن مصر المختلفة، أو بداخل الأرشيف العثماني في اسطنبول، فهي فرمانات وأوامر من الولاة ومساهمات من الشعب المصري في بناء هذه المؤسسات، وهي بالآلاف، وقد بُسط الحديث عنها في كتب وأبحاث كثيرة، وبحاجة إلى مزيد من الكتابات.
أما بخصوص تعاون السلطان «بايزيد الثاني» والسلطان «قايتباي» لإنقاذ الأندلس، فأمر لم يحدث تاريخيًّا، فالعلاقات بين الطرفين كانت سيئة للغاية طوال عهد قايتباي حتى موته، وانتهت بصلح على مضض بين الطرفين في النهاية، وهي علاقة مليئة بالحروب الطويلة التي استنزفت الخزانة المصرية وجعلت قايتباي يفرض ضرائب إضافية على الشعب لسد حاجة الخزينة الفارغة من هذه

الحروب، كما أنّ الأسطول العثماني في عهد بايزيد كان أسطولًا لا يقوى على مجابهة الأسطول الإسباني ندًا لند.
والحديث عن سقوط الأقطار الإسلامية بيد الأوربيين في القرن التاسع عشر شيء أتى من ضعف الدولة العثمانية، وهو أمر طبيعي في كل دولة تأخذ دائرتها من نمو وكبر وضعف وشيخوخة وموت، والأقطار الإسلامية منذ دخولها واحدة تلو الأخرى تحت الراية العثمانية منذ القرن السادس عشر لم تشهد أرضها احتلالًا، ولم يستطع أن يتجرأ عليها أوروبي حتى احتلال الجزائر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر [باستثناء الحملة الفرنسية على مصر مدة ٣ سنوات]، ولو استطاع كاتب المقال الكريم أنيذكرلنانموذجًا لدولة لم تضعف وتمت عبر التاريخ فسيكون اكتشافًا عظيمًا.
فرمان محفوظ بالأرشيف العثماني بتخصيص دخل ثنتي وعشرين قرية بمنطقة قنطرة السباع بالقاهرة [بحي السيدة زينت حاليًا] للسبل والمدارس التي ستبنى باسم السلطان مصطفى الثالث في مصر (الأول من شعبان عام ١١١٧ هجري/ ١٩ أبريل ١٧٥٨)
س٥: ويدور السؤال حول خروج العثمانيين على الخلافة العباسية وادعائهم الخلافة
ولبّ الأمر في قضية الحكم أن يكون رأس السلطة رجلًا، يمتلك صلاحيات حكم فعلية وليست شرفية، لذا فعندما حارب السلطان «سليم الأول» السلطان «قانصوه الغوري» ومن بعده «طومان باي»، لم يكن حينها يحارب الخليفة، ولم يخرج حينها على الخلافة، بل كان يحارب السلطنة المملوكية التي لها الحكم الفعلي، فاعتباره خارجًا على الخلافة أمر عبثي؛ لأنّ الخليفة العباسي نفسه كان يأتمر بأمر الغوري.
أما أمر شرطية قُرشية الخلافة، ففيه خلاف بين العلماء وكلام كثير ينتهي بأنّ شرط القرشية، ليس على إطلاقه لمن يحوز على مرتبة الخلافة، بل هو مشروط بتوافر أسباب القوة والحكم للحاكم القرشي كي يكون على رأس الدولة الإسلامية، وفي حين لم تتوافر أسباب القوة لقرشي فلا مانع من تولي غيره من خارج العرب كلهم، طالما حاز أسباب الحكم، وكانت جميعها متوافرة حينها للحكام العثمانيين، الذين قاموا بتوحيد الجبهة الإسلامية الشرقية في كيان واحد، بعد تفسخ الدولة العباسية وتقسيم الأقطار الشرقية لسلطنات مختلفة.
أما عن استخدام سلاطين آل عثمان للقب الخليفة وتقلدهم للمنصب، فهو أمر يعاد فيه الكلام بحجج انقضت ولا يثبت بها دليل، ويوجد الكثير من الأدلة على استخدام السلاطين للقب من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، من الممكن إفراد مقال أو أكثر لها، وأذكر منها سريعًا:
1. ما قيل في استلام السلطان سليم الخلافة من المتوكل أمر لا يوجد عليه دليل، وهذه الرواية قد ظهرت للمرة الأولى في القرن الثامن عشر، في كتاب مؤرخ ودبلوماسي يدعى «Mouradgea d'Ohsson» عن تاريخ الدولة العثمانية، ولكن انتقال الخلافة لا يقف عند هذه الحادثة.
2. نُوقش موضوع الخلافة فقهيًّا في الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر في عهد السلطان «سليمان القانوني»، في رسالة فقهية كتبها بالعربية الصدر الأعظم للدولة حينها [رئيس الوزراء] «لطفي پاشا» بعنوان «خلاص الأمة في معرفة الأئمة»، ينفي فيها شرطية القرشي المطلقة للخليفة، ويثبت فيها أحقية سليمان بالخلافة والإمامة العظمى، وهي دليل على أنّ موضوع مشروعية انتقال الخلافة إلى شخص غير عربي، قد تمت مناقشته حينها.
3. اعتبار السلاطين العثمانيين خُلفاء أمر كان يُقر به العالم الإسلامي فعليًّا، قبل معاهدة «كوتچوك كاينارجا» بين روسيا والدولة العثمانية عام ١٧٧٤، بعد سيطرة روسيا على «شبه جزيرة القرم»

ذات الأغلبية المسلمة، وكان ذكر السلطان بصفته«إمام المؤمنين وخليفة الموحدين» كبند من بنود المعاهدة، أمر ثابت في الدولة العثمانية مما يقرب من قرنين ونصف.

4. حمل سلاطين العثمانيين لقب الخليفة بشكل رسمي، في المراسلات والكتابات من عهد سليمان القانوني حتى القرن العشرين، وتوجد وثائق المراسلات بين السلاطين والدول الأخرى حاملة اللقب، كما يوجد مثلًا رسالة لشيخ الأزهر «حسن العطار» عن مناقب الخلافة العثمانية، كما تحمل أغلفة كتب طبعت في مطبعة «إبراهيم متفرقة» عام ١٧٤٠ عبارة أنّ هذا الكتاب طُبع في عهد السلطان «محمود خان» «خُلدت خلافته ودام سلطانه»، وأضف على هذا أنّ الدول الاستعمارية عندما كانت تتعامل مع الشعوب المسلمة في الهند وجنوب أفريقيا، وتظهر مشكلة أو تمرد هنا أو هناك، كان يتم التواصل مع الخليفة في اسطنبول بصفته خليفة المسلمين، رغم عدم امتلاكه لأي سلطة سياسة على هذه الأراضي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل اقتبس القرآن قصة ذي القرنين من أسطورة سريانية؟

بقلم: كريم عبد المجيد

للدراسات الاستشراقية حول الإسلام والقرآن تاريخ طويل يختلف الباحثون في تحديد بدايته، فمنهم من يرجعه إلى قرن «الإسلام» الأول ومنهم من يرجعه إلى القرن الرابع عشر الميلادي مع قرار «مجمع ييينا الكنسي» القاضي بتأسيس كراس في الجامعات الأوروبية لدراسة الإسلام واللغة العربية، ومنهم من يرجعه إلى ما قبل ذلك.

ويبرز المستشرق الألماني الشهير «تيودور نولدكه» صاحب كتاب «تاريخ القرآن» كواحد ممن قدموا دراسات جديدة حول القرآن الكريم يتناول فيها بعض القضايا التي تخص القرآن ويحاول وضع تحليل جديد لها، والتي كان من ضمنها إثارة شبهة حول قصة «ذي القرنين» التي جاءت على ذكرها «سورة الكهف»، حيث ادعى اقتباس القرآن القصة من رواية أسطورية نسبت للإسكندر المقدوني ودُونت بداخل مخطوطات سُريانية، وفيها نجد قصة بناء السد على يأجوج ومأجوج بنفس طريقة سرد القرآن لها، مع فارق السبق الزمني لهذه القصة عن الرواية القرآنية ووجود تشابه كبير بينهما يصل لحد التطابق.

وأتناول في هذا المقال مناقشة هذه الفرضية التي ما زال البعض يرددها حتى الآن ضمن برامج إثارة الشبهات حول الإسلام والقرآن الموجودة على اليوتيوب، بالإضافة لبعض المقالات التي لم أجد لها ردًا علميًا قويًا يتناولها من جميع زواياها مع القيام بنقضها نقضًا تاريخيًا بالأدلة وإثبات نقاء القصة القرآنية عن الاقتباس من خرافة أو أسطورة.

الإسكندر المقدوني في مخيال العصور الوسطى

تعتبر شخصية «الإسكندر المقدوني» (٣٥٦ ق.م - ٣٢٣ ق.م) من أكثر الشخصيات ذائعة الصيت التي تركت أثرًا كبيرًا في تاريخ العصور القديمة والوسطى، وذلك بهزيمته لجيوش إمبراطورية فارس، وامتداد زحفه شرقًا وصولًا إلى الهند وأفغانستان ناقلًا معه آثار الحضارة الإغريقية إلى هذه المناطق الشرقية، وكانت النظرة تجاهه نظرة انبهار لرجل خارق للعادة خاصة في «العصر الهلنستي»، إذ نجد له ذكرًا في قصص العهد القديم وفي بعض قصص الأساطير المسيحية واليهودية، كما امتد ذكره أيضًا إلى التراث الإسلامي عبر ربطه بذي القرنين المذكور في القرآن الكريم.

ونتيجة لهذه الشهرة التي حازها الرجل نجد أن كثيرًا من القصص المنتشر في هذه الأحقاب تصور حياته وغزواته بشكل أسطوري يبعد عن الحقيقة التاريخية التي حدثت ودونها مؤرخو عصره، حيث برزت مجموعة من القصص التي ضُمنت في كتاب عُرف باسم «قصة الإسكندر» لرجل مجهول الهوية انتحل اسم «كاليسثينيس الأولينثوسي» المؤرخ الذي صحب الإسكندر بصفته مؤرخًا رسميًا لحملاته، فأطلق عليه المؤرخون اسم «كاليسثينيس المزيف» تمييزًا له عن المؤرخ الحقيقي، وقد حولت قصة الإسكندر المزيفة الرجل إلى بطل خارق، ولاقت رواجًا كبيرًا في أواخر العصور القديمة وبدايات العصور الوسطى.

تم كتابة النسخة الأصلية من «قصة الإسكندر» باليونانية بمدينة «الإسكندرية» بمصر إلا أن هذا الأصل فُقد ولم يصل إلينا. أما عن تاريخ كتابتها فهو موضوع نقاش بين الباحثين، فهناك إجماع على أنها كُتبت في «مصر الرومانية» في القرن الثالث الميلادي، إلا أن أجزاء منها يجب أن تعود للعصر

البطلمي (٣٠٥ ق.م – ٣٠ ق.م) السابق عليه، ومنذ بداية القصة وهناك تصوير للإسكندر على أنه من نسل وذرية آخر فراعنة مصر الملك «نخت نبو الثاني» لذلك فله الحق هو ومن أتى بعده من البطالمة في حكم مصر، كما هناك شواهد مقنعة تدل على ترجمة أجزاء من القصة من الخط الديموطيقي المصري القديم..

تم إعادة كتابة القصة بأشكال ولغات مختلفة عبر القرون المتتابعة، وصلت لأكثر من ٨٠ نسخة وبترجمة إلى لغات غربية وشرقية وصل عددها إلى ٢٤ لغة، رغم أن العمل نفسه من الناحية الأدبية لا يوجد به ما يستحق الإشادة.

كاليسثينيس المزيف والأسطورة السُريانية ويعقوب السروجي

يبدأ الادعاء بأن القرآن قد اقتبس قصة «ذي القرنين» من نص سُرياني عبر الفرضية التي ذكرها المستشرق الألماني «تيودور نولدكه» (١٨٣٦ – ١٩٣٠)، وفيها قال بأن القرآن قد اقتبس القصة من قصيدة عرفت باسم «نشانا»، أو اختصارًا بـ «قصيدة عن الملك الورع الإسكندر الأكبر والبوابة التي قام ببنائها ضد يأجوج ومأجوج» وهي تُنسب إلى القديس «يعقوب السروجي» الذي توفى عام ٥٢١م وفيها نفس القصة الموجودة عن ذهاب ذي القرنين إلى يأجوج ومأجوج، وبناء سد عليهم كما وجدت في النص القرآني، ولكن بفترة سابقة عن القرآن بقرن من الزمان تقريبًا، كما أن ذا القرنين هنا هو الإسكندر المقدوني.

نجد كذلك نفس القصة في نص سُرياني آخر عُرف لاحقًا باسم «أسطورة الإسكندر» وكان يُتوهم بأنه الترجمة السُريانية لقصة الإسكندر لكاليسثينيس المزيف، كما نجد نفس القصة أيضًا في نسخ «قصة الإسكندر» المزيفة التي تسبق ظهور الرسول بقرون.

ونحن هنا أمام ذكر للقصة في ثلاثة نصوص مزيفة تسبق القرآن:

1. «قصة الإسكندر» لكاليسثينيس المزيف ويعود تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الميلادي.
2. «قصيدة يعقوب السروجي» وأرخها نولدكه بأنها تعود إلى منتصف القرن السادس الميلادي.
3. العمل السُرياني الذي عُرف باسم «أسطورة الإسكندر» وهو سابق على القرآن كذلك، وعمل منفصل تمامًا عن سابقيه.

ونتيجة للأبحاث التي تمت على امتداد القرن العشرين ودارت حول تحليل هذه النصوص الثلاثة ظهرت مجموعة من الحقائق الجديدة قلبت الأمر رأسًا على عقب والتي نستطيع أن نلخصها ونعقب عليها في النقاط الآتية:

أ- لا نجد في أقدم النسخ المخطوطة «لقصة الإسكندر» سواء كانت اليونانية التي تعود للعهد البيزنطي [حيث إن الأصل اليوناني مفقود كما ذكرنا] أو اللاتينية وتعود للقرن «الرابع الميلادي» أو النسخة الأرمينية وتعود للقرن «الخامس الميلادي» (مع الترجيح بأن هذه النسخة تسبق هذا التاريخ) لا نجد ذكرًا للبوابة أو الجدار الذي قام الإسكندر ببنائه على شعب «يأجوج ومأجوج»، بل أول ما نجد لها ظهورًا وللمرة الأولى في العمل المعروف باسم «أسطورة الإسكندر» السُريانية «Syriac Alexander Legend» [ثم نُقلت بعد ذلك إلى نسخ القصة الأخرى]، وهو عمل مختلف تمامًا عن قصة الإسكندر، كُتب في القرن السابع بين العامين ٦٢٩م و ٦٣٠م، بعد هزيمة الشاه الساساني «خسرو الثاني» علي يد الإمبراطور البيزنطي «هرقل» عام ٦٢٨م كنوع من الدعايا المناصِرة للدولة البيزنطية عبر استخدام صورة الإسكندر لتصوير «هرقل» في حربه ضد الشاه الساساني.

وهنا قد يتبادر سؤال لذهن القارئ: كيف توقع الباحثون كتابة هذا النص في تلك الفترة؟

والإجابة أن هذا النص ينتمي لأدب يعُرف باسم أدب «الأبوكاليبس»، وهو نوع من الأدب لاقى انتشارًا مع التهديد الذي شهدته الدولة البيزنطية بالفتح العربي الإسلامي لمصر والشام وبلاد الرافدين، وارتبط في الأذهان بالأمل من الخلاص من السيد الآتي، وللتعبير عن حلم بات من الصعب تحقيقه على أرض الواقع، مما دفع كُتَّابه لنسج سيناريوهات عن رؤاهم المستقبلية لمصير العالم ونهاية الزمان، وذلك عبر مزج هذه التوقعات بسلسلة من الرؤى المستوحاة من التوراة والإنجيل، كالحرب المقبلة مع قبائل الشمال المسماة «يأجوج ومأجوج» وظهور «المسيح الدجال». بمعنى آخر أن هذه الكتابات كانت تُكتب بعد وقوع الأحداث التي تؤرخ لها ويقوم كُتَّابها بنسب هذه الكتابات إلى رجل دين مسيحي أو إلى مؤلف مات من زمن كبير قبل هذه الأحداث ليوحي للقارئ بأنها نبوءة مستقبلية وبالتالي يضفي مصداقية على أحداثها.

ب- وُجد بالبحث والمقارنة أن «أسطورة الإسكندر» هي المصدر لقصيدة «يعقوب السروجي» التي لم يرها الرجل ولم يكتبها ونُسبت إليه زورًا، وهي مفقودة الأصل وقد وصلَنا منها ثلاث نسخ أقربهم للأصل في ٦٩٨ بيت، وبها أحداث مختلفة من ضمنها وصف بناء الإسكندر سد على قوم يأجوج ومأجوج إلا أن بها اختلافات عن القصة القرآنية واختلافات أيضًا عن الأسطورة، وقد تم تأليفها بواسطة شخص مسيحي مجهول الهوية يُعتقد أنه سكن شمالي العراق وقد ادعى «تيودور نولدكه» بأن هذه القصيدة قد كُتبت حوالي منتصف القرن السادس الميلادي، إلا أنه تم التوصل إلى أنها كُتبت في القرن السابع بين العامين ٦٣٠ و ٦٤٠ أو بعد فترة بسيطة من فتح المسلمين للشام وبلاد الرافدين، وقد كُتبت في الأساس تعقيبًا على «أسطورة الإسكندر» وهي تقوم برسم مستقبل تشاؤمي للإمبراطورية البيزنطية تتنبأ بوقوعها بعد حروب عظيمة يتبعها نهاية العالم.

والسؤال الذي لابد من معرفة إجابته بعد التوصل لهذه النتائج: متى ظهرت الرواية القرآنية لقصة ذي القرنين؟.

يُجمع المفسرون أن سورة «الكهف» التي بها قصة ذي القرنين هي سورة «مكية» نزلت جملة واحدة على قلب الرسول - ﷺ - وأخَبر بها تقريبًا في العام «الخامس» بعد البعثة، وهو تاريخ يقابل بالميلادي عام ٦١٥م؛ أي أن رواية «القرآن» تتقدم على الأسطورة السريانية وعلى القصيدة اللتين كُتبتا بين العامين ٦٢٩ و ٦٤٠ بـ ١٤ عامًا على أقل تقدير، وهي نتيجة سنقوم بالاعتماد عليها لاحقًا في تحليل كيفية وجود هذا الشبه بين القصة القرآنية والقصص السُريانية.

يأجوج ومأجوج في التوراة والإنجيل

وجد ذكر قوم يأجوج ومأجوج في «العهد القديم» في سفر «التكوين» ضمن سلاسل النسب الموجودة في الكتاب كما ذُكروا في سفر «حزقيال» بتفصيلات أكثر، ونجد ذكرهم أيضًا في «العهد الجديد» في سفر «الرؤيا»، وهم محور من محاور قصة ذي القرنين القرآنية ونقطة الالتقاء الأساسية التي تسببت في هذا اللبس الكبير. وقد نطرح سؤالًا مفاده: كيف تم الربط بين الإسكندر وبين قوم يأجوج ومأجوج كما ظهر في القصص السرياني ورواية القرآن عن ذي القرنين؟.

والإجابة أن هناك باحثين يذكرون بأن المؤرخ والعسكري اليهودي الروماني الذي يُعرف في تاريخ القرن الأول الميلادي باسم «يوسيفوس فلافيوس» أو «يوسف بن ماتيتياهو» هو أول من جمع بين الإسكندر و نبوءة يأجوج ومأجوج التوراتية بشكل تلفيقي في القصص المتداول عن الإسكندر، فالإشارات التي ذكرها في تأريخه لليهود تأخذنا إلى عهد اليهودية في فلسطين في زمن الإسكندر نفسه، والأساطير الهيلنستية الأخرى تذكر بأن الإسكندر قد زار «القدس» وحرر اليهود الموجودين

فيها وقبِل دين اليهود بالاستحسان، وقام بنقل رفات النبي إرميا [٦٥٠ – ٥٨٥ ق.م] إلى الإسكندرية، وقد صُور الإسكندر بناء على ذلك بأنه مدافع عن اليهود، وهو أمر يشكك فيه معظم المؤرخين لأن هذا الخبر لم ينفرد به سوى يوسيفوس الذي دَوَّن هذا الأمر بعد وفاة الإسكندر بُزهاء ثلاثة قرون، فيوسيفوس هنا يستحضر الإسكندر كبطل حرر اليهود وأعطاهم حقوقهم دون دليل على حدوث هذا الأمر في الماضي، وهو أمر يُفسر سبب ذكره أن الإسكندر أغلق الطريق الذي مر منه في الشمال ببوابات حديدية على شعب السكوثيون [شعب بدوي ينحدر من سهوب أوروبا الشرقية] مع ذكره بأنهم ينحدرون من نسل يأجوج ومأجوج الذين يُذكرون في النبوءة التوراتية بأنهم أعداء بني إسرائيل، وهو تأريخ مزيف ولا شك، إذ لم يرد أي نص من مؤرخين عاصروا الإسكندر ودونوا سيرته ذكر لبنائه بوابات أو سدود على هذا الشعب، ويعتقد باحثون بأن قصة بناء السد قد جلبها يوسيفوس من أصل روماني قديم وقام بدمجها بنبوءة يأجوج ومأجوج، إلا أني أعتقد أنه جلبها من أصل فارسي وليس رومانيًا.

فكيف ظهر هذا التشابه بين القصة القرآنية والقصص السُّرياني؟

هناك ثلاث فرضيات تفسير ظهور نفس قصة الأسطورة السُريانية في القرآن الكريم:

1. إما أن القرآن أخذها من «الأسطورة» و«قصيدة الإسكندر» وهو شيء ثَبُت بطلانه، فالقرآن متقدم على الأسطورة بأربعة عشر عامًا على أقل تقدير، علمًا بأن النُسخ المكتوبة من «قصة الإسكندر» والتي وصلت إلينا لم تذكر اسم «ذي القرنين» بداخلها من قبل، وظهر اللقب لأول مرة في «أسطورة الإسكندر» السُريانية التي ظهرت بعد عقد ونصف تقريبًا من الرواية القرآنية.

2. إما أن الأسطورة أخذت القصة من القرآن وهذا فرض بحاجة إلى مزيد من الأدلة، فالقرآن في بيئة شبه الجزيرة العربية من الصعب أن تصل قصصه بتفاصيلها إلى الخارج قبل احتكاك المسلمين بالأمم غير الإسلامية في الشام والعراق بعد عمليات الفتح، وهو فرض أستبعده أيضًا.

3. أن يكون القرآن حدثنا بالفعل عن قصة حقيقية كانت معروفة ومتداولة «شفويًا» إلا أنها نُسبت زورًا إلى الإسكندر، وهذا ما أذهب إليه وأؤيده عبر كثير من الأدلة؛ لأن السياق الإسلامي للقصة يُخبرنا بأن اليهود سألوا النبي في امتحانهم له على لسان المشركين عن رجل معروف لديهم طاف المشرق والمغرب والسؤال بالطبع سيأتي من مصادرهم وليس من أي مصدر آخر؛ أي أن القصة معروفة لهم.

فمن هو ذو القرنين؟

والإجابة عن هذا السؤال بحاجة إلى تفصيل في مقال منفصل، إلا أنه يمكن إجمالًا القول بأن اشتهار «الإسكندر المقدوني» من تنطبق عليه قصة ذو القرنين القرآنية جعل الأمر ثابتًا في كثير من كتب العصر الإسلامي الأدبية بما فيها كُتب التفاسير، إلا أن كثيرًا من المفسرين والعلماء منذ القديم حتى الوقت الحاضر قد شككوا في صحة هذا النقل ودقته، فيروي «ابن إسحاق» (ت ١٥١هـ/٧٦٨م) المؤرخ وكاتب السيرة النبوية عن من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين: «أنه كان من أهل مصر، وأن اسمه مرزبان ابن مردية اليوناني»، أما الذي سماه الإسكندر فهو «ابن هشام» (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) في سيرته «سيرة ابن هشام» وهي رواية أتت في الأساس عن «وهب بن مُنبه» (ت ١١٤هـ/٧٣٢م) وهو مصدر لكثير من الإسرائليات والقصص الأسطوري، ولا يمكن الجزم بصحة هذه الرواية، بل لدينا من الأدلة ما ينقضها:

1. ذو القرنين في القصة القرآنية رجل عادل يحتكم إليه الناس، أما الإسكندر لم يرد عنه أنه اتصف بهذه الصفة.
2. ذو القرنين رجل توجه إلى المشرق والمغرب، والإسكندر لم يثبت قط أنه توجه تجاه الغرب، بل انطلق من الغرب إلى الشرق.
3. ذكر الله عن ذي القرنين في القرآن أنه ممكّن في الأرض وأن الله آتاه من مقاليد القوة والأسباب، ولا يمكن لرجل وثني كالإسكندر أن يرد بالثناء في معرض الحديث القرآني.
4. أن ذا القرنين المذكور باللقب هكذا في القرآن تمت الإشارة إليه بنفس لقبه في «التوراة» في «سفر دانيال» ثم بالاسم، وهو «كوروش العظيم» مؤسس الدولة الإخمينية الفارسية المعروف بعدله وتسامحه الذي يتفق مع الرواية القرآنية، ولم يرد ذكر الإسكندر في التوراة إلا في نفس السفر ولكن بشكل عابر.

وهذه بضع من الأدلة التي تدل على أن الإسكندر المقدوني لم يكن ذا القرنين القرآني، وهي قضية موضع تفصيل وشرح في مقام آخر بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معركة بلاط الشهداء بين الأمس واليوم

بقلم: نهى عودة

«لو انتصر المسلمون في بلاط الشهداء، كنا سنرى اليوم الأساطيل الإسلامية تبحر في التايمز بدون معارك بحرية، وكان القرآن ليدرس اليوم في أوكسفورد، ولكان علماء الجامعة اليوم يشرحون للطلاب باستفاضة، عن الوحي النازل على محمد».

هكذا مختصر النص الذي أدرجه المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون، متهكمًا في الفصل الثاني والخمسين من كتابه: «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها».. فما من شك أنّ معركة بلاط الشهداء كانت بمثابة نقطة مفصلية في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ العالم أجمع، فقد كانت إيذانًا بارتداد الفتوحات الإسلامية المتوالية، التي لم يكن وأن سبق لها أن تُقهر، وأن يبتر زحفها منذ بدأت بالشام ومصر مرورًا بالأندلس، وانتهاء بكونها كانت قاب قوسين أو أدنى من فتح فرنسا كاملة، فجاءت المعركة لتمثل ضربة قاصمة للمد الإسلامي في الغرب الأوروبي، اللهم إلا من بعض الفتوحات الصغيرة الواهنة، التي لم يكتب لها أن تستمر إلا فترة وجيزة من الزمن، وبقدر ما يتحاشى مؤرخونا - بإجحاف- الحديث عن المعركة وقائدها الفذ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي العكي، بقدر ما تناول مؤرخو أوروبا أحداث المعركة، وسيرة هذا القائد المسلم الذي كاد أن يغير خارطة العالم، وأن يغرس نبتة الإسلام الطيبة في قلب أوروبا الجاحد..

وما بين التفاخر والتباكي تنحصر كتابات المؤرخين العرب حول المعركة، كما انحصر تاريخ الغافقي أيضًا بين ندرة ما سجله المؤرخ المسلم، الذي يكتب من وجهة نظر المهزوم، ووفرة ما دونه المؤرخ الأوربي المنتصر، والذي لا يمكننا أن نركن ونسلم بأي شكل من الأشكال بكل ما جاء في شهادته، وبخاصة إذا تضاربت الروايات العربية والأوربية..

ماذا لو كان انتصر المسلمون في بلاط الشهداء؟

يجيب على هذا السؤال الأوربيون أنفسهم، فكثيرًا ما نسمع من وحي كتاباتهم، عن أنّ العصور الوسطى هي عصور الظلام، نظرًا لما شاع من جهل وتأخر وظلم ومرض وخرافات، لكن هل تعلم أنّ عصور الظلام تلك كان مصطلحًا، لم يطلق إلا على العالم الأوروبي المسيحي فقط؟! إذ إنّ نفس تلك العصور الوسطى هي التي ازدهر فيها العالم الإسلامي، حاملًا راية الحق والعدل والعلم والحضارة والرُّقي، لذلك تجد أنّ عددًا ليس بقليل من مؤرخي أوروبا المعاصرين، يجنح إلى أنّ مؤرخي فترة المعركة، قد أسبغوا عليها في كتاباتهم، هالة من الزخرف والخيال، وليس هناك أقسى على الأوربيين من السؤال، الذي طرحه المؤرخ الفرنسي «جوستاف لوبون»، في مؤلفه الصادر عام ١٨٨٤ (حضارة العرب): لنفرض جدلاً أنّ الصليبيين عجزوا عن دحر العرب، فماذا كان يصيب أوروبا؟! كان سيصيب أوروبا الهمجية، مثلما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، ولم يكن ليحدث فيها ما حدث مما لم يعرفه المسلمون من الوقائع، التي ضرَّجت أوروبا بالدماء عدة قرون، لو أنّ العرب استولوا على فرنسا، لصارت باريس مركزًا للحضارة والعلم منذ ذلك الحين؛ حيث كان رجل الشارع في الأندلس يكتب ويقرأ، بل ويقرض الشعر أحيانًا، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا، لا يعرفون كتابة أسمائهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما يتعرض بعضهم لمعركة بلاط الشهداء، بوصفها مغامرة غير محسوبة، بالرغم من الإجماع على أنّ الغافقي كان ألمع قائد عسكري، عرفته الأندلس خلال عصر الولاة، فمنذ تولى عبد الرحمن الغافقي الولاية في عام ١١٢هـ / ٧٣٠م، أمضى عامه الأول في تنظيم شؤون البلاد، وإعادة تنظيم الجيش ليعاود الفتوحات، التي كانت قد توقفت إثر الثورات التي اجتاحت الأراضي الأندلسية، شمالها وجنوبها، استطاع الغافقي في ظروف صعبة، أن يجند جيشًا قوامه سبعين إلى مئة ألف مقاتل، بحسب المصادر الإسلامية، وبأربعمئة ألف مقاتل بحسب الراوية الأوروبية؛ وفرضًا أنّ الرواية الإسلامية هي الصحيحة، فيظل هذا العدد يضاهي بكثير، الحشود التي شاركت قبله في الفتوحات الأولى، وقد كان القائد الكبير على علم بأنّ طريقه ليس مفروشًا بالورود، فمنذ شرع في استرجاع عصر الفتوحات، وهو يمهد الطريق، ويعاود استرداد المدن التي سبق وأن تمردت على الحكم الإسلامي، فزحف إلى ولاية «أكيتانيا» قاصدًا «أودو» وكان يعرفها المسلمون بإسم «برديل» محققًا انتصارًا كبيرًا، مما جعل دوقها يفر هاربًا، مستنجدًا بخصمه السابق ملك الدولة الميروفنجية، الفرصة التي وجدها رئيس قصره وقائد جيوشه شارل مارتل الملقب بالمطرقة، فرصة لا تعوض ليسطر اسمه في التاريخ النصراني، بدحر قوات المسلمين التي لا تقهر، فأخذ يعد العدة لمحاربتهم والقضاء عليهم.

كانت المعركة محفوفة بالمخاطر، حاول فيها الغافقي أن يعيد أمجاد الفتوحات في زمن طارق بن زياد وموسى بن نصير، لكن الغافقي كان يعلم بصعوبة حسم المعركة لذا فقد ظل يناوش جيش مارتل لعدة أيام قبل أن يلقاه في مواجهة مباشرة. كان جيش شارل مارتل منظمًا بدرجة كبيرة، يعلم جيدًا نقاط ضعف الجيش المسلم، لذلك فقد استطاع الفرنجة اختراق خطوط الجيش الإسلامي، وبلوغ موقع الغنائم ما أصاب تنظيم رجال الغافقي بالخلل. وقد ازداد موقف المسلمين سوءًا، بعد إصابة قائدهم بسهم قاتل أودى بحياته وأربك المقاتلين في صفوف جيشه. وقد حاول المسلمون الصمود حتى إذا ما حلّ الليل، استغلوا الظلام لينسحبوا، تاركين خلفهم خيامهم وغنائمهم، متقهقرين إلى الجنوب الشرقي من أجل الاحتماء بقاعدتهم في أربونة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد يبدو الآن الغافقي مخطئًا في الزجّ بجيشه في أتون هذه المعركة، في وقت لم يكن النصر فيه مضمونًا، لكن الواقع الذي نعيشه حاليًا يشهد بأهمية تلك المعركة ومدى خطورتها على العالم الأوروبي حينها، إذا ما قدر الله لها أن تكلل بالنصر. ما زال انبعاث صداها القادم من الماضي السحيق لا يفتأ أن يتوقف، فبينما نجح مسلمو فرنسا في الحصول على موافقة ببناء مسجد في مدينة بواتييه، وهي المدينة التي دارت فيها رحى المعركة، إلا أنّ المسجد واجه مشكلات عديدة أثناء الإنشاء وحتى اليوم، نتيجة الاعتداءات المتكررة من المتطرفين النصارى مثل جماعة «جيل الهوية» وغيرها، وتتمثل الاعتداءات في احتلال المسجد، وتخريب ورش أعمال البناء، والحرائق المتعمدة، وإلقاء بقايا الخنازير البرية يوم الجمعة أمام مدخل المسجد لمضايقة المسلمين، ورفع لافتات معادية للإسلام والمسلمين لعل أبرزها: «المجد لشارل مارتل، الذي أوقف تقدم العرب في بواتييه قبل ١٣٠٠ سنة»!!

نعم إنهم يفخرون بشارل مارتل، الذي أردى سهمه الغافقي شهيدًا، في مشهد تراجيدي من أكثر مشاهد التاريخ الإسلامي مأساوية، في زمن ينكرون علينا فيه أن نفخر بصلاح الدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بذرة المرابطين

بقلم أيمن حويرة

«هؤلاء الرؤساء لا تحلّ طاعتهم ولا تجوز إمارتهم، إنهم فساق فجرة، فاخلعهم عنا،... ونحن بين يدي الله محاسبون فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله»...

هكذا أفتي فقهاء إشبيلية، ليوسف بن تاشفين أمير المرابطين، طالبين منه القدوم إلى الأندلس، وضمها إلى دولته، هكذا رأوه ورأوا دولة المرابطين، أهلًا ليس فقط لحكم الأندلس، وإنما أيضًا للحفاظ عليها من الضياع، والوقوع تحت سيطرة القشتاليين. لم يكن ابن تاشفين حينها غريبًا عن الأندلس، فقد جاءها قبل عدة أعوام، بعد أن استنصره المعتمد بن عباد، وبعض من ملوك الطوائف، بعد أن ازداد خطر ألفونسو، وصار قاب قوسين أو أدني من احتلال أراضي المسلمين في الأندلس. لم يتوان ابن تاشفين، وتحرك على رأس جيشه في يوم من أيام الإسلام الأولى، الثالث والعشرون من أكتوبر ١٠٨٦، يومها انتصر المرابطون في الزلاقة، وأعطوا قبلة الحياة لدولة الإسلام في الأندلس، والتي دامت بعدها أكثر من أربعمئة عام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن هذه هي البداية، فقد كانت البداية قبل ذلك بأكثر من ثلاثين عامًا. هناك في أقصى غرب القارة الأفريقية، وبالقرب من حوض نهر السنغال، بدأ الأمير يحيى في كتابة تاريخ المرابطين القصير، يدًا بيد مع عبد الله بن ياسين ... ذلك الفقيه الجليل الذي أدّب ملثمي صنهاجة فأحسن تأديبهم، وكوّن بهم دولة امتدت من المحيط الأطلسي غربًا، حتى قُرب بحيرة تشاد شرقًا، ومن الأندلس شمالًا، حتى حوض نهر السنغال جنوبًا، لتغطي مساحتها مساحات أو أجزاء، من عشرة دول في الوقت الحاضر، وتمكن للإسلام أن يحكم أراضٍ، لم يرها حكام مسلمون بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكنّ الرياح لا تأتي دائمًا بما تشتهي السفن، وبينما شهد القرن الحادي عشر بزوغ نجم هذه الدولة الفتية، ثم سطوع هذا النجم في عهد ابن تاشفين أمير المسلمين وناصر الدين، لم يلبث القرن الثاني عشر أن شهد، زوال هذا النجم وأفوله لصالح الموحدين، تخضبت أراضي مراكش المرابطية بالدماء، في المشهد الأخير من معركة النهاية، وذهبت أراضي المغرب والأندلس إلى جعبتهم، بينما أراضي الغرب الأفريقي فقدت ولم تعد، ذهبت إلى غياهب التاريخ، ولم يقيض الله لها رجلًا مثل أبي بكر بن عمر اللمتوني، ليعيدها إلى حضن المغرب مرة أخرى، لم يقيض لها رجلًا مثل ابن تاشفين، ليُري ألفونسو رده على رسالة تهديده، بدلًا من أن يُسمعه إياه، لم يقيض لها رجلًا مثل ابن ياسين صاحب بذرة المرابطين، زرعها في أرض لم تعرف الإسلام من قبل، فطرحت حياة زاهرة قرابة قرنٍ من الزمان، ثم كفّ زارعوها عن سقياها، فماتت البذرة، وبارت الأرض، وجاء من اجتث الزرع، وقضى على هذه البذرة ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليبانتو.. يوم توازنت القوى

بقلم إبراهيم أحمد عيسى

يُرجح أغلب المؤرخين والباحثين في التاريخ، أنّ فترة العصور الوسطى انتهت، مع رحلة كولومبس للعالم الجديد وما سبقها من حوادث، كسقوط القسطنطينية وغرناطة. لأكثر من تسعة قرون هيمنت الحضارة الإسلامية على مقاليد الأرض، وكان التهديد الإسلامي قد استولى على عقل وقلب العالم المسيحي، فقد توغلت الحضارة الإسلامية في شتى بقاع المعمورة، ومع حلول القرن السادس عشر، كان الصراع حتميًّا بين الشرق والغرب، امبراطوريات عظيمة تتصارع ودول تختفي من الوجود، ولعل مفهوم الدولة في ذلك العصر لم يكن كعصرنا الحالي، فلم يكن هناك ما نراه الآن، من ترسيم حدود بالأسلاك الشائكة والبوابات الإلكترونية، وإذا ما نظرنا للعالم في القرن السادس عشر، فسنرى شكلًا مختلفًا عما نراه الآن.

سنرى العثمانيين كأكبر قوة إسلامية، تسيطر على ساحل الشمال الأفريقي، ونفوذها يصل حتى تخوم فيينا، خانية القرم التابعة للبلاط العثماني، تسيطر على مساحات شاسعة من روسيا، سليم الثاني ورث بيت آل عثمان، إرث كبير من المجد تركه له أبوه سليمان القانوني، وليبقى السلطان قويًّا كان يتوسع في حربه ضد الكفار، حروب لا تتوقف، ومساعدات يقوم بها من أجل الفارين من الأندلس.

وفي أوروبا، كان آل هابسبورج يخوضون حروب الكاثوليكية الخاصة ضد الهراطقة والكفار، حرب في هولندا وأخرى في فرنسا، والصراع لا يتوقف مع انجلترا المنشقة عن الكنيسة، فيليب الثاني ورث هو الآخر امبراطورية عظيمة، تمتد على سواحل العالم الجديد وكل التراب الإيطالي بالإضافة للنمسا، وأجزاء واسعة من أوروبا، إسبانيا العظيمة كانت شمسًا تسطع باسم الرب، انتهت منذ عام التمرد الذي قام به الموريسكيون في جبال غرناطة، ثورة البشَرات الأندلسية أُخمدت، وانتقل الصراع إلى البحر المتوسط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما قبل المعركة

في ذلك العام من القرن السادس عشر، كان كلا الجانبين قد وصل إلى التقدم المطلوب في شتى نواحي الحياة، الامبراطوريتان لديهما من الموارد الكثير نظرًا لاتساع رقعة الدولة، وقد بلغ التطور الحربي في الجانبين أقصى مدى له منذ قرون، فأوروبا التي خسرت العديد من الحروب ضد المسلمين أصبحت الآن تضاهي العثمانيين قوة، منذ معركة موهاكس التي أبيد فيها الجيش المجري على يد السلطان سليمان القانوني، تراجعت القوى الأوروبية، وباءت كل محاولات السيطرة على مدن الساحل الأفريقي بالفشل، فقد كانت الحرب سجالًا بين الطرفين، لم يحظ الأوروبيون بانتصار ملموس منذ ذلك الحين، ولعل مقياس تقدم كل دولة في ذلك الحين يعود إلى قوة أسطولها الحربي، خاصة بعد أن بدأت صناعة السفن تتخذ منحى أكثر تطورًا، ففرنسا وانجلترا طورتا أسطولًا قويًّا، يعتمد على الأشرعة أكثر من المجاديف.

لكن صناعة السفن المسطحة تطورت أيضًا، فالسفن المسطحة هي تطور للسفينة الإغريقية التقليدية، تكون قوية البنيان ومتينة الأخشاب عند المقدمة والمؤخرة، كما تصلح لأن تكون منصة عائمة يشتبك فيها الطرفان بالأسلحة والبنادق، وكانت قوة السفينة تقاس بعدد الطاقم الذي يعمل عليها؛ بالإضافة

لبحارتها، كان جوف السفينة يعج بالمجدفين، عبيدًا كانوا أو محكومًا عليهم بعقوبة، وكان هؤلاء في الأغلب أكثر الضحايا، يعيشون في ظروف قاسية ورائحة نتنة، ولكن الأمر يختلف بين القوتين في أمر المُجدفين، فبينما كانت السفن الأوروبية تعجّ بالعبيد والأسرى للتجديف، كان المجدفون العثمانيون من المتطوعة والمقاتلين والأسرى، ولعل سفن البندقية أيضًا تميزت بتلك الأمور، فلم يكن بين سفن البندقية عبد يجدف، فقد كان المجدفون من البندقية يصعدون على السفن بمجاديفهم، ولكن مع تطور السفن، أصبح هناك أنواع أقوى وأكبر من المجاديف... ونال البحارة أجرة عن عملهم بالسفن.لقد كانت السفن المسطحة نسور البحر، تقتات على السفن الأصغر، والطاقم الأكثر عددًا والأكثر مهارة كان يفوز بالسفينة كاملة، إن لم يصبها ضرر كبير من المدافع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريق إلى ليبانتو

سليم الثاني يكلل بالنصر في البر والبحر، استولى على كريت ومن بعدها قبرص، حرب مباشرة مع البنادقة جعلتهم يطلبون العون من البابا بيوس الخامس، المسلمون يعدون العدة لدخول إيطاليا القابعة تحت سلطة فيليب الثاني، حالة من الذعر انتابت أوروبا بعد سلسلة الانتصارات العثمانية، كان يجب على أوروبا أن تتوحد تحت راية واحدة، ولقد وجد البابا بيوس ضالته المنشودة في فيليب الكاثوليكي الذي يحارب الكفار باسم الرب، قام البابا بعقد اتفاقات بين الفرقاء، جيش العصبة المقدسة، إسبانيا... جنوة... البندقية... بالإضافة لرهبان جزيرة مالطة، ورفضت فرنسا الاشتراك في التحالف نظرًا لوجود علاقات ومعاهدات بينها وبين العثمانيين، وإيفان الرهيب يحارب خانية القِرم في روسيا... أبرمت الاتفاقية ونصّت على أن يدفع ملك إسبانيا نصف تكاليف الحرب، والثُلث على البندقية والسدس يدفعه البابا.

في اليوم الرابع عشر من أغسطس ١٥٧١م، رفعت راية زرقاء من حرير، بها شكل ذهبي ضخم للمسيح المثبت بالمسامير على الصليب، وعلى رصيف الميناء كان يقف الأدميرال الشاب دون خوان النمساوي، الأخ غير الشقيق لفيليب، لباس مهندم من الذهب والستان القرمزي، منذ ساعات كان أمام مذبح الكنيسة والكاردينال يباركه ويصلي له من أجل النصر، دون خوان المنتصر في جبال غرناطة هو من سيقود أسطول العصبة المقدسة، سيقود أسطولًا مكونًا من سبعين سفينة إسبانية، مئة وأربعين سفينة من البندقية، واثنتي عشرة سفينة تابعة للبابا، أما فرسان جزيرة مالطة فكان لهم تسع، أبحر دون خوان من نابولي إلى مسينا في صقلية، حيث ينتظر تجمع بقية أسطوله.

في الجانب الآخر وعلى بعد ثمانمئة ميل خرجت من خزانة القصر السلطاني راية أخرى، في احتفالية كبيرة حملت راية ضخمة من الحرير بلون أخضر حيوي، وفي ميناء استانبول رفعت الراية العملاقة، المزينة بأسماء الله الحسنى بالخط الكوفي المذهب، حروف كبيرة متداخلة كشبكة من الذهب الخالص... أوكلت مهمة المعركة إلى ريس البحر القبطان» علي باشا» الذي كان محنكاً في حروب البحر، انتصاراته خلدت في عقول الأوروبيين، قائد عظيم من أصول متواضعة، فعكس دون خوان الأمير ابن الامبراطور كان علي باشا ابن مؤذن.. أوكلته نجابته وحسن قيادته لتولي أمر الأسطول العثماني...أسطول من ثلاثمئة سفينة مسلحة بالمدافع الضخمة، أبحر الأسطول نحو المعركة، بعد شهور من التجمع من شتى بقاع المتوسط... للسيطرة عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«صعود الشرق يستدعي سقوط الغرب.. والعكس صحيح».

تلك هي النظرية السائدة والرائجة... ففي عام ١٥٧١ م، كان هناك توازن بين الخصمين في كل المجالات... وكانت لحظة المواجهة المحتومة.

الصدام

مكث دون خوان في مسينا يستقبل السفن المشاركة في الحملة، أمر رجاله بتفحصها جيدًا بينما كان هو يحاول أن يجمع شتات رجاله؛ البنادقة لا يروقون للرجال من جنوة، ورهبان مالطة لا يطيقون الإيطاليين والإسبان، كان كل شيء مهددًا بالفشل، ولكنه تجاوز كل الخلافات ليبحر بأسطوله الضخم صباح يوم ١٦ سبتمبر ١٥٧١م من ميناء مسينا، رافعًا رايات الحرب وسط تبريكات القساوسة الواقفين على حافة الميناء، كان متوجهًا إلى البحر الأدرياتي، وتوقف الأسطول قرب رأس كولون في الجنوب الإيطالي، حيث علم أنّ هناك أسطولًا عثمانيًّا يجوب البحر الأدرياتي ويتخذ من أوترانتو قاعدة له، علم دون خوان أنّ القوة الرئيسة للأسطول العثماني مازالت راسية في بريسيفا، بانتظار أوامر السلطان لبدء المعركة.

وفي الحقيقة أنّ بقية الأسطول لم يكن يرسو في بريسيفا كما يعتقد دون خوان، فقد تفوّق العثمانيون في مجال نقل المعلومات والجواسيس، كان أسطول العثمانيين يقف في خليج ليبانتو، حيث يجتمع علي باشا بقادته، لم يكن يريد إنهاك المجدفين والوصول إلى أرض المعركة أولاً. بينما كان اجتماع البحارة العثمانيين قائمًا، كان دون خوان يجتمع على ظهر سفينته الملكية -ريال- بقادته المنقسمين، البعض اقترح محاصرة القلاع التركية الكبرى وعدم الاحتكاك بالأسطول العثماني، وآخرون يقولون إنّ عليهم سحب عدوهم خارج خليج ليبانتو نحو المياه المفتوحة.

أصرّ علي باشا على الخروج وملاقاة العدو خارج خليج ليبانتو، معتمدًا على قوة سفنه وكثرة عددها، خالف كل الآراء المقدمة من قادة الأسطول العثماني، وأصرّ على المواجهة، وألقى خطبة حماسية في رجاله، وراح المجدفون يدفعون السفن العثمانية نحو البحر المفتوح، في الجانب الآخر اتخذ المجلس الحربي بقيادة دون خوان قرار الهجوم بلا رحمة، والاشتباك المباشر مع العثمانيين الأكثر عددًا.

تراصّت السفن في تقليد حربي، تواجه الأسطولان، لحظة صدام سيحول التاريخ، حين بدأت السفن العثمانية في قصف أسطول العصبة بنيران المدافع، تغير اتجاه الريح فجأة، أصبحت سفن إسبانيا تطير فوق المياه بفعل الرياح والمجدفين، سفن علي باشا أصبحت هدفًا سهلًا للمدافع الأمامية المسيحية، وسرعان ما غربلت المدافع الجانبية السفن العثمانية الضخمة، الانكشاريون وقعوا في شباك دفاعية تحيط بالسفن الإسبانية، ومَن مرّ منهم انزلق على أرضيات دُهنت بزيت زيتون وقار، أعاقهم نظرًا لأنهم يقاتلون حفاة، كانت معركة شرسة وحين مالت الكفة للعثمانيين غرقت سفينة القيادة العثمانية، وانتهى المطاف بابن المؤذن قتيلًا، وعلق رأسه على رمح، رغم ذلك أولوج باشا على سفينة القيادة لرهبان مالطة، وقام بتفريق وإغراق سفن الأسطول المالطي بالكامل، قتال عنيف احتدم لساعات، وصفه بدقة جندي كان بالمعركة، وهو الروائي الإسباني دي سيرفانتيس في روايته الخالدة «دون كيخوته».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع مقتل علي باشا انهزم الجند العثماني معنويًّا، وراحت البنادق والسهام تحصد الكثير منهم، انسحب أولوج باشا ولم يخسر أيًّا من سفنه البالغة اثنتي وأربعين سفينة حاملًا معه راية أسطول مالطة المدمر، وخسر العثمانيون مئتي سفينة حربية، غرق منها ثث وتسعون بينما غنم أسطول العصبة البقية، انهزم العثمانيون وزينت رعوس القتلى سفن دون خوان، الذي انتصر بأنفاس السماء وبركات

الرب. انتصار آخر أضيف لسجله بعد حرب البشرات... الرجل الذي أثبت أنّ العثمانيين يهزمون، وأنّ الانتصار على الشرق ليس مستحيلًا، وفي كنيسة القديس بطرس وقف البابا بيوس الخامس يقول:

«إنّ الإنجيل قد عنى دون خوان نفسه، حيث بشر بمجيء رجل من الله يُدعى حنا.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أفراح القدس

بقلم: نهى عودة

صبيحة ليلة المعراج ٢٧ رجب الموافق ٢ أكتوبر ١١٨٧م، كانت رايات النصر ترفرف خفاقة فوق أسوار مدينة القدس المُهدمة، وبينما كانت أفراح الفتح العظيم تملأ سماء القدس وأرضها، أراد القائد المنتصر صلاح الدين الأيوبي، أن يُكمل هذه الفرحة بأن يعيد القدس ومعالمها كما كانت، إسلامية عربية بملامح شرقية أصيلة. وقد كان شغل صلاح الدين الشاغل هو حفظ الأمن والنظام، بعد حالة الفوضى العارمة التي ألمّت بمدينة القدس أثناء فترة الحصار، فكان أول ما أمر به إغلاق أبوابها، حفاظًا على المدينة وسكانها من أي غزو محتمل، وجعل الدخول أو الخروج إليها بإشراف منه وتحت إدارته.

ووسط فرحة غامرة، وبينما يصدح العلماء والفقهاء وقادة الجيش والجنود المنتصرون بالتكبير والتهليل في سماوات القدس دون توقف، سرعان ما روى المؤذن ظمأ الأقصى فرُفع فيه الآذان لأول مرة، بعد أن غاب عنه لمدة ثمانية وثمانين عامًا، وشرع صلاح الدين وجنوده في إزالة آثار الأسر من محيط الأقصى، بعد ما أحدثه فيه النصارى، فعقب دخول الصليبيين القدس عام ١٠٩٩م، لم يكتفوا بما اقترفوه في حقّ المسلمين من انتهاكات ومذابح، بل تمادى بهم الأمر فقاموا بتقسيم المسجد القبلي، فحوّلوا الجزء الأكبر منه إلى كنيسة، وتم تخصيص جزء آخر كمساكن للفرسان، وجزء كمستودع للذخائر، أما أروقة ما يُعرف اليوم بالمصلى المرواني، فقد تم تحويلها إلى إسطبل للخيول، ولم تكن قبّة الصخرة بأفضل حالًا من المسجد القبلي، فقد رُفع صليب ذهبي كبير الحجم فوق قبة الصخرة، وأما الصخرة نفسها فقد أنشئ فوقها مذبح ومستراحٌ للرهبان. فما كان من صلاح الدين إلا أن استهل وجنوده عملية التطهير بزيارة المسجدين، فأظهروا محراب الأقصى بعد أن أخفاه النصارى، وبنوا على وجهه جدارًا وجعلوه مخزنًا، ونصب صلاح الدين فيه منبرًا مؤقتًا، قبل أن يرسل بطلب المنبر، الذي أمر بصنعه الملك العادل نور الدين محمود زنكي -رحمه الله- في حلب، وكان حريصًا أشد الحرص بأن يكون المنبر على درجة من الفخامة والإتقان، بحيث يتناسب والقدس عند فتحها.

ولقد أبدع الصُنَّاع في صنعته فقال عنه ابن الأثير: «عمله النجّارون في عدة سنين، ولم يُعمل في الإسلام مثله»، وأمدّ المسلمون الأقصى المبارك بمصاحف وختمات وربعات شريفة، ثم توجه صلاح الدين إلى مسجد قبة الصخرة، فأمر بخلع الصليب الذهبي من فوق قبة الصخرة ووضع الهلال مكانه، وخلع التصاوير التي كان قد علقها الإفرنج فيه، وهدم المذبح، ووقع مرسومًا سلطانيًّا شرع فيه في تعيين خطيب وإمام وواعظ لكلا المسجدين، فكلف القاضي محيي الدين بن زكي الدين أبا المعالي القرشي، أن يخطب بالمصلين في المسجد الأقصى، فخطب أولى خطب الفتح، فكانت خطبة شهيرة، وصلت أصداء كلماتها إلى كافة أقطار المسلمين على وجه الأرض، وتهللت بها أسارير المسلمين، وسجلها مؤرخو ذلك العصر وكان قد استهلها قائلًا: «فقُطعَ دابر القوم الذين ظَلموا والحمد لله رب العالمين..» ثم أكمل قائلًا:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره ومُصَّرف الأمور بأمره، ومُزيد النعم بِشُكره، ومُستَدرِج الكافرين بمَكره،الذي قدَّرَ الأيام دولًا بعدله، وجعل العاقبة للمُتقين بفضله، وأفاَض علَى العباد مَن طَلْهِ وهَطلِهِ،الذي أظهر دينه على الدين كُله، القاهرُ فوق عباده فلا يُمانَعْ والظاهر على

خليقته فلا يُنازَع، والآمرُ بما يشاء فلا يُراجعْ، والحاكم بما يُريد فلا يدافع. أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره أنصاره،ومُطَهر بيته المُقَدس من أدناس الشرك وأوضاره.. وأفاض وأجاد في خطبته، حتى أنهاها بقوله: (إن يَكُنْ منكم عِشرون صابِرون يغلِبُوا مائتين) أعاننا الله على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا معشرَ المسلمين بِنَصرٍ من عنده، (إن ينصُركُمُ الله فلا غالب لكم وإن يَخذلكم فمن ذا الذي ينصُركم من بعده).»[]

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد بذل رجال صلاح الدين مجهودًا كبيرًا، لترميم المسجدين وإعادتهما إلى ما كانا عليه، وبخاصة المسجد الأقصى، وتحسينه وتوسيعه، إلا أنّ مهتمهم لم تنتهِ بعد، فقد كانت المهمة الثانية هي إعمار جميع مساجد القدس القديمة، وإعدادها كما ينبغي للصلاة فيها. وقد اتبع صلاح الدين سياسة خاصة تجاه سكان القدس، فشجّع العائلات المسلمة على الهجرة إليها، وخاصة عائلات الجنود، الذين شاركوا في المعركة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فأسكن فيها الكرد والمغاربة والأندلسيين وغيرهم، فكانت عائلات القدس من أعرق العائلات وأشرفها وأنبلها على الإطلاق، فهم مزيج من سلالة الفاتحين زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسلالة المحررين زمن صلاح الدين الأيوبي.
كما شجّع صلاح الدين عموم المسلمين في بقاع الأرض، المتجهين لأداء فريضة الحج، على الاجتماع في القدس، والإحرام من المسجد الأقصى لأول مرة، بعد أن توقفت هذه العادة منذ الاحتلال الصليبي، فكانت بذلك الأفراح مضاعفة، في أجواء حماسية طاغية، ملأ المسلمون فيها الفخر بأنهم قد ملكوا دينهم ودنياهم. وكان صلاح الدين يتنقل باستمرار بين المدن وبين القدس، فيطوف في شوارعها، ويتابع إعمارها، ويعيد تخطيطها وتنسيق مبانيها، ويتفقد الأمن بها؛ وقد كرّس صلاح الدين عامًا كاملًا أقام فيه بالقدس، لبناء سورها وأبراجها وتحصين خنادقها. وقد وصف العلامة موّفق الدين عبد اللطيف البغدادي وصفًا، لاهتمام السلطان صلاح الدين ببناء سور مدينة القدس، بقوله: (وكان مهتمًا ببناء سور القدس وحفر خندق، يتولى بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه، وتأسى به جميع الناس، الفقراء والأغنياء والضعفاء والأقوياء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل؛ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتي مواعيد الطعام ثم يستريح، ويركب العصر، ويرجع في المشاعل، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارًا)..
وكان صلاح الدين حريصًا على تزويد القدس بما يلزمها، من الإنشاءات العلمية والخيرية التي تفي حاجة سكانها، بل وتجعلها وجهة حضارية للوافدين عليها، وكان هناك الكثير من الأبنية المهجورة، بمقتضى الصلح المشروط، الذي أبرمه صلاح الدين مع الصليبين، ونص على أن يرحلوا عن القدس، ولكن يسمح لهم بأخذ متاعهم وأموالهم مقابل جزية يدفعونها قبيل خروجهم، وقدعفى عن العجائز وغير القادرين؛ فقام صلاح الدين بتحويل منازل أغنياء النصارى إلى استراحات، ودور ضيافة للأيتام وفقراء المسلمين، كما أنشأ الأسواق، والمدارس السنية المتعددة لمواجهة المد الشيعي، والخوانق والزوايا، وكان يوقف الأسواق كسوق العطارين، والبساتين، على هذه المباني الخدمية، التي على رأسها البيمارستان، والمدرسة الصلاحية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويحقّ لنا أن نقول بأنّ صلاح الدين قد توّج أفراح القدس، بما لقاه النصارى المنهزمون على يديه من أخلاق الفرسان، ونجد الإنجليزية إيفيلين كوبلد -والتي تُعرف بأنها أول إنجليزية أدّت فريضة الحج، بعد أن أشهرت إسلامها، وتسمت بزينب كوبلد- قد أدرجت ضمن كتابها: «البحث عن الله» صورة

نقلها إليها صلاح الدين الأيوبي، عن الدين الإسلامي عبر القرون، من خلال أخلاقه وحُسن معاملته لأتباع الملل الأخرى، فقالت: (لما استرجع صلاح الدين بيت المقدس بعد معارك عديدة، وطرد الصليبيين من البلاد؛ أظهر في حروبه ومعاركه كل ألوان الرفق والرحمة والعفو عند المقدرة، وأبى أن يُعامل المغلوبين إلا بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام من الذين أساءوا، وأحرقوا، ودمّروا، وزاد إحسانًا؛ فَسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة، تحت رعاية رجاله وحماية قادة جيوشه، وقد حفظ له كثير من كُتّاب الغرب هذه الصفات، ولم يتأخروا عن المجاهرة بها، والإقرار بأنه كان أشرف الأعداء، وأطهر الفاتحين).

وقد كان للأدب نصيبٌ وافر من أفراح القدس، فكم من الأشعار والكتب قد نظمت احتفاءً وابتهاجًا بذاك الحدث الفريد. شهر من الأفراح شهدتها القدس عقب انتصار حطين.. شهر لم تتوقف فيه رسائل التهاني، الوافدة إلى صلاح الدين من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، بعد أن ظلّ المسلمون قرابة تسعين عامًا، فاقدي الأمل في تحرير بيت المقدس، فهل بعد كل ما سلف ترونه بعيدًا؟.. بل هو قريب بإذن الله!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مئة عام على سقوط القدس

بقلم: أيمن حويرة

«سيكون من الحماقة أن نفترض، أنّ تكرار نفس الخطوات سيقود إلى نتائج مختلفة. لذا فقد قررت أنّ الوقت قد حان للاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل».

بهذه الكلمات استهل الرئيس الأمريكي الخامس والأربعون، دونالد ترامب، خطابه في ديسمبر ٢٠١٧ والذي خصصه بالكامل، للحديث عن الكيان المحتل وعاصمته المزعومة، تلك الكلمات التي صاغها للإعلان عن اعترافه -واعتراف الولايات المتحدة بالتبعية- بالقدس عاصمة لإسرائيل، بعد عقود من استيلاء الأخيرة على المدينة المقدسة، ومن قبلها أرض فلسطين كاملة. يأتي هذا قبل يومين فقط من الذكرى المئوية، لسقوط القدس في أيدي القوات الإنجليزية، وانتهاء الحكم الإسلامي العثماني للمدينة، والذي دام أربعة قرون. يأتي هذا ليضيف وجعًا إضافيًّا، وجرحًا غائرًا لآلام متراكمة، وخيبات أمل متتالية، على مدار العقود المنصرمة.

شتّان الفارق بين ما حدث في صفر عام ١٦ هجرية، وبين ما حدث في نفس الشهر عام ١٣٣٦ هجرية، شتان بين مشهد استسلام البطريرك صفرونيوس وتسليمه المدينة للفاروق عمر بن الخطاب، وبين مشهد ترحيب وجهاء المدينة بالجنرال البريطاني إدموند ألنبي، واحتلاله المدينة، التي لم تعد إلى الحكم الإسلامي منذ هذا اليوم. ألف وثلاثمئة وعشرون عامًا، هي عمر رحلة هذه المدينةالمكلومة، أول مدينة اتجهت إليها أنظار صحابة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- في صلاتهم، مدينة القدس الشريفة.

وبينما أعطى عمر -رضي الله عنه- عهدًا لأهل المدينة، حين خطب فيهم قائلًا: «يا أهل إيلياء، لكم ما لنا وعليكم ما علينا» مؤكدًا على بداية عهد جديد من التسامح والتعايش، بين المسلمين ومعتنقي الديانات الأخرى، المسيحية واليهودية، فقد أعلن ألنبي يوم سقوط المدينة أنّ الحروب الصليبية قد انتهت، كناية عن نهاية عصر الإسلام في القدس. وفي الوقت الذي رفع فيه المسلمون راية العزّوالمجد يوم دخولهم المدينة، كان يوم الفقد أليمًا ووجعه مخزيًا. يومًا استطاعت فيه جيوش بريطانيا أن تدحر العثمانيين، بعد أن أطاحت بهم من الحجاز والشام وسيناء، بمساعدة العرب أنفسهم ظنًّا منهم بأنّ يوم التتويج سيأتي حتمًا، وبأنّ تاج الخلافة سيزين جبهة أحدهم، فما كان إلا أن خسروا الشام وسيناء، وأضاعوا القدس إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن التاسع من ديسمبر عام ١٩١٧ -الموافق الرابع والعشرين من صفر عام ١٣٣٦- هو يوم السقوط الأول للقدس، ولم يكن أعنفها، لم يكن بأسوأ من فقدان المدينة الشريفة عام ١٠٩٩، على يد الحملة الصليبية الأولى التي أبادت سكان المدينة المسلمين، ولم يكن بأكثر خزيًا من تسليمها دون معارك عام ١٢٢٩، على يد الملك الكامل، لم يكن حتى هو السقوط الأخير الذي حلّ بالمدينة،حيث وقعت القدس بعدها في أيدي الصهاينة، كأحد غنائم نكبة يونيو ١٩٦٧، لكن سقوط المدينة في التاسع من ديسمبر بالتأكيد كان الأكثر حسرة وإيلامًا.. هذا اليوم الذي انفرط فيه العقد، يومها خرجت القدس من تحت عباءة الدولة الإسلامية... خرجت ولم تعد.

واليوم، وبالرغم من تغيّر السجّان فلا تزال القدس أسيرة، ما زالت تئن وترزح تحت وطأة احتلال غاشم، مازلنا نبكيها ونبكي ضعفنا وقلة حيلتنا، نبكي تقصيرنا، نبكي عجزنا عن أن نكون أكثر فعالية، تجاه وطننا المفقود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الثامن عشر من يونيو

يوم البدايات

بقلم: أيمن حويرة

الثامن عشر من يونيو١٨٠٥، يومٌ لا يعرف عنه الكثير من المصريين شيئًا، بالرغم من كونه يحتل موقعًا بارزًا في تاريخ مصر الحديثة، يوم ولدت فيه مصر «الدولة» وخطت أولى خطواتها نحو الحداثة، ربما يختلف الكثيرون حول مدى عظمة هذا اليوم وهذا الحدث، ربما ينعته البعض بالكارثة، ويعزو كل ما آلت إليه الأمور في وادينا التعيس لهذه اللحظات، بينما يتحدث عنه البعض الآخر بفخر بالغ، ممزوج بأسى على رحيل هذا العهد وانقضائه.

«يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى».. هكذا ردد المصريون في ثورتهم ضد الوالي العثماني خورشيد باشا، بل هكذا رددوا على مدار عامين كاملين، بدأت فيهما ثورتهم على الولاة منذ غادرت الحملة الفرنسية، يقودهم في ذلك نقيب الأشراف عمر مكرم، وتحملهم الأمنيات بتولي القائد «العسكري» الألباني محمد علي. ذلك الشاب حادّ الذكاء الذي استطاع التعامل مع الأحداث بحنكة وبراعة مدهشتين، تارة بالتودد للعثمانيين وتارة أخرى بالتحالف مع المماليك، حتى انتهى به الحال فائزًا وحيدًا وسط مجموعة كبيرة من الخاسرين، فهذا عمر مكرم الداعم الأول له، ينتهي به الحال منفيًّا، وها هي القلعة تقضي على المماليك، منافسه الأوحد على السلطة، ثم هاهم العثمانيون أنفسهم، يواجهون خطر تمدد دولة محمد علي لتبتلع دولتهم، في محاولة طموحة منه، لم يوقفها إلا أوروبا المتوجسة خيفة منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الثامن عشر من يونيو ١٨٠٥، ذلك اليوم الذي أصدر فيه السلطان سليم الثالث فرمانًا، بتعيين محمد علي واليًا على مصر، ذلك الفرمان الذي جاء منافيًا لرغبة السلطان، لكنه نزولًا على رغبة الجماهير، ومنذ ذلك التاريخ ورغم ما واجه محمد علي من صعوبات، إلا أنه استطاع أن يبني دولة جديدة، تبدو منفصلة تمامًا عن الدولة العثمانية، بدا ذلك واضحًا حين عجز سليم الثالث عن عزل محمد علي بعد عام من توليته، صحيح أنّ محمد علي ظل -أو هكذا بدا- وفيًّا لفترة من الوقت للدولة العثمانية، فحارب معها ولأجلها، لكنه سرعان ما أدار دفة المعركة نحو هذه الدولة، طمعًا في ضم أراضٍ جديدة لدولته، التي صمدت قرنًا ونصف القرن، مئة وثمانية وأربعين عامًا كاملة، حتى سقطت هذه الدولة تحت وطأة دولة أخرى عسكرية المنشأ مثلها، سقطت هذه الدولة الحديثة -كما تُلقب- بعد أن خفت بريق هذه الحداثة، أو ربما بدأت تبعات هذه الحداثة في الظهور، وبعد أن بدا أنّ دولة محمد علي، لم تمتلك المقومات اللازمة لبقائها وراثية في نسله، وأنه حان وقت استبدال الجمهورية بالملكية الوراثية وقد كان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عام قبل هذا السقوط كان يحمل بدايته وبوادره، الثالث والعشرون من يوليو ١٩٥٢، بل ربما حتى قبل هذا التاريخ بأعوام. كانت مصر محمد علي قد شاخت على يد ذريته، شاخت وفقدت مساحات كبيرة من امبراطورية الجدّ، التي بناها وظنّ أنه أحسن بناءها، لكنّ المصريين الذين هللوا كثيرًا، يوم دخل محمد علي قلعته حاكمًا لمصر، هم أنفسهم من تراقصوا، يوم أسقط البكباشي ناصر ورفاقه دولة

الباشا، في الثامن عشر من يونيو ١٩٥٣. هل تعمّد ناصر ورفاقه النيل من دولة محمد علي في نفس يوم مولدها، أم أنها فقط مصادفات هذا التاريخ العجيب؟!!
«إنّ تاريخ أسرة محمد على فى مصر، كان سلسلة من الخيانات، التى ارتكبت فى حق هذا الشعب، وكان من أولى هذه الخيانات إغراق إسماعيل فى ملذاته، وإغراق البلاد بالتالى، فى ديون عرّضت سمعتها وماليتها للخراب، حتى كان ذلك سببًا تعللت به الدول الاستعمارية، للنفوذ إلى أرض هذا الوادى الآمن الأمين، ثم جاء توفيق، فأتم هذه الصورة من الخيانة السافرة، فى سبيل محافظته على عرشه، فدخلت جيوش الاحتلال أرض مصر، لتحمى الغريب على العرش، الذى استنجد بأعداء البلاد على أهلها، وفاق فاروق كل من سبقوه من هذه الشجرة فأثرى وفجر، وطغى وتجبر وكفر، فخط لنفسه نهايته ومصيره، فآن للبلاد أن تتحرر من كل أثر من آثار العبودية، التى فرضت عليها نتيجة لهذه الأوضاع. نعلن اليوم باسم الشعب، إلغاء النظام الملكى وحكم أسرة محمد علي، مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة، وإعلان الجمهورية، وتولى اللواء محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية».
كان هذا بيان مجلس قيادة الثورة، الذي أنهى عهد ما قبل الجمهورية، وأسس عهدًا جديدًا هو عهد الجمهورية الأولى، ذلك العهد الذي بدا برَّاقا في بدايته، تمامًا كما بدا مثيله قبل خمسة عشر عقدًا، ثم ما لبث أن كشر عن أنيابه، وأخرج أسوأ ما فيه، تمامًا كما فعل سابقه أيضًا. ربما جاءت لحظة الحقيقة أقرب قليلًا من مثيلتها في عهد دولة محمد علي، لكنها جاءت شبيهة بها إلى حد كبير، ليست فقط لحظة الحقيقة، وإنما الدولة كلها لم تكن ببعيدة عما قبلها، فقط استبدل ناصر ضباطه بإقطاعيي فاروق، لكنه أضاف نكهة عسكرية قمعية للحياة الاجتماعية، لم تشهدها دولة الباشا في أحلك لحظاتها.
اختار ناصر هذه المرة نفس التاريخ -ربما عامدًا- ليخُلص دولته من الاحتلال، بعد أن جرّدها من رئيسها الأول محمد نجيب، فكان يوم الثامن عشر من يونيو ١٩٥٦ -نظريًّا- هو آخر يوم للجنود الإنجليز على الأراضي المصرية، أما عمليًّا فقد عاد هؤلاء الجنود بصحبة الفرنسيين والصهاينة، بعد أقل من ستة أشهر، ليحتلوا جزءًا من سيناء ومعه غزة. وانتظر الضباط الأحرار سبعة عشر عامًا كاملة، ليتذوقوا طعم أول انتصار «عسكري»، فمنذ أن غادروا ثكناتهم في يوليو ١٩٥٢، لم ير الجيش المصري انتصارًا إلا في أكتوبر، ذلك الانتصار الذي لم يلبث أن طمسته الأختام والتوقيعات على اتفاقية كامب ديفيد، ثم أتى عليه الزمن، فصار بعد ثلاثين عامًا كاملة مجرد ذكرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تاريخ منسي

أفريقيا التي لا نعرفها

امبراطورية الذهب

بقلم: إبراهيم أحمد عيسى

قد ظلت مناطق كثيرة في القارة الأفريقية مجهولة لزمن طويل، بعيدة عن طرق الرحالة والمستكشفين، وخاصة تلك المنطقة الواقعة بين الصحراء الكبرى والساحل الغربي لأفريقيا (السنغال - غانا)، ولا يعلم أغلبنا أنّ هناك حضارة قد قامت فى تلك المنطقة خاصة على حوض نهر النيجر الذي كان يظنّ البعض أنه امتداد للنيل، حتى إنّ ابن بطوطة وابن خلدون أطلقا على تلك المنطقة: السودان..

فكانت كلمة السودان أوسع وأشمل لأغلب مناطق أفريقيا في القرون الأولى للإسلام.. أما في القرن التاسع عشر، وبعد اكتشاف منابع النيل ومنابع نهر النيجر اختلفت التسمية قليلًا فأصبحت تلك المنطقة من أفريقيا تعرف بالسودان الغربي.

يظنّ البعض أنّ أفريقيا ظلت منذ بداية الزمن أرضًا همجية يسكنها أكلة لحوم البشر، وفي زمن ما أصبحت منجمًا للعبيد، ولكن لم تكن تلك الحقيقة مطلقًا، ففي غرب أفريقيا قامت مملكة دامت لقرون من الزمن تدعى «مملكة غانا».

كانت أراضي تلك المملكة تضمّ وادي نهر السنغال وتشمل منطقة واسعة شرقًا حتى حوض نهر النيجر، ظلت تلك المملكة على الوثنية لقرون كثيرة، وكانت تجارة الذهب رائجة، ولكن مع مرور الوقت وتزايد الصراعات انهارت مملكة غانا، بحلول القرن الثالث عشر الميلادي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امبراطورية مالي

قبل سقوط مملكة غانا بقرن أو أكثر، اعتنقت قبيلة المانديك الإسلام في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي أثناء حركة المرابطين، انفصلت المانديك بأراضيها عن مملكة غانا وأصبحت تنافس المملكة المحتضرة على مناطق واسعة غرب نهر النيجر، وسرعان ما تأسست دولة جديدة استطاعت بزعامة «سوندياتا» أن تضم الكثير من مناطق كانت تحت سيطرة قبائل خاضعة لملك غانا، وخلال فترة وجيزة استطاع «سوندياتا» أن يجعل من مملكته الصغيرة امبراطورية عظيمة بعد أن استولى على كافة أراضي مملكة غانا الغابرة، ليصبح متحكمًا في مناطق شاسعة وشعوبها تدين له بالولاء.

كانت هذه البداية الفعلية لأول مملكة إسلامية في عمق الغرب الأفريقي، استقر حكم سوندياتا بعد توحيد قبائل وشعوب المنطقة وقد دام ملكه مدة ٢٥ عامًا، نهضت فيها الدولة الجديدة وبرزت مكانتها بين ممالك المسلمين في أفريقيا.

استطاعت أسرة سوندياتا أن تنهض أكثر بالبلاد خاصة وأنها ورثت مناجم الذهب التي كانت يوماً مِلك المملكة البائدة، أخذ الخلفاء من بعد في تطوير المدن وبناء الجديدة منها فازدهرت التجارة، ولا ننسى أنهم ساهموا في نشر الدعوة الإسلامية، التي انتشرت مبادئها وقيمها في سهول و أحراش السنغال ونيجيريا والنيجر، وامتدت جنوبًا حتى شملت كل الجانب الغربي من القارة السمراء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مانسا أبو بكر (أبو بكر الثاني)

في عام ١٣٠٣ م - ٧٠٣ هـ، ارتقى عرش مالي مانسا أبو بكر، الذي كان ابن أخ سوندياتا، و بلغت العاصمة (تمبكتو) في عهده مكانة عالية و سميت بعاصمة الذهب، حيث كان لا يوجد بها فقير، شيدت المباني الضخمة والقصور، وذات يوم أعلن مانسا أبو بكر أنه سيذهب لاستكشاف بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، كل ما قيل عنه أنه بحر لاحدود له.

أمر بإعداد مائتي سفينة وجهزها بالرجال والزاد، لم يكن من الصعب تجهيز كل تلك السفن والرجال، فمملكة مالي في ذلك الوقت كانت تملك نصف ذهب العالم على الأقل... وبالفعل رحل أبو بكر الثاني متجهاً لاستكشاف ما وراء المحيط الأطلسي، وقد تنازل عن الحكم لأخيه (مانسا موسى) الذي قص تفاصيل تجهيز الرحلة وخروج أخيه على مسامع العالم الجغرافي (ابن فضل الله شهاب الدين العمري) والذي أورد تلك الرحلة ضمن كتابه «مسالك الأبصار «.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مانسا موسى (أغنى رجل في تاريخ البشرية)

لعل الشهرة التي اكتسبها مانسا موسى تعود إلى رحلة الحج الشهيرة التي قام بها والتي عرفت (بحجة الذهب)، تولى مانسا موسى الحكم بعد أخيه الذي قرر اكتشاف المحيط ولم يعد، فبعد أن قام بعدة إصلاحات داخلية قرر هو الآخر أن يذهب في رحلة كما فعل أخوه الأكبر ولكن هذه الرحلة كانت برًّا، و فى عام ١٣٢٤ م ٧٢٥ هـ قام الملك برحلة إلى البلاد المقدسه لأداء فريضة الحج، وقد ذكر ابن خلدون وابن حجر: أنّ مانسا موسى حمل معه من بلاده للإنفاق على الرحلة مئة جمل من التبر أي من الذهب، وفي كل جمل ثلاث قناطير بما يقدر بخمسين ألف رطل من الذهب.

ورافقه خلال هذه الرحلة آلاف من الرجال والحاشية والخدم ويقول صاحب تاريخ السودان بأنّ عددهم ستون ألفًا، حيث قطع الصحراء عن طريق ولاته وواحة توات ومن ثم اتجه إلى مصر، اتسعت العيون وانبهرت العقول مع دخول موكبه للقاهرة المملوكية، فقد كانت القافلة عظيمة وظل الناس يتحاكون بضخامتها وفخامتها، ولم يكن حديثهم يخلو من اسم سلطان مالي السخي وإلى جانب ثرائه وسخائه ترك مانسا موسى أثرًا في مصر خصوصًا بجلال مظهره ووقاره، ولم يقتصر سخاء موسى وكرمه على القاهرة، بل كان ينشر الذهب حيثما حل، وقد انطلقت يده بالعطاء خصوصًا في الأماكن المقدسة، حيث كان يوزع الهدايا دون توقف.

عاد مانسا موسى إلى تمبكتو حاملًا معه علماء من المدينة المنورة ودمشق وبغداد والقاهرة والأندلس، وقام بتأسيس جامعات ضخمة، وتعد مكتبة تمبكتو من أهم الصروح التي أقامها موسى، ففي عهده ازدهرت مملكة مالي وبلغت مكانة مرموقة بين ممالك العالم كافة، وتناقلت الألسنة عبر العالم اسم ملكها العادل، أثرى رجل في العالم، ولعل أقدم وثيقة تحمل اسمه وصورته ترجع إلى عام ١٣٣٩م، أي بعد وفاة (مانسا موسى) بسنوات قليلة، وهي الخريطة المعروفة (الخريطة القطالونية) وهي من تصميم العالم الجغرافي الميورقي إبراهام كرسك.

وقد أوضحت الخريطة قلب الصحراء، وفيها رجل ملثم يركب جملًا ويسير بخطى سريعة، نحو ملك مهيب جالس على عرشه في كامل لباسه الملكي، وعلى رأسه تاج، وفي إحدى يديه صولجان الملك، وفي اليد الأخرى قطعة من ذهب يقدمها لذلك الراكب المهرول نحوه، ويسمى كما هو منقوش على الخريطة (أغنى وأعظم ملك في جميع البلاد).

وما نستطيع استخلاصه أنّ عظمة مالي منذ زمن سوندياتا وحتى مانسا موسى ومن بعده، كانت أحد الأسباب التي أدت إلى زيادة الرغبة في التعرف على أعماق أفريقيا، تمهيدًا لحركة الكشف والاستعمار الأوربي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضات وشخصيات

صلاح الدين.. واقع الشرق إبّان الحروب الصليبية

بقلم: إبراهيم أحمد عيسى

يتعامل البعض مع الشخصيات التاريخية من منطلق الانتقاص والوقيعة، دون الأخذ في عين الاعتبار الزمن وحقيقة الصراع والأجواء المحيطة بالتحالفات السياسية والحربية، بل ينسى البعض الصراع المذهبي الذي يسيطر في كثير من الأحيان على مجمل الصراع وأجوائه، ولعل قصة الخلاف بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي كانت إحدى دوافع البعض للنيل من كليهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصراع في الشرق

شهد العالم الإسلامي العديد من الصراعات قبل مرحلة الحروب الصليبية؛ إذ لم تتوقف الحرب بين الخلافة الفاطمية الشيعية وبين الخلافة العباسية السنية، وإن كانت هذه الأخيرة ضعيفة إلا أنّ السلاجقة استطاعوا أن يضمنوا لها البقاء، ليصبحوا بذلك درعًا وسيفًا لمجرد هيكل سياسي يُجمع السنة تحت راياته، وبينما كانت بغداد تحت حماية السلاجقة الذين صدّوا عنها هجمات عدة، كانت القاهرة قد خرجت للتوّ من أتون مجاعة قاتلة هزّت أركان خلافة العبيديين.

لقد نُصب مسرح الصراع بأرض الشام، فكان بيت المقدس والساحل يقع تارة في يد السلاجقة وتارة أخرى في يد الفاطميين، كما كان لدمشق وحلب الجانب الأكبر من ذلك الصراع، ولكن كان هناك عنصر آخر يبرز في الصراع من حين لآخر تمثّل في البيزنطيين، تلك الامبراطورية التي كانت تقاوم من أجل البقاء، هذه المقاومة تمثلت في مقارعة السلاجقة في الأناضول، حرب أخرى شهدت بالمجد للسلاجقة الذين استطاعوا أن يقضوا على بطرس الناسك وزمرته، ولكنّ الموت فاجأ السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، لتتفكك بعدها الدولة وينشغل قادتها بالصراع فيما بينهم. وبينما كانت القاهرة تتعافى من شدتها مات الوزير الفاطمي بدر الدين الجمالي وقد أسس عهدًا جديدًا، عصر الوزارة الكبرى، حيث أصبح الخليفة الفاطمي مجرد رمز بينما يتحكم الوزير الأكبر في كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذن هناك خلافتان ممزقتان، ودولة سلاجقة الروم تسقط عاصمتها نيقية، وأنطاكية محاصرة من عدو جديد دخل الصراع، والصليبيون جاءوا إثر حملة بطرس الناسك من أجل تحرير قبر المسيح، ثم انفرط عقد المدن من يد السلاجقة. استغل الفاطميون حصار أنطاكية وهجموا على مدن فلسطين تباعًا، وقد حاول ما تبقى من أتابكة السلاجقة فك حصار أنطاكية ولكنهم فشلوا، سقطت المدينة بيد الصليبيين غير أنهم غدروا بحلفائهم العبيديين، ودخلوا مناطق فلسطين في ربيع عام ١٠٩٩م في قوة عدادها ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة، فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين، ثم ساروا إلى قيسارية ثم تمكنوا من احتلال الرملة، ثم حاصروا بيت المقدس وسرعان ما دخلوا المدينة التي ارتكبوا بها مذبحة مروعة يشيب منها الولدان، فقد جرت الدماء أنهارًا في المدينة المقدسة، و قتلوا في أنحاء المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا. وقد ذكر ابن الأثير أنه لم ينجُ من المدينة سوى الحامية الفاطمية، وبعد وقت وجيز حاول الأفضل بن بدر الدين الجمالي الوزير الفاطمي استعادة القدس، ولكنه انهزم شر هزيمة من حلفاء الأمس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بداية جديدة

استولى الصليبيون على الساحل تباعًا، وبينما كان السلاجقة يجمعون شتاتهم كانت خناجر الحشّاشين تخترق صدور قادة الصحوة، حتى ظهر بالساحة عماد الدين زنكي الذي استطاع أن يضم حلب لسلطانه، وبقيت دمشق عصيّة عليه تحت وصاية مملكة بيت المقدس. لقد كان لعماد الدين زنكي دور بارز في الصراع، حيث استطاع أن يستردّ مدينة الرّها وينهي وجود الإمارة الصليبية في منطقة الجزيرة الفراتية، لكن لم يدم حكم زنكي طويلًا، فقد عاجلته المنية ليخلفه ولده الذي حمل على عاتقه تحقيق حلم أبيه في تحرير بيت المقدس. كان نور الدين حامل رايتي العدل والجهاد، حاصر دمشق الموالية للصليبيين، ثم تمكن من استعادتها فيما بعد.

وفي مصر كان البيت العبيدي قد سُنت فيه سنة القتل، خلفاء ضعفاء يقتلون بعضهم بعضًا ووزراء يتحكمون في كل شيء، صراع مرير بين الوزيرين شاور وضرغام على كرسي الوزارة. استعان شاور بنور الدين محمود الذي أرسل معه جيشًا إلى القاهرة بقيادة أسد الدين شيركوه الذي هزم جيش الفاطميين بقيادة ضرغام، كان نور الدين محمود يرغب في توحيد مصر والشام تحت حكم الدولة الزّنكية، فتكون هذه أول خطوة نحو تحرير بيت المقدس، ولكن سرعان ما انقلب شاور على حلفائه، وطلب العون من الصليبيين، حروب عدة دارت بين أسد الدين شيركوه والقوات الفاطمية المدعومة من الصليبيين، وقد برز في تلك المعارك دور الشاب يوسف بن أيوب -صلاح الدين الأيوبي- الذي كان قد جاء إلى مصر ضمن جيش عمّه أسد الدين شيركوه.

كان شاور يتلاعب بكل الأطراف للبقاء في منصبه، فتارة يهادن أسد الدين شيركوه ويستصرخه للنجدة، وتارة يطلب النجدة من الصليبيين لمجابهة نفوذ الزنكيين المتنامي داخل مصر الفاطمية، وبعد العديد من المعارك نجح أسد الدين فى الدخول إلى القاهرة ليقبض على شاور، وسرعان ما أصدر الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله حكمًا بقتله، وتعيين أسد الدين بالوزارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صلاح الدين وزيرًا

لم يمكث أسد الدين شيركوه في الوزارة كثيرًا، حيث توفي بعد شهرين فقط من توليته، ليعيِّن العاضدُ صلاحَ الدين خلفًا لعمّه، ولعل صغر سنّ صلاح الدين هو مما شجع العاضد على توزيره لاعتقاده بإمكانية السيطرة عليه. تولى صلاح الدين الوزارةَ، فكان هو صاحب السلطات الفعلية ككل وزراء العبيديين منذ عهد بدر الدين الجمالي. وتوالت الرسائل من نور الدين محمود بوجوب القضاء على الدولة الفاطمية الضعيفة؛ إذ إنّ هدف نور الدين تمثل في القضاء على الدولة العبيدية وإعادة مصر إلى مذهب أهل السنة وراية الخلافة العباسية، وبهذا يستطيع مواجهة الصليبيين بقوة واحدة متحدة، وخاصة بعد اكتمال محور الشام مصر، ولكن كان لصلاح الدين رأي آخر، كان يعلم أن اقتلاع دولة الفاطميين أمر صعب، فقد صمدت قرابة الثلاثة قرون، واحتلت مساحة واسعة من العالم الإسلامي، فكان يرى التريّث في اتخاذ هذه الخطوة، لا سيّما وأنها دولة لها الكثير من المؤيدين، على عكس رغبة نور الدين الذي كان يعتقد استحالة توحيد الجبهة الإسلامية طالما ظلت دولة الفاطميين، فأخذ يلحّ على صلاح الدين باتخاذ هذه الخطوة، لكن تأخر صلاح الدين في الخطبة للخليفة العباسي كما أوصاه نور الدين محمود، وقد رويت بعض الروايات عن صراع لاح في الأفق بينهما بسبب ذلك التلكؤ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنّ البعض يضخّم من أمر الخلاف ويصوّر أنّ صلاح الدين غدر واستأثر بأمر مصر دون نور الدين، على الرغم من أنه نائب لنور الدين فيها، وبالغ هؤلاء عندما تحدثوا عن حربٍ كادت تقع بين الرجلين، وكان الاعتماد على تلك النظريات مستندًا على رواية ابن الأثير الذي يلتمس المناسبات أحيانًا لنقد صلاح الدين وتجريحه، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين، فابن الأثير أو كما يسمى مؤرخ البيت الزنكي في كتابيه «الكامل في التاريخ» و«الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية» قد ذكر آراءه في كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أنّ صلاح الدين لم يكن وفيًّا لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام. فكل هذه الآراء كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين.

وقد ذكر عماد الدين الأصفهاني -وزير نور الدين محمود- أنّ صلاح الدين كان لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين. ولعل تلك الشهادة من وزير الدولة الزنكية تمحو ما بدا من ابن الأثير، كما أنّ القارئ في التاريخ يرى كمّ التضارب في تلك الأقوال التي تمنح صلاح الدين الأحقية في ضم ممتلكات الدولة الزنكية بعد وفاة نور الدين محمود، والصراع الذي نشب بين الأتابكة للحصول على الكرسي.

نهاية الفاطميين العُبيدين!

قد يكون للرجلين -نور الدين وصلاح الدين- أفكار ورؤى مختلفة، فحين كان يريد نور الدين محمود أن ينهي وجود الدولة العبيدية، كان صلاح الدين يرى وجوب التريث في الأمر، ولعل ذلك يتضح من الرحمة والوفاء الذي تعامل به صلاح الدين مع الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، فقد كان العاضد شيخًا مريضًا، وكانت خطوات صلاح الدين هادئة متريثة، ففي بادئ الأمر استكثر من الجند الموالين له، وتمكن من إعفاء الكثير من قادة العبيديين من مناصبهم، ومنح بعض أمرائه سكنًا بقصر الخلافة مما جعل رواد القصر يحظون بمكانة تساوي مكانة الخليفة الهَرِم، والذي لم يكن له من الأمر شيء. وقد عزل صلاح الدين العديد من الولاة ممن أثاروا ريبته ونقَمته، فقامت عليه ثورات عدة أهمها ثورة النوبة حيث كانت أسوان مركزًا قويًّا للعُبيديين، فأرسل أخاه العادل الذي تمكن من تحقيق نصر منح صلاح الدين القوة في اتخاذ الخطوة التالية، فقام بعزل قضاة الإسماعيلية -الشيعة- وعيّن مكانهم قضاة سنة، كما كان الحدث الأبرز قيامه بفتح القاهرة لعامة الناس، فأصبحوا يخرجون منها ويبنون حولها كما يحلو لهم، فقد كانت القاهرة مدينة خاصة للخلفاء الفاطميين ورجالهم، وسرعان ما عاد للأذهان مرة أخرى قضية نسَب العبيديين، وتشكك العامة في هذه القضية، مما هيأ العامة لأي خطوة قادمة، وكلّل صلاح الدين مجهوده بالسيطرة على دار الحكمة التي كانت بمثابة القلعة الفكرية للمذهب الإسماعيلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد كان لصلاح الدين منهجية في تبديل المناخ الفكري والفقهي لدى العامة، فكانت خطواته بطيئة بالنسبة للبعض، بينما يراها هو مترفقة هادئة دون مواجهات تجعله يخسر الكثير، فأسس مدارس سنية تقوم على تفقيه الناس في الأقطار الفاطمية، كما أوقف خطبة الجمعة من الجامع الازهر ليفتّ من عضد فقهاء المذهب الشيعي، استغرق الأمر ثلاث سنوات لاتخاذ الخطوة الحاسمة بقطع الخطبة عن العبيديين الفاطميين، وإعادتها إلى العباسيين، وهو ما تمّ في شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي، وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر

الله، وأعاد السواد شعار العباسيين، وما هي إلا أيام ومات العاضد لدين الله الفاطمي، لتَطوى صفحة الخلافة العبيدية الفاطمية في مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما أصبح صلاح الدين في سدة حكم مصر منفردًا، طلب منه نور الدين محمود أن ينضم إليه في هجومه على مدينة الكرَك بالأردن، ولكن صلاح الدين لم يكن في عجلة من أمره وأراد أن يرتب أموره الداخلية أولاً، فاعتذر عن المشاركة في الهجوم وتعلل بمرض والده -فكما ذكرنا سابقًا كان لكل من الرجلين وجهة نظر ورؤية خاصة-، فقد رأى صلاح الدين أن يتصدى للفتن الداخلية التي كانت تُحاك ضده، حيث حاول بعض المنتسبين للبيت العبيدي إعادة الخلافة الفاطمية، فتآمروا ضد صلاح الدين واتصلوا بالصليبيين ودفعوا إليهم بالأموال ليهاجموا الشواطئ المصرية، ولكنّ صلاح الدين تصدى لتلك المحاولة وعاقب المتمردين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قيامة أرطغرل

بقلم: نهى عودة

«الشخص الذي لديه القوة والسلطة»...
هذا هو المعني الحرفي لكلمة «قايي»، و«قايي» هو اسم القبيلة التي تنحدر منها السلالة العثمانية، تلك السلالة التي نجحت في تكوين امبراطورية بحق، فقد استطاعت أن تمتد لأكثرمن ستمئة عام أخذت خلالها في الاتساع والتمدد حتى شملت أراضيها رُقعًا كبيرة من قارات العالم القديم الثلاث، آسيا وأوروبا وأفريقيا، والسبعة بحار التي تربط بينهم؛ تلك السلالة التي حكمت العالم الإسلامي لخمسة قرون كاملة.
تنتمي قبيلة أو عشيرة قايي التركية إلى الأتراك الأوغوز الذين نزحوا من بلاد كردستان إلى آسيا الصغرى المعروفة بالأناضول جراء الغزو المغولي بقيادة جنكيز خان الذي اجتاح المناطق التي كانوا يخيمون فيها، فحملوا متاعهم وساروا إلى أرض الله الواسعة، أربعمئة خيمة ومئة أسرة تضم حوالي أربعة آلاف شخص منهم أربعمئة محارب في حل وترحال.. حملوا كل ما يملكون في هذه الحياة وهاموا في الأرض يبحثون عن الموطن الأكثر أمانًا والأفضل طقسًا والأوفر غذاءً ومرعى.. ولئن كانت هذه هي الحياة التي اعتادوها إلا أنّ النزوح آمنًا مطمئنًا يختلف كثيرًا عن النزوح فارًّا من الموت، هنا تتجلى روح القائد الذي يمتلك القدرة على بث الطمأنينة في قلوب عشيرته، هنا يظهر أرطغرل، القائد، الشجاع، الذي ما لبث أن تولى أمر عشيرته عقب وفاة والده «سليمان شاه» - بحسب الرواية الأشهر- أو «ألب كوندوز» بحسب مصادر عثمانية مهمة مثل «دستور نامة» ومسكوكات نقدية عُثِرَ عليها لاحقًا نُقِشَ عليها «عثمان بن أرطغرل بن كوندوز آلب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيامًا طويلة قاد فيها أرطغرل عشيرته باحثًا عن الحياة والأمل، مسؤولية كبيرة لم تكن لتكلل بالنجاح لولا حكمة هذا الرجل ورباطة جأشه وثقته الكبيرة في الله، مساحاتٍ شاسعة مروا بها خلال ترحالهم، فعبروا أراضي إيران من ساحل بحر قزوين ووصلوا إلى أخلاط قصبة أرمينيا الصغرى وسكنوا لفترة في مراعيها، وظلت الرحلة مستمرة. ربما وحده القدر الذي ساقهم إلى أراضي سلاجقة الأناضول، لتتغير بهم خارطة العالم بعد ذلك!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم من أنّ الأتراك قد دخلوا إلى الإسلام في وقت باكر، وانخرطوا في جيوش الخلافة العباسية بشكل كبير، حتى أصبح لهم الغلبة والسيادة منذ عهد الخليفة المعتصم، إلا أنهم ظلوا طيلة هذه الفترة من الناحية العقائدية يعيشون حالة من الانتقال من الوثنية إلى الإسلام. ولما خلف أرطغرل أباه بدا وكأنّ وقت الاختبار الحقيقي لعقيدة هؤلاء الرعاة الرُحّل قد حان؛ ففي عام ١٢٣٠م وبينما أرطغرل سائرٌ بعشيرته فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما اقترب منها وجد قتالًا شرسًا بين فرقتين؛ استطاع بسهولة أن يميز أنّ إحداهما هي إخوانه من المسلمين السلاجقة، بينما الأخرى من الروم البيزنطيين -وتذهب بعض الروايات إلى كونهم من المغول- وكانت الغلبة حينها تصبّ في كفة الجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن اندفع برجال عشيرته القليلي العدد المنهكي القوى جرّاء السفر الطويل اندفاع المؤمن المخلص لدينه، المنجد لإخوانه من المسلمين، دون أن يفكر لحظة

فيما قد تؤول إليه الأمور، طغت عقيدته الدينية -المتمثلة في حب الجهاد في سبيل الله- على فطرته البشرية التي تنشد السلامة وحبّ الحياة والبعد عن المخاطرة المجهولة العواقب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا ريب أنّ الحياة البدوية القبلية لأرطغرل ورجاله قد لعبت دورًا هامًا في ذاك المشهد، إذ أن بيئتهم القاسية قد نمت الروح القتالية لديهم وجعلتهم دائمًا على أهبة الاستعداد لخوض المعارك دفاعا عن أنفسهم وممتلكاتهم. وهم بالإضافة لذلك يتبعون سياسة مبسطة لإدارة القبيلة بوصفها دولة صغيرة، رجالها بطبعهم محاربون يمتثلون لأوامر قائدهم بالقتال متى طلب منهم ذلك. لذلك -وبدون تردد- انطلق الرجال شديدو البأس بكل ثبات وشجاعة لنصرة إخوانهم، فانقلب الحال بعد أن كان المسلمون على وشك الهزيمة المؤكدة، ومنّ الله عليهم بالنصر، فكان هذا اللقاء المفاجئ بمثابة طوق النجاة لدولة السلاجقة التي دبّ الضعف في أوصالها. وقد كان السلطان السلجوقي علاء الدين كيقوباد من الذكاء والحكمة بحيث قرر أن يحافظ على هؤلاء الرجال تحت لواء دولته الموشكة على التهاوي؛ في الوقت نفسه لم يكن بإمكانه الركون إلى إخلاصهم التام له إذا ما انخرطوا في قواته واستخدمهم في مواجهة الخوارزميين الذي كان يحاربهم في ذلك الوقت أو في مواجهة المغول، لذلك فقد أغدق على أرطغرل الخُلع والهبات، وأقطعه أرضًا خصبة ليستوطنها هو وعشيرته بالقرب من أنقرة. ولما اجتهد أرطغرل وأخلص في مساندة السلطان السلجوقي أقطعه أرضًا أخرى في أقصى شمال غرب الأناضول، على حدود دولة السلاجقة الآخذة في الانكماش لصالح الدولة البيزنطية، في تلك المنطقة المعروفة باسم «سوغوت» قرب مدينة أسكي شهير، وهناك بدأت العشيرة مرحلة وحياة جديدة لم تعهدها من قبل، بجوار بعض العشائر الأخرى التي قد هاجرت واستقرت في نفس المنطقة في وقت سابق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتقل أرطغرل ورجاله من حياة البداوة والترحال إلى حياة أكثر استقرارًا، فهم الآن يقطنون أراضي هم مالكوها، باتوا يشعرون تجاهها بالانتماء والمسؤولية، في الوقت الذي اعتبرهم السلاجقة فيه يؤدون دور الحامية على الحدود البيزنطية. وبمرور الأيام أثبت أرطغرل ورجاله شجاعة باسلة في المعارك، وأظهروا مهارة قتالية عالية مما دفع السلطان علاء الدين للتفكير في استغلال مواهبهم العسكرية بصورة أوسع، بعد أن كان هدفه في البداية مجرد حماية حدود دولته، والاستعانة بهم في التصدي لأي هجوم بيزنطي محتمل، فلم تمضِ فترة قصيرة حتى منحه لقب «أوج بكي»، وهو تقليد متبع في الدولة السلجوقية بأن يمنح هذا اللقب لرئيس العشيرة الذي يعظم أمره، ويستطيع أن يضم تحت لوائه عددًا من العشائر الصغيرة، ليكونوا معًا جبهة قوية تنجح في الحفاظ على حدود الدولة؛ لكن أرطغرل لم يقنع بهذه القطعة من الأرض، ولم يشبع هذا اللقب روحه المتقدة المتطلعة للجهاد، لم يكن من الممكن لشخصية رجل مثله أن يجلس بجوار خيمته، ليتابع عن بعد أغنامه الهائمة في السهول وعلى مقربة منه تناديه أراضي الجهاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استطاع أرطغرل بقوته وحكمته وذكائه الحاد وصدى انتصاراته المدوّي، أن يُغري فئات مختلفة من المسلمين بالقدوم إلى هذه الأرض المفعمة بالأمل، فعلى تلك الأرض وجد كلُّ ضالته المنشودة؛ المجاهدون أقبلوا من مختلف أنحاء الدولة الإسلامية التي كانت على شفا الانهيار، لينضموا تحت لواء القائد الجسور المجاهد، والمزارعون والرعاة الفارّون من وحشية المغول، وجدوا الأراضي

الخصبة والمرعى الغني، في ظل ثلة من الأبطال تحميهم، وتهافت الدراويش والمشايخ من كل صوب حيث المريدين.
ولعل روح الحماس المتقد للدفاع عن الدين الإسلامي، مع وجود محاربين أقوياء، والثقة والطاعة المطلقة لقائدهم أرطغرل، وإجماعهم على ضرورة المحافظة على وحدة الإمارة الصغيرة الناشئة، بخلاف بقية الإمارات الأخرى التي نشأت بالتوازي معهم، وكانت تسمح بتجزئة الإمارة بين أكثر من وريث، وتكوين تحالفات قوية مع الإمارات المجاورة، كل هذه العوامل عملت معًا على قيام واستمرارية دولتهم؛ لتتحول هذه القطعة من الأرض من مرعى للأغنام، إلى رباط للجهاد في مواجهة الأراضي البيزنطية، التي لم تهنأ منذ جاورهم أرطغرل ورجاله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نصف قرن قضاها أرطغرل على تلك الأرض، نجح خلالها في تنظيم صفوفه، واستطاع أن يُشعل لهيب الأراضي البيزنطية المجاورة فتسقط أراضيهم الواحدة تلو الأخرى، نصف قرن اتسعت فيه أراضيه لتبلغ مساحة الإمارة في عهده، أربعة آلاف وثمانمئة كيلو متر مربع، وتقديرًا لفتوحاته وغزواته فقد مُنِحَ لقبًا آخر وهو لقب «الغازي». توفي -رحمه الله- عام ١٢٨١م عن عمر يناهز الثالثة والتسعين عامًا، ودفن في «سوغوت».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما لا تُسعفنا المصادر التاريخية، لنخوض في سيرة البطل العظيم أكثر من ذلك، إلا أنّ نبتته الأروع التي وهبها إلى هذه الحياة كانت (عثمان)، الأمير الذي عُرِفَ منذ صغره بشجاعته وبسالته، وأثبت نفسه في ميادين القتال، وانغمس في المهام السياسية والإدارية منذ عهد والده، وكان خير أمين وراعٍ للنواة التي غرسها أرطغرل، وانبثقت منها أقوى سلالة سلاطين حكمت الأرض. عثمان الذي وُلد في نفس عام سقوط بغداد، ليحمل الأمل لهذه الأمة، في وقت اتشحت فيه أراضي المسلمين بالسواد، عثمان غازي الذي تولى مقاليد الأمور في الثالثة والعشرين من عمره فسار على خطى والده، وبعث ربيع هذه الأمة ثانية، عقب سقوط دولة السلاجقة وأعلن قيام الدولة العثمانية، تلك الدولة التي ارتبطت نشأتها تمام الارتباط بالإسلام والجهاد في سبيل الله. وفي هذا الصدد يقول المستشرق الألماني كارل بروكلمان: «إنّ المئات ممن كان يطلق عليهم اسم المجاهدين، كانوا يفدون إلى التخوم المواجهة للبيزنطيين، للانضمام إلى عثمان حبًّا لما يُعرف بالجهاد في سبيل الله».
ومنذ هذا الحين توالت الفتوحات والانتصارات.. لقد ترعرعت نبتة أرطغرل وأزهرت.
#ربيع_أمة بني عثمان

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المعتمد بن عباد

بقلم: مريم المير

كما أنه لكل فارس كَبْوَة هناك أيضًا لكل بداية نهاية.. وليست كل النهايات تُرسم بألوان قوس قزح حتى لو بدت الحكاية مشرقة في مجملها. هنا، أمام هذا الضريح، يتوقف الزمن.. في هذا المكان تتعثر الأحرف و تَنْسَلُّ الكلمات تباعًا.. لا شيء يُسمع في الجوار غير السكون.. وحدها أبيات الراقد هنا تردد صداها الجدران.. قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائِحُ الغادي حَقًّا ظَفَرتَ بِأشلاء ابن عَبِّاد».. أخطو للخارج مرة أخرى وأنتهد بعمق أحاول لملمة شتات الكلمات علِّي أصوغ مقدمة تليق بالقصة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضريح المعتمد بن عباد بأغمات

هنا من قداسة المكان المثقل بالاذِّكار والاعتبار.. أمتطي أشجان اللوعة لأعبر نحو منبع الحكاية.. إلى مدينة باجة غرب الأندلس، هناك حيث رأى النور لأول مرة آخر ملوك الطوائف..

نشأة المعتمد

ولد أبو القاسم محمد المعتمد بن عباد سنة ٤٣١ أو ٤٣٢هـ بمدينة باجة (Beja)، التي تقع في البرتغال حاليًا. وقد رغب أبوه المعتضد بالله (٤٠٧ - ٤٦١هـ) أن يكون ابنه هذا مدربًا على الحكم متمرسًا فيه منذ نعومة أظفاره، فكان أن ولاه مدينة ولبة (Huelva) وهو بعمر الاثني عشر سنة على أكثر تقدير، ثم أرسله قائدًا على رأس جيش للاستيلاء على مدينة شلب، وهناك تعرف المعتمد على الشاعر أبي بكر بن عمّار وتوطدت علاقتهما، حتى قال المراكشي عن قرب ابن عمّار للمعتمد: «يشاركه فيما لا يشارك به الرجل أخاه ولا أباه».

إلى جانب الإعداد العسكري والسياسي، أخذ المعتمد عن أبيه حبّ الشعر وبرع فيه، ويقال إنّ المعتضد أمره يومًا بوصف ترس لازوردي اللون، مطوّق بالذهب، فقال ابن عباد بديهًا:

مِجن حكى صانعوه السماء\
لتقصر عنه طوال الرمــاح\
وصـاغوا مثـال الثريـا عليه\
كواكب تقضى لنا بالنجـــاح\
وقد طوّقوه بذوب النّضـــار\
كما جلّل الأفق ضوء الصباح

شخصيته

عُرف عن المعتمد أنه كان جوادًا سخيًّا، اغتنم بذكائه وشجاعته تقدير الشعب وثقته. وكانت جهوده في سبيل تعويض الذين نكبتهم قسوة أبيه، تحيط حكمه بحبّ الأكابر والأصاغر على السواء. بيد أنه كان مثل أبيه في نظر الفقهاء مستهترًا بالدين، يستبيح شرب الخمر ويبيحه للجند في الميدان، و كان شاعرًا طائر الصيت يغدق عطفه ورعايته على العلماء، و ينافس في ذلك صديقه معز الدولة صاحب ألمرية.

المعتمد أديبًا

احتل الشعر في بلاد بني العباد في إشبيلية المكانة المرموقة، والمنزلة الرفيعة، فأصبح الناس جميعًا في هذا العهد يتسابقون في قرض الشعر أو حفظه، ليحتل بهذا في نفوسهم مكانة يحسد عليها، وإلى هذا يشير «ليفي بروفنسال (Évariste Lévi-Provençal) بقوله: كان القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري عصر ملوك الطوائف عهدًا عرفت فيه إسبانيا أكبر إشراق شعري من غير شك».

وكان للمعتمد في الأدب باع وساع، ينظم وينثر، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة.

المعتمد والرميكية

لا يمكننا الحديث عن المعتمد دون أن نعرج على زوجته اعتماد الرميكية، والتي من اسمها قد اشتق لقبه «المعتمد» بعد أن كان يلقب بـ «المؤيد بالله»، وقصة تعرفه عليها غريبة عجيبة.

يُحكى أنّ المعتمد بن عباد كان يتمشى في بعض مروج إشبيلية، على ضفاف الوادي الكبير مع وزيره أبي بكر بن عمار، حين ارتجل فجأة «صنع الريح من ماء الزَّرد»،ثم صمت ملتفتًا لرفيقه ينتظر منه إكمال البيت، بيد أنّ التتمة جاءت من صوت أنثوي خلفه «أيُّ درع لقتال لو جمد»، التفت ابن عباد ليرى مصدر الصوت، فإذا بها امرأة تغسل الملابس على النهر، تعجّب من براعتها وبديهتها، وأعجب بها، ثم علم بعد أن سأل عنها أنها جارية لرميك بن حجاج.

وهكذا، لم يمر وقت بعد هذه الحادثة، حتى اشتراها من صاحبها وتزوجها.. وتحكي كتب التاريخ عدّة قصص بين المعتمد وزوجته، حيث كان لا يردّ لها طلبًا، وانتشر الكلام بين الناس عن انغماسه في حياة اللهو والتبذير إرضاءً لرغباتها، ويعدّ «يوم الطين» من أشهر الحوادث التي خلد ذكرها.

يُذكر أنّ اعتماد رأت جواري يبعن اللبن، وقد شمرن عن سوقهن وسواعدهن يخُضن في الطين، لتخبر زوجها أنها اشتهت أن تفعل مثلهن، فما كان منه إلا أن أمر بجلب العنبر والمسك، وسحق الطيب، ثم غُطيت به كل ساحة القصر، وصبّ ماء الورد عليها، وقد عُجِنَ ذلك حتى أصبح كالطين، لتخوض فيه الرميكية وبناتها وجواريها..

ولابن عباد أبيات شعر، حيكت مطالعها من أحرف اسم زوجته «اعتماد»، يقول فيها:

أغائبة الشخص عن ناظري

وحاضرة في صميم الفؤاد

عليك السلام بقدر الشجون

ودمع الشؤون وقدر السّهاد

تملّكت مني صعب المرام

وصادفت مني سهل القياد

مرادي أعياك في كلّ حين

فيا ليت أني أعطى مرادي

أقيمي على العهد في بيننا

ولا تستحيلي لطول البعاد

دسست اسمك الحلو في طيّه

وألّفت فيك حروف «اعتماد»

المعتمد بن عباد ملكًا

بعد انهيار دولة ابن جهور (٤٦٣ هـ)،غدا أمير إشبيلية أقوى أمراء إسبانيا المسلمة، وعمد ابن عباد إلى استرضاء زعماء الأراضي المفتوحة بجليل الصلات، وإلى اجتذاب الشعب بمختلف المآدب و الحفلات ومصارعة الوحوش. وسرعان ما نسي الناس حكم ابن جهور

استطاع المعتمد بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتد في قلب النصف الجنوبي من شبه الجزيرة، من غرب ولاية تدمر شرقًا، حتى المحيط الأطلسي، ومن ضفاف وادي يانة جنوبًا حتى أرض الفرنتيرة. وكان المعتمد قد استطاع في الواقع في آخر أيام الملك العاجز الضعيف، القادر بن ذي النون (ت٤٦٧ هـ)، أن يستولي على معظم أراضي مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية، من المعدن شرقًا حتى مدينة قونقة. ولعل المعتمد كان يفكر في غزوات وفتوح أخرى، ينتزع فيها ما استطاع من أراضي جيرانه، لولا أن أيقظه سقوط طليطلة، من غمار أحلامه وأطماعه.

عرفت البلاد في فترة حكم ابن عباد، نهضة حضارية كبيرة خاصة في إشبيلية، فشيدت القصور العظيمة كقصر المبارك والثريا، وانتشرت الحدائق والخضرة، وقد عرف بنو عباد بصفة عامة بعلمهم وأدبهم، واهتمامهم الكبير بالعلماء والأدباء والشعراء، خلال حكمهم لإشبيلية وقرطبة، وطالما أقيمت منافسات للشعراء، وأغدقت الأموال والمكافآت على البارعين منهم..

رعي الجمال لا رعي الخنازير

سنة ٤٦٥هـ أرسل ألفونسو السادس وفدًا إلى إشبيلية يرأسه وزيره اليهودي «ابن شاليب»، حاملًا رسالة يطلب فيها من المعتمد أن يؤدي له الأموال ويزيد الضرائب لترسل له فورًا، كما طلب أن تلد زوجته في جامع قرطبة الأعظم نظرًا لأن القساوسة أشاروا عليها أنّ الوليد سيبلغ شأنًا عظيما إن ولد بأكبر مسجد للمسلمين!

صحيح أنّ ملوك الطوائف في هذه الفترة كانوا قد بلغوا من الذلة و التخاذل مبلغًا لدرجة أن تحالف بعضهم مع النصارى ضد بعض -كما شأن ابن عباد مع قشتالة-، بيد أنّ شيئًا من نخوة ظلت في المعتمد جعلته يستشيط غضبًا على الوزير اليهودي- خاصة وأنّ هذا الأخير أساء الحديث أثناء المفاوضات- فما كان منه إلا أن أرسل جنده فقتلوا كل من كان معه في الوفد إلا ثلاثة رجال ليبلغوا الجواب إلى ألفونسو.

أقسم الملك القشتالي أن ينتقم لما حدث أشد الانتقام فجهز جيشا جرارًا لحصار إشبيلية، وأرسل إلى المعتمد برسالة مستهزئًا جاء فيها: «كثر بطول مقام مجلسي الذباب، واشتد عليّ الحر، فألق إليّ من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي، و أطرد بها الذباب عني». أطرق المعتمد بعض الوقت ثم كتب الجواب الذي لم يتوقعه أحد على ظهر الرسالة «سأنظر لك في مروحة من مراوح اللّمْط، تُرَوِّحُ منك لا تُرَوِّحُ عليك إن شاء الله».

فهم ألفونسو أنّ ابن عباد يهدده بالاستنجاد بالمرابطين في المغرب الأقصى، فقرر الرحيل خوفا من أن تقلب موازين القوى، ثم عقد حلفًا مع ملك أراغون و نافارا، وعادوا إلى القرى ونواحي إشبيلية يعيثون فيها فسادًا. أمام هذا الوضع لم يكن لدى المسلمين خيارات مطروحة أمامهم سوى الاستنجاد بالمرابطين فعلًا، كانت هناك معارضة من بعض معاوني المعتمد ومن ابنه أيضًا، مبررين الأمر بأن السيفين لا يجتمعان في غمد واحد، هنا، قال الملك قولته المشهورة: »تالله إني لأؤثر رعي الجمال لسلطان مراكش، على أن أغدو تابعًا لملك النصارى وأن أؤدي له الجزية، إنَّ رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير».

وذلك ما كان فعلًا، فقد عبر ابن تاشفين مع جيشه إلى الأندلس، وكانت معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م، توجت بانتصار ساحق للمسلمين، وأوقفت زحف الممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية.

وداع الديار

عاد يوسف بن تاشفين للمغرب، محملًا بعبء ما رآه في الأندلس، من تحالفات مع النصارى واللهو والبذخ، فقرر أن يضمَّ إمارات ملوك الطوائف إلى الدولة المرابطية ولو بالقوة، ومن أجل هذا، استفتى أبا حامد الغزالي وعددًا من الفقهاء والعلماء الآخرين. الجدير بالذكر أنّ أغلب مثقّفي الأندلس، كانوا يرجون جواز المرابطين لبلادهم، ذلك أنّ حكامهم عادوا للفرقة والتناحر، ولم يتعظوا بعد الزلاقة.وبهذا جاز ابن تاشفين للأندلس وخلع أمراء الطوائف واحدًا تلو الآخر، بمن فيهم ابن عباد، الذي رفض الانضمام تحت لواء المرابطين واستسلم في النهاية مضطرًا بعد مقاومة منه، وكان ذلك سنة ٤٨٤هـ.بعد سقوط إشبيلية، تمت مصادرة أملاك المعتمد وأمواله، ونُفي إلى المغرب مع أسرته..

غريب في المنفى

حطّ المعتمد وأسرته أول الأمر بمدينة طنجة، حيث مكثوا لفترة وجيزة هناك، التقى فيها بعض شعراء المدينة، ويحكى أنه في طريقه لأغمات تعرض له أبو الحسن الحصرى بشعر يمدحه فيه، فأعطاه ابن عباد ستة وثلاثين مثقالًا لم يكن عنده غيرها، وتسامع الشعراء بذلك، و قصدوه من كل ناحية، فلم يجد غير أبيات يعتذر بها يقول:

شعراء طنجة كلّهم والمغرب
ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير، وإنّه
بسؤالهم لأحقّ، فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخميّة
طيّ الحشا ناغاهم في المطلب
قد كان إن سئل الندى يجزل، وإن
نادى الصريخ ببابه اركب يركب

نقل الملك الأسير بعدها إلى مكناسة، حيث مكث هناك شهورًا، ثم استقر به المطاف في النهاية بأغمات في السجن، وقضى ما تبقى من حياته هناك في ظروف قاسية ومعاملة سيئة، ولا أبلغ من وصف شعره لما حلّ به إذ يقول:

غريب بأرض المغربين أسير
سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهل دمع بينهن غزير

عادت الرميكية لحياة الفقر، وصارت بناتها تغزلن وتبعن في السوق، فأنشد ابن عباد يومًا،وهو يرى بناته بثياب رثة في العيد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعةً

يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً
أبصارهنَّ حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافيةً
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت إساءتُه
فعاد فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلًا
فردّك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملكٍ يُسرّ
به فإنَّما بات في الأحلام مغرورا
يُذكر أنّ عددًا من الشعراء والمقربين منه أيام ملكه، ظلوا يترددون عليه في سجنه، ولعل هذا الشيء الوحيد، الذي ساعد على التخفيف من وطأة الأسر عنه، إلى حد ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جنازة غريب

بعد أربع سنوات من المعاناة في الأسر وقساوة الحياة وافت المنية اعتماد الرميكية، سنة ٤٨٨هـ، ولم تمض شهور بعدها، حتى تُوفي المعتمد كمدًا وحزنًا..

ويقول الفتح بن خاقان، في كتاب القلائد عن أيام المعتمد الأخيرة: «ولم تزل كبده تتوقَّد بالزفرات، وجلده يتردَّد بين النكبات والعثرات، ونفسه تتقسم بالأشجان والحسرات، إلى أن شفته منيته، وجاءته بها أمنيته». توفي الملك أسيرًا يرسف في أغلاله، ونودي في جنازته بالصلاة على الغريب..

شاهدة قبر المعتمد مكتوب عليها أبياته

دفن المعتمد بأغمات يجاوره ابنه وزوجته، وعلى شاهدة قبره نقشت أبياته، التي أوصى بكتابتها، جاء فيها:

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائِحُ الغادي
حَقًّا ظَفِرتَ بِأَشلاء ابن عَبّاد
بِالحِلم بالعِلمِ بِالنُعمى إِذِ اِتَّصلت
بِالخَصبِ إِنَ أَجدَبوا بالري لِلصادي
بالطاعِنِ الضارب الرامي إِذا اِقتَتَلوا
بِالمَوتِ أَحمَرَ بِالضرغم العادي
بالدَهر في نِقَم بِالبَحر فيَ نِعَم
بِالبَدرِ في ظُلَم بِالصَدرِ في النادي
نَعَم هُوَ الحَقُّ وَافاني بِهِ قَدَرٌ
مِنَ السَماءِ فَوافاني لِميعادِ
كَفاكَ فارفُق بِما اِستودِعتَ مِن كَرَمٍ
رَوّاك كُلُّ قَطوبِ البَرق رَعّاد
وَلا تَزالُ صَلاةُ اللهِ دائِمَةً

عَلى دَفينك لا تَحصى بِتعدادِ
من أغمات حيث تلوح جبال الأطلس
يقال أنّ سبب نفي المعتمد إلى أغمات، أنها بعيدة كل البعد عن فردوسه المفقود، فهي تقع وسط المغرب بالقرب من مراكش، كما أنها منطقة أقرب في طبيعتها للأندلس، في الطريق إلى الضريح، تحفك الأشجار من كلا الجهتين، وبساط أخضر على مد البصر، تؤثث المشهد جبال الأطلس الشامخة إذ تدثرت الأبيض.. هل كان نفي الملك إلى مكان أشبه بدياره نعمة يا ترى؟ لا أعتقد ذلك حقًّا.. أتخيله يُصبح ويمسي بالأغلال تجرّه إلى الأرض جرًّا، فيما هو محاط بمناظر،أشبه بتلك التي كان يستمتع بها وهو ملك، ذاك قهر ما بعده قهر..
على أعتاب قبر آخر ملوك الطوائف، تحضرني صورة قصره في إشبيلية بفخامته وعظمته، وتحضرني أبيات نعَتْ هذا الذي يرقد تحت الثرى أمامي:
رُبّ ركب قد أناخوا عيسهم
في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زمانًا عنهم
ثم أبكاهم دمًا حين نطق
للمكان هنا رهبة وسكون آسر، لا تقطعه سوى زقزقات عصافير بين الحين والآخر، لعلها وحدها من ظلت تحمل ريحًا من بلاد أندلس، لقبر الملك الغريب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختراع الدين الإلهي
جودا أكبر بين السينما والتاريخ

بقلم: كريم عبد المجيد

يأخذ الإنتاج السينمائي الهندي المترجم أو المدبلج للعربية حيزًا كبيرًا من الاهتمام في القنوات الفنية التي تهتمّ بعرض الأفلام والمسلسلات الأجنبية، ويتنوع عرض هذا الإنتاج الذي مثّل فيه جانب المسلسلات جزءًا كبيرًا من النتاج المعروض، فحاز المسلسل الدرامي المعروف باسم «جودا أكبر» بأجزائه، وكذلك الفيلم الذي حمل نفس العنوان، وعُرض من سنوات عبر شاشات التلفزيون العربية، على جذب المشاهد العربي، فمن هو جودا أكبر أو «جلال الدين محمد أكبر» حاكم الهند؟ ولماذا يتم تسليط الضوء على شخصيته في الإنتاج التاريخي الهندي أكثر من غيره؟

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على شخصية هذا السلطان، الذي حكم الهند من نسل سلالة إسلامية، اتخذت من شريعة الإسلام هوية وقانونًا، لحكم الأراضي الهندية، رابطًا بين بعض أحداث الفيلم، الذي عُرض على شاشات التلفاز، في نسخة مترجمة وأخرى مدبلجة، وبين التاريخ الحقيقي لهذا السلطان، الذي ترك طريق الإسلام، ليخترع له دينًا جديدًا جعله دين دولته الرسمي.

مولده وحياته

ولد «جلال الدين» [٩٤٩هـ/١٥٤٢م وتوفى ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م] لأب مسلم سني وأم شيعية، ولم يحظ في حياته بتعليم جيد، فكان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، إلا أنه كان يستمع للقصص كثيرًا، ويحفظ أسماء شعراء الإسلام، ويعرف بعض تعاليم الإنجيل والعقائد النصرانية، ومبادئ الهندوسية، والزرادشتية.

وصلت مدة حكم أكبر ٥٠ عامًا تقريبًا، بدأها من عام ١٥٥٦ حتى عام ١٦٠٥ ساهم فيها بنهوض الهند بشكل ضخم، وصُنف من أكبر ملوك الهند وأعاظمها، في تاريخها القديم والحديث.

مر أكبر في حياته الدينية [التي هي محور المقال] بمرحلتين: الأولى مدة عشرين عامًا حتى وصوله سن ٣٢ عامًا في ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤ واتصف سلوكه في هذه المرحلة بكونه سني متمسك بدينه، محافظ على أصول الدين ويؤدي الصلوات الخمس بانتظام في المسجد، يحترم علماء الدين والمتصوفة، ويجلهم ويؤثر صحبتهم، ويقضي معهم الساعات الطوال، وكان يتبرك بشيخ منهم يدعى «سليم بن بهاء الدين السيكوري» حتى سمى ابنه «سليم» على اسم الشيخ. عيَّن أكبر القضاة والمفتين في كل أجزاء مملكته، ليحكموا بالعدل بين الناس بواسطة الشريعة الإسلامية. أما المرحلة الثانية من حياته فانقلب فيها على النقيض من الأولى، فتولى عن تمسكه بدينه، وأخذ ينظر إلى الملل والنحل الكثيرة التي تسكن مملكته، مفكرًا في اختراع دين جديد، يجمع هذه الملل والنحل تحت مظلة واحدة.

سياسته الداخلية وعلاقاته الخارجية بالدول الإسلامية

وقت أن تسلم أكبر الحكم كانت «الهند» في أوضاع سيئة، فالطاعون ضاربها في الأجزاء الشمالية، والإقليم الشمالي الغربي موضع حروب ونزاع، في حين كانت الولايتان الكبيرتان «السند» و«كشمير» في هذه المنطقة الجغرافية، منفصلتين عن حكم «دلهي». استطاع أكبر أن يضم ولايات كثيرة إلى مملكته، مثل «كشمير» و«السند» و«بلوخستان» و«قندهار» و«كابُل»، وأضحت الدولة المغولية في الهند، أكبر دولة في عهده وأقواها وأكثرها ثراء وغنى.

بالإضافة إلى ما سبق، استطاع أكبر ضم ولاية «الگجرات» في غرب البلاد، والتي مكنته من فتح صفحة جديدة في تاريخ دولته، فخراج هذه الولاية الساحلية الثرية، كان يؤَمن لدولة أكبر، نحو خمسة ملايين روبيه في العام، ومن خلال هذه الولاية، بدأ السلطان يتصل اتصالًا مباشرًا بالبرتغاليين عبر موانئها، كما مهدت لضم المملكة الجنوبية المعروفة باسم «ولاية الدكن»، وأضحى غزو «البنغال» في الشرق أمرًا سهلًا.
أما بخصوص علاقاته الخارجية مع الدول الإسلامية الكبيرة، والتي تمثلت في «الدولة العثمانية» و«الدولة الصفوية»، فكانت تتراوح ما بين علاقات طيبة ومتوترة، فعلاقته بالدولة الصفوية كانت علاقة جيدة وحسنة، بسبب الصلة التاريخية بين الدولتين، فقد استنجد جد أكبر «بابُر شاه» مؤسس الدولة المغولية بمؤسس الدولة الصفوية «إسماعيل الصفوي» في حربه ضد «الأوزبك» السُنة فأمده الشاه بجيش صفوي، كما استعان أبوه «هُمايون» بالشاه «طهماسب الأول» ابن الشاه إسماعيل الصفوي واستطاع بمساعدته الرجوع إلى عرش الهند مرة أخرى. اتسمت العلاقات على نفس المنوال بين «طهماسب» وأكبر، فكانت علاقات ود واحترام وتعاون، استقبل خلالها أكبر مبعوث طهماسب بعد جلوسه على العرش، وأنعم عليه بالهدايا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمّا بخصوص العلاقة مع الدولة الإسلامية الأكبر في عهده، وهي «الدولة العثمانية»، فلم تكن على ما يرام، فقد وقف بجانب الصفويين ضد العثمانيين، على الرغم من كون العثمانيين سنة والصفويين شيعة. وفي عام ١٥٨٢ فكر جديًّا في عقد تحالف مع البرتغاليين لمهاجمة العثمانيين، وعندما أتى إليه وفد دبلوماسي من والي «اليمن» العثماني، قام بتقييدهم وعاقبهم، وكان السبب المذكور لأجل ذلك أنهم كانوا مغرورين، وأنهم حاولوا إقناعه بالتحالف بين دولته والدولة العثمانية ضد الإسپان والبرتغاليين فأبى.
اقترح أكبر أيضًا على الأوزبك، أن يتعاون معهم بمساعدة الصفويين، في حملة ضد العثمانيين؛ لأنّ العثمانيين لم يلتزموا بمعاهدتهم مع الدولة الصفوية، وقاموا بحملات ضدها [في عهد السلطان مراد الثالث عام ١٥٧٩ و ١٥٨٨]، لكن سلطان الأوزبك رفض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العلوم والفنون في عهده
على الرغم من كون أكبر أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، إلا أن تمتعه بذكاء كبير وحب للعلماء والشعراء، جعل مجلسه دائمًا يحفل، بالمفكرين والفقهاء والشعراء والأدباء، الذين تجاوز عددهم الثلاثمئة، وقد نشطت حركة التأليف والترجمة بشكل كبير في عهده، وتم نقل الكثير من الكتب إلى الفارسية [لغة الدولة والعلم]، من أشهرها كتاب «حياة الحيوان الكبرى» لكمال الدين الدميري، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي. شهد عهده كذلك ازدهار الفنون، بشكل لم يزدهر مثله في بلاط ملوك الهند المسلمين، خاصة فن التصوير، فقد زيّن جدران قصور مدينته «فتح بورسيكرى» التي أنشأها، برسوم جدارية على أيدي فنانين من الهند وإيران، كما أنشأ معهدًا التحق به حوالي مئة فنان، تحت إشراف المصورين الإيرانيين، وكانت الفنون الهندية في عهده تضارع الفنون الأوروبية، بل وتتفوق عليها في بعض نواحيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سياساته الدينية واختراعه الدين الإلهي

لعل من أهم ما اشتهر به جلال الدين، هو اختراعه لدين سُمي باسم «الدين الإلهي»، الذي هو عبارة عن تجميع لمعتقدات وملل ونحل مختلفة في عقيدة واحدة، وهو أمر بدأ بارتكاز سياساته تجاه رعاياه، على أساس متين من الحبّ والرضاء، بغضّ النظر عن أديانهم أو مذاهبهم، والعمل على توحيد سكان الهند جميعًا مسلمين وهندوس، فعمل على استقطاب «الراجبوت» الذين يكونون الطبقة العسكرية في المجتمع الهندوسي، واتخذ لتحقيق ذلك عدّة وسائل، منها الزواج. فقد تزوج في عام ٩٦٩هـ / ١٥٦٢ من أسرة هندوسية قوية، كانت محور الفيلم الذي تناول سيرته كقصة حبّ رومانسية بينه وبين ابنة هذه الأسرة، دون أن تذكر بأنّ الرجل خان الحبّ الذي جمعه بهذه الأميرة، بالتزوج عليها في عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م من أميرتين هندوسيتين من مدينة «جايسلمير»، ومدينة «بيكانير»، كما قام بتزويج ابنه وولي عهده الأمير «جهانكير» بفتاة هندوسية كذلك. اعتمد أكبر على تعيين الهندوس في أعلى مناصب الدولة الإدارية والمالية، وشكّل الهندوس الراجات نصف قادة الجيش، كما شجّع على إحياء عادات الهندوس وأعرافهم، وكان يختلط بهم ويشايعهم في تقاليدهم وعاداتهم، وألغى ضريبة الجزية المفروضة عليهم، والرسوم المفروضة على زيارتهم لأماكن حجهم، والتي وصل عائدها إلى ملايين الروبيات سنويًّا، وهي نقطة محورية أيضًا في الفيلم، جعلت كاتب السيناريو يذكر، بأنّ الشعب الهندوسي أطلق عليه بسبب هذه الواقعة اسم «أكبر»، إلا أنّ التاريخ يذكر بأنه هو من تسمى بهذا الاسم،متوهمًا العظمة والعلو التي يتصف بها الخالق عز وجل [كما سيأتي ذكره]، ولم يطلق عليه أحد من الشعب الهندوسي هذا الاسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قام السلطان في عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م بإنشاء مؤسسة سماها «دار العبادة»، وهو منتدى للمناقشات والمجادلات الدينية، بين العلماء والفقهاء من السنة والشيعة، كما قام بدعوة «الهندوس» و«النصارى» و«الزرادشت» و«البراهمة» و«اليهود» إلى الاشتراك في المناقشات الدينية، وأمر وزيره بترجمة «الإنجيل» للفارسية، وعَهِد إلى فريق من العلماء لنقل أمهات الكتب الهندوسية، من «السنسكريتية» إلى الفارسية، وبلغ من تلطفه مع الهندوس إلى ارتداء مُسوحهم، وممارسة طقوسهم الدينية، وكفّ عن استخدام الثوم والبصل في أطعمته، وتقديم اللحوم على مائدته.

وفي جمادي الأول عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م انتقل أكبر إلى مرحلة أخرى من حياته، فترأس الصلاة محل الإمام، في جامع «فتح بورسيكرى الكبير»، وبعد أن فرغ من الصلاة قال بصوت جهوري: «الله أكبر» معلنًا مشاركته للطبيعة الإلهية، وأنه معصوم في آرائه وأقواله، ودعا الجميع أن يمتثلوا لأوامره، وإلا خسروا كل ما يملكون، وقد أعلن على الملأ دينه الجديد «الدين الإلهي»، وهو خليط يجمع في أصوله ما بين التوحيد الإسلامي، وفي فروعه على التصوف القائم على الهندوسية والزرادشتية، فهو تصوف فلسفي فيه نوع من الحلولية، من أطاع فيه السلطان ممثل الله على الأرض فقد أطاع الله، ومن عصاه خسر الدنيا والآخرة. شهد العام نفسه انقطاع السلطان عن الزيارة الدورية لأضرحة مشايخ الصوفية، التي كان يزورها سنويًّا، ومنع الأموال التي كانت يرسلها كل عام، إلى أشراف وفقراء الأراضي المقدسة في شبه الجزيرة العربية، وهو أمر لا يُذكر في السياق الدرامي الذي يتناول حياة السلطان العاطفية، فقط ما يُذكر هو إسلامه المتسامح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شَمِل دينه أكبر خليط من المعتقدات المتداخلة، مثل عبادة الشمس عند طلوعها، واحترام النار، وإنكار الجنّ والملائكة، والحشر والنشر، وسائر الغيبيات، وإنكار المعجزات، والتشكيك في النبوات، ودعوة

أتباعه بترك الإسلام، لأنّ واضعيه هم فقراء الأعراب، وقام بتبديل لفظ الشهادة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» إلى: «لا إله إلا الله أكبر خليفة الله»،وكان يسجد للشمس والنار كل سنة يوم النيروز، كذلك قام بمنع تعدد الزوجات. قام كذلك بتغيير التاريخ الهجري المعمول به في الدولة، ووضعَ تاريخًا جديدًا يبدأ من يوم جلوسه على العرش، وسُميت شهور وأعوام هذا التقويم بالشهور والأعوام الإلهية، كما استخف بالعربية وعلوم الفقه والعلوم الدينية، ومنع ذبح الأبقار، اعتقادًا منه بقدسية البقرة كما يفعل الهندوس، وكان لا يصوم رمضان، ويكتفي بركعتي العيد، مع توزيع الصدقات وإعتاق العبيد مقابل عدم صيامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهد عهده أيضًا حركة تنصيرية، قام بها البرتغاليون الذين كانوا يسيطرون على أجزاء من الأراضي الهندية، فتم إرسال البعثات التبشيرية، للتبشير بالنصرانية بين أفراد السكان، فعلم أكبر بالأمر، فطلب بإرسال مبعوث إلى مدينة «گوا»، يطلب إرسال رهبان لشرح الأسس الفلسفية للنصرانية، فتم في عام ٩٨٨هـ /١٥٨٠م إرسال بعثة من المدينة، استقبلها السلطان بكل ترحاب واحترام، وسمح لهم ببناء كنيسة في مدينة «آگره»، وأظهر أعجابه الشديد بصور المسيح والعذراء، ووضع ابنه «مراد» تحت رعايتهما، ليجرب أثر النصرانية على عقل طفل صغير!

أُسست بالفعل أول كنيسة في مدينة «آگره» عام ١٠١١هـ/١٦٠٢م، ورُخص بعدها لبعض الأمراء اليسوعيين، بإنشاء إرساليات تبشيرية في البلاد، كما تم إصدار أمر يجيز للمرسلين التبشير بالإنجيل، وترك أكبر لرعاياه حرية اعتناق النصرانية دون تقييد.

أدت دعوة أكبر لمثل هذه المعتقدات إلى رجّات عنيفة في مملكته، فقد خرجت عليه بعض الولايات، وحاربته باعتباره ملحدًا. مثل «كابُل»، التي عَين عليها حاكمًا هندوسيًّا، وهي أول مرة يعين فيها هندوسي لحكم ولاية إسلامية في الهند، كما عاداه كثير من العلماء وهاجموه، ومن أشهرهم العالِم الكبير الشيخ «أحمد السرهندي»، بالإضافة إلى الشيخ «عبد الله السلفانيوري»، والشيخ «عبد النبي الگنگوهي»، والذين أمر بأن يُنفوا إلى الحجاز، وقد تناول الفيلم في نهايته هذا الأمر بالإشارة، فظهر عالم دين كبير خاطبه السلطان بأمر نفيه إلى مكة، لأنه متعصب، انضم إلى خصم لأكبر يريد انتزاع الحكم منه؛ لأنّ طبيعة هذا العالِم لا تُقدر التسامح، الذي يجب أن يكون عليه المسلمون مع غير المسلمين، والحقيقة أنّ الرجل نفى علماء المسلمين إلى مكة كمن سبق ذكر اسمائهم، لأجل اعتراضهم على اختراعه هذه الوثنيات الجديدة، وجعلها ديانة جديدة لدولته، وليس بسبب تعصبهم وعدم تسامحهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توفى أكبر في ٣٠ جمادي الأول ١٠١٤هـ/١٣ تشرين الأول ١٦٠٥م، على إثر إسهال حاد أصابه، عجز الأطباء عن علاجه، فمات متأثرًا به، ودُفن في ضريحه، الذي بدأ ببنائه في سِكندرا بمدينة «آگرا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطباء أسرة ابن زهر

بقلم: مريم المير

عائلة ابن زهر، هي إحدى العائلات المخضرمة التي اشتهرت بالطب في مدينة إشبيلية بالأندلس، وعرف رجالها ونساؤها بصُناع الطب في الفترة بين القرن الحادي عشر والثالث عشر ميلادي، وقد خدمت الدولتين المرابطية والموحدية، ولم تميز هذه العائلة بين ذكورها وإناثها، وتتلمذ أفراد هذه العائلة إناثا وذكورًا على يد الطبيب المشهور ابن زهر، الذي استفاد أيضًا من تجاربه ثلة من الأطباء الآخرين. فلا يمكن فصل الطب خلال ثلاثة قرون عن هذه العائلة بذكورها وإناثها، كما لا يمكن فصل المغرب عن الأندلس.

وإليكم بعضًا من أفراد العائلة الذين لمعت أسماؤهم في مجال الطب:

أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر؛

كعادة علماء الأندلس في السعي لنيل العلوم والاستزادة من المعارف، فقد شد رحاله إلى المشرق، فدخل القيروان ثم مصر وغيرها من أقطار المشرق، وتولى رئاسة الطب في بغداد،قبل أن يعود إلى وطنه ومسقط رأسه دانية، بلغت أخبار مهارته وسعة علمه مسامع الأمير مجاهد العامري ملك دانية، فسر لقدوم أبي مروان، واستدعاه إلى بلاطه، وبالغ في الاحتفاء به وإكرامه، وأحله مكانة عالية.

اشتهر عبد الملك بصناعة الطب في دانية، ومنها انتشر ذكره إلى أقطار الأندلس، وبعد مدة رحل إلى مدينة إشبيلية، وظل يعمل هناك حتى توفي سنة (٤٧٠ هـ/ ١٠٧٨م).

أبو العلاء بن زهر المشهور عند الغربيين باسم (Avenzoar)

هو أبو العلاء بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان، فيلسوف طبيب أندلسي من أهل إشبيلية، نشأ في شرق الأندلس وسكن قرطبة. يُعدّ ثالث سلالة الأطباء الإشبيليين المنحدرين من القبيلة العربية إياد.

اشتغل أبو العلاء وهو صغير بصناعة الطب، في أيام المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن عباد صاحب إشبيلية، كما اشتغل بعلم الأدب.

كان ابن زهر في دولة المرابطين، فحظي في أيامهم ونال المنزلة الرفيعة والذكر الجميل، وقد عرف بعلاجاته المختارة التي دلت على قوته في صناعة الطب، واطلاعه على دقائقها، وكانت له نوادر في مداواة المرضى، ومعرفة أحوالهم وما يجدون من ألم عندما يجسّ نبضهم.

توفي سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) في قرطبة، ثم حُمل إلى إشبيلية.

أبو بكر بن زهر بن أبي مروان

ولد بمدينة إشبيلية ونشأ فيها، أخذ صناعة الطب عن والده، وباشر أعمالها.

كان حافظًا للقرآن، وسمع الحديث واشتغل بالأدب، وله موشحات مشهورة تُغنّى. لم يكن في زمانه أعلم منه، في معرفة اللغة وصناعة الطب.

خدم الحفيد ابن زهر دولتين، ذلك أنه لحق بدولة المرابطين، واستمر في الخدمة في آخر دولتهم، ثم خدم دولة الموحدين.

ومنها:

أيها الساقي إليك المشتكى

قد دعوناك وإن لم تسمع

وتجدر الإشارة إلى أنه توفي مسمومًا سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م، وأورد ابن أصيبعة في عيون الأنباء؛ «أنّأبا زيد عبد الرحمن بن يوجان، كان يعادي الحفيد ويحسده لما يرى من عظم حاله، وعلو منزلته وعلمه، فاحتال عليه في سم، صيّره مع أحد العاملين عند الحفيد ابن زهر، فقدّمه إلى الحفيد في بيض، وكانت معه بنت أخته، فلما أكلا منه ماتا، ولم ينفع علاج».

وقد أخبر الأستاذ عبد الهادي التازي: بأنّ الطبيب ابن زهر الحفيد دفن في روضة الأمراء، في حين لم يذكر أين دفنت الطبيبة ابنة أخته، بل تعجب لعدم معرفة قبرها إلى الآن، وأضاف: «كنت أتصور أني سأقف على الأبيات الشعرية التي أوصى الحفيد أن تُنقش على قبره، والتي يقول فيها على ما يرويه ابن خلكان:

تأمل بحقـــــك يا واقفًا

ولاحظ مكانًا دفعنا إليه

تراب الضريح على وجنتي

كأني لم أمش يومًا عليه

أدواي الأنام حذار المنون

وها أنا ذا قد صرت رهنًا لديه»

طبيبات ابن زهر

لم تقتصر نوابغ هذه الأسرة، وما قدموا للطب من إسهامات جليلة، على الرجال فحسب، بل كان لنسائها أيضًا دور فعال، فلقد خرّجت هذه العائلة طبيبتين، ذاع صيتهما في الأرجاء..

أم عمر

أشهر طبيبة للقصر الموحدي، لا يُعلم اسمها، ولقبها «أم عمر بنت الطبيب عبد الملك المعروف بأبي مروان»، وأخت الطبيب أبي بكر الملقب بالحفيدات.

ترعرعت أم عمر بين صفحات كتب أبيها، ونشأت بين أحضان الأسرة التي توارثت وتشعبت في الأمور الطبية في البيت بحضور الجد والأب والابن، فلا عجب أن تتعلم المهنة من أبيها، كما تعلمها ابنه أبوبكر الطبيب الحفيد.

حظيت بمكانة متميزة عند أمراء الموحدين، فكانت تزور قصورهم، وتنظر في علاج مرضى نسائهم وأطفالهم، وقد تستفتى في الطب لرجالهم، و قد عملت إلى جانب أخيها في دار المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف الموحدي، وكانت عالمة بصناعة الطب والمداواة، ولها خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء كما سلف ذكره، فكانت تداوي نساء القصر وأطفاله، ولم يكن يقبل بقابلة غيرها لنسائه..

لم نستطع إيجاد معلومات أكثر عن حياتها مع الأسف، غير كونها طبيبة البلاط الموحدي، ولها بنت تدعى فاطمة وابن يدعى عمرو، كما أنّ تاريخ وفاتها مجهول أيضًا.

فاطمة

هي ابنة الطبيبة السابقة الذكر، وحفيدة ابن زهر، تعلمت الطب من أمها وخالها ابن الحفيد، فصارت لها خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء، رافقت أمها منذ صغرها، وكانت تدخل معها إلى نساء المنصور الموحدي، ثم خلفت مكانها بعد وفاتها، وقد حظيت الطبيبة بعناية خالها، حيث كانت تلازمه في البلاط والمنزل، ولاشك أنها أخذت منه الشيء الكثير، وقرأت كتبه القيمة واتبعت توجيهاته.

و توفيت فاطمة في نفس الوقت مع خالها الحفيد ابن زهر، بعد تناولها للسم كما سلف ذكره.
كانت لـ «ابنتي زهر» رئاسة الطب النسائي داخل القصر الملكي، وهذا يشير إلى ارتقاء شأن الطب والطبيبات في هذا العصر وما صاحبه من كثرة المؤلفات الطبية. لقد خلد التاريخ اسم ابن زهر، واستمرت عطاءات العائلة في مختلف الأزمنة رغم الصراعات السياسية التي عاصروها، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على أنّ اهتمام السلاطين بالعلم والعلماء، لم يكن يتوقف تحت أي ظرف كان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملامح من حياة السلطان عبد الحميد

بقلم: نهى عودة

لا شك أنّ السيرة الشخصية للسلطان العثماني الأكثر إثارة للجدل عبد الحميد الثاني، هي سيرة جديرة بإلقاء الضوء عليها، لا سيما أنه منذ تم خلعه عن عرش سلطنة الدولة العثمانية، والمنطقة برمتها فوق لهيب مستعر، لا تزال أدخنته المتصاعدة مستمرة حتى يومنا هذا. لقد مُنيت الأيام التي قضاها السلطان عبد الحميد خلال فترة سلطنته، بضربات قاصمة ومتتابعة من الداخل والخارج على حد سواء، لقبه كارهوه بحميد البخيل والسلطان الأحمر والسلطان الظالم وغير ذلك؛ بيد أننا كلما تعمقنا في الوثائق والأرشيفيات التي تتحدث عن هذه الفترة، بدا لنا جليًّا كيف أنه كان يسبح منفردًا ضد التيار، محاولًا إصلاح سفينته العملاقة في عرض البحر، على أمل استعادة مجد دولته، مجابهًا كل تلك القوى الطامعة التى عقدت العزم مجتمعة على إسقاطها.

وبينما تمر علينا في هذه الآونة الذكرى المئوية لوفاته، تكثر الأحاديث عنه وعن الأحداث الحزينة التي عاصرت فترة حكمه، وننقسم كعادتنا ما بين فريق المادحين المؤيدين له ولإنجازاته، وفريق النقاد الساخطين عليه وعلى أفعاله، نولي هنا اهتمامًا يبدو مختلفًا لحياته الخاصة واهتماماته وعاداته الشخصية، بعيدًا عن الصورة النمطية الرائجة في كتب التاريخ، والتي تتعمد في أغلب الأحيان إقصاء الجوانب الإنسانية وتهميشها، عسى أن نستطيع من خلالها التعرف أكثر إلى هذا السلطان الغامض..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد الحميد الابن الثاني للسيدة «تير مجكان» التي تنحدر من أصول شركسية قوقازية، وهو أيضًا الابن الثاني لوالده السلطان عبد المجيد، وقد أقيمت المراسم والاحتفالات عند ولادته، وبموجب مرسوم سلطاني، كانت تُطلق المدافع خمس مرات يوميًّا ولمدة أسبوع كامل، احتفاءً بقدوم الأمير الصغير، وأضيئت المصابيح أمام المنازل وعُلقت الزينة. لكن هذه الأفراح لم تدم طويلًا، فقد خلّفت وفاة والدته بداء السل، وهو في الحادية عشر من عمره، أثرًا كبيرًا لم يكن ليُمحى من ذاكرته، وقد دفعه حزنه الشديد إلى الانطواء والعزلة. ولأنه نفس المرض الذي أودى أيضًا بحياة والده «عبد المجيد» وجدّه «محمود الثاني»؛ كان يصاحبه خوف دائم من أن يلقى نفس المصير، فكان حريصًا على تواجد الأطباء في القصر، وكان يفضل تناول الأدوية والعقاقير الطبيعية الوقائية باستمرار، حتى أصبحت لديه معرفة طبية كبيرة، عن طريقة المداواة بالأعشاب للأمراض المختلفة والوقاية منها. وعندما شعر أبوه عبد المجيد بأنّ ولده بحاجة إلى اهتمام ورعاية خاصة، عهد بتربيته إلى زوجته «برستو قادين»، وكانت غير قادرة على الإنجاب، مما جعلها تغمره عطفًا وحنانًا بمشاعر أمومة صادقة. وبالمثل كان عبد الحميد يقدرها ويحترمها كثيرًا، وجعلها تتمتع بكل حقوق وصلاحيات ومكانة السلطانة الوالدة في القصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد تلقى الأمير عبد الحميد الثاني منذ حداثة سنه مختلف أنواع العلوم، فتعلم اللغة العربية والفارسية والفرنسية والتاريخ العثماني والفنون المختلفة والعلوم الدينية، والفقه الإسلامي وعلم الحديث والتفسير. وقد ساعد على استيعابه لكل هذه العلوم تمتعه بالذكاء وحبه للاطلاع، مما جعله في فترة

قصيرة فصيحًا طليق اللسان، ذا أفق واسع وثقافة عالية وعلم غزير. وقد كان لعبد الحميد الثاني عدة هوايات خلال سنوات إمارته، كالفروسية والسباحة والرماية والقراءة، وكان يشرع يوميًّا في البحر على متن مركب شراعي، وكانت تربية الحيوانات والاعتناء بها تعني له الكثير، كالببغاوات وطيور الكناريا والحمام والقطط والكلاب والدواجن وغير ذلك، إلا أنّ تربية الخيول قد شغلت الجانب الأكبر من رعايته، وقد اهتم بسباقات الخيل اهتمامًا كبيرًا، وكان مهتمًا بأن يطلق على كل من هذه الحيوانات اسمًا خاصًا وبخاصة المميزين، من بينهم حصانه المفضل «فرحان»، وقطه «باموق» بالمعنى الحرفي «القطن». ولم يكن من الممكن توقع أعداد هذه الحيوانات أو أنواعها المختلفة، التي جلبها من مختلف البلدان، حتى أصبحت حديقة قصر يلدز أشبه بمحمية طبيعية، وقد وفر لهذه الحيوانات ما يناسبها من مربين، وحظيت الأشجار والأزهار والورود بنفس القدرٍ من الاهتمام لدى عبد الحميد الثاني، فجلب أنواعًا نادرة من الزهور وفسائل الورود، وأظهر رعايةً خاصة لتنسيق الحدائق، بشكل علمي معاصر وبأحدث التقنيات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لدى السلطان بعض المهارات التي أظهر فيها قدرة عجيبة على الدقة والتحكم، فقد أسس متحفًا صغيرًا في قصر يلدز للأسلحة القيمة، لكن ما يثير الاهتمام هنا أنه كان قادرًا على كتابة اسمه بالطلقات، وكان يمكنه أن يثقب ميدالية تُقذف في الهواء بمهارة دون أن يخطئها. أما موهبته الفذة فقد انصبت في أعمال النجارة بكافة فروعها، كالحفر والتزيين والتطعيم بالصدف والعاج، وكان له ورشة نجارة خاصة. ويجمع المؤرخون أنه لو لم يكن سلطانًا، لكان قد جمع ثروة كبيرة من ممارسة حرفته فقط، فتصميماته لم يكن لها مثيل، وقصور ومتاحف اسطنبول تعجّ بنماذج معروضة من أعمال يديه. و لم يكن يعرف التكبر أو العنصرية في عمله هذا فقد عمل في ورشته روميّان (ميخائيل رفتاكيس) و(ستاماتيس فولغاريس)، وبعد أن تركا القصر فتحا دكانًا في اسطنبول، وكانا كثيري التباهي كون السلطان عبد الحميد مَن علمهما المهنة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتدفعنا عدد الساعات المبالغ فيه في قصر يلدز، وكذا أبراج الساعات الكثيرة في ساحات المدن المختلفة، والتي تنسب إلى فترة السلطان عبد الحميد، إلى معرفة ولعه الشديد بالساعات، وقد كان ينخرط لساعات طويلة بعد نفيه، في إصلاح بعض الساعات المتعطلة. أما القراءة فقد شكلت جزءًا لا يتجزأ، من البرنامج اليومي للسلطان عبد الحميد الثاني، وكان شديد الفخر بمكتبته التي تضم عشرة آلاف عمل، ويظهر حرصه وتعلقه الشديد بهذه الأعمال، عندما طلب منه صديقه الامبراطور الألماني فيلهلم الثاني، مخطوطًا نادرًا عن أمراض العين، فلم يُرسل له النسخة الأصلية، وإنما كلف أحد الخطاطين بترجمته ونسخه، وأهداه للامبراطور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمكننا القول ببساطة أنّ عبد الحميد الثاني لم يكن سلطانًا متوقعًا، بل قاده القدر ليتبوأ هذه المكانة، ولذلك كان الأكثر تواضعًا والأقل تفاخرًا بين جميع السلاطين العثمانيين، وقد اتسم بالبساطة في ملبسه وطريقة حياته، وحتى في تناوله كميات قليلة من الطعام، ولذلك فقد حافظ على لياقته حتى مماته. وكانت حياته بسيطة إلى أبعد الحدود حيث خفض إنفاق القصر، واختصر قائمة الطعام في القصر، وخفض عدد موظفيه، وبسبب حياته المقتصدة هذه لقبّه كارهوه بـ»حميد البخيل». وكان عبد الحميد عطوفًا حنونًا طيب القلب شديد التأثر بما يدور حوله من مواقف، فكان والده يطلق عليه لقب

«الابن الرقيق». أما مظهره الخارجي فكان رشيق الجسم طويل القامة ومحني الظهر قليلًا ذا لحية خرنوبية داكنة، وله عينان لامعتان ثاقبتان. أما صفاته الشخصية فكان -بخلاف شقيقه الأكبر مراد الخامس المحب لحياة اللهو والبذخ- يبدو منعزلًا بعيدًا عن المشهد الإجتماعي، وعن حياة القصر الصاخبة، وكان متواضعًا يحمل قلبه كثيرًا من اللفتات العاطفية الحانية، فكان يقوم بزيارة الجنود في ثكناتهم، والبحارة في ورش بناء السفن، ويتناول معهم الطعام، حريصًا على الصلاة في مساجد مختلفة مع العامة، وكان يتردد على المستشفيات لزيارة المحاربين القدامى والمصابين في حروب البلقان، وكان حريصًا على أن يمنح الذين فقدوا منهم سيقانهم عصيًّا خشبية يستندون عليها، صنعها بيده شخصيًّا.

أما أخلاقه فقد كان يلزم نفسه بالسلوك الرفيع المتوقع من خليفة مثله، حيث كان مسلمًا ملتزمًا بعيدًا عن حياة الفسق والمجون، حريصًا على أداء العبادات وأعمال الخير. ويتضح من صوره القليلة أنه كان ذا وجه يحمل ملامح الطيبة دائم الابتسام، وينقل معاصروه أنه كان ذا ذاكرة مدهشة، ذكيًّا عميق التأثير، مسيطرًا بثقافته الواسعة وفصاحة لسانه، ولديه قدرة كبيرة على التنبؤ بالأفكار والآراء التي يحملها محدثوه من تعابير وجوههم ولغة أجسادهم، وكان دائم الدعاء والتضرع إلى الله. وقد كان آخر ما تفوهت به شفتاه: «يا الله» ثم هوت رأسه وانتقلت روحه إلى بارئها. ويبدو أنه كان يشعر بقرب ساعته ففي صبيحة يوم وفاته ١٠ فبراير ١٩١٨م لفت انتباه زوجته العرق الذي يتصبب منه على غير عادته، فلما أشارت إليه قلقة: «أنت تتصبب عرقًا يا سيدي»! فأجابها: «هذا عرق الأجل يا سيدتي». وما من شك بأنّ جنازة السلطان المهيبة وسط جموع الشعب الغفيرة، والتي حرص على حضورها معارضوه قبل محبيه، وهم يذرفون دموع الحسرة والنّدم على فراقه، لهي أفضل رسالة تعكس مدى الظلم والتشويه، الذي تعرّض له عبد الحميد الثاني رحمه الله، لتنطوي بوفاته صفحة، من أكثر صفحات التاريخ العثماني حزنًا وألمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدن عثمانية
مصر العثمانية

بقلم: كريم عبد المجيد

للمدن العربية تحت الحكم العثماني تاريخٌ كبير من التطور والنمو، امتد منذ القرن السادس عشر وصولًا إلى القرن العشرين، مع فقد الدولة آخر مدينة عربية تحت إدارتها وحكمها، على إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، وقد شمل هذا التطور الجانب العمراني، الذي ساهمت السياسات العثمانية فيه بشكل مباشر وغير مباشر، مما جعلنا نتسلم هذه المدن مطلع القرن الماضي، بشكل ومساحة مضاعفة عما كانت عليه، نتيجة لهذا التطور الذي شهدته في القرون المذكورة.

وقد عملت سياسات الإدارة العثمانية على خلق مناخ عمراني في الأقطار العربية، خاصة في القرن السادس عش،ر فترة التأسيس للحكم العثماني داخل هذه الأقطار، وذلك إما بتوجيهات الولاة للتعمير والبناء، أو بتسهيل حركة التبادل التجاري بين هذه الأقطار والعالم الأوروبي، أو بين الولايات بعضها البعض، مما خلق بيئة اقتصادية مستقرة ومزدهرة، ساعدت على البناء والتشييد، ويتناول هذا المقال الحديث عن لمحات، من تطور ثلاث مدن رئيسة في مصر العثمانية، منذ القرن السادس عشر وصولًا إلى نهاية الثامن عشر، حسب المعلومات والبيانات المتوفرة لكل مدينة، وهو جانب بحاجة لمزيد من الأبحاث والدراسات، التي تغطي فترة تكتظ بالمادة الأرشيفية، المحفوظة لدينا بداخل أرشيفات المحاكم الشرعية للدولة.

القاهرة

شهدت القاهرةُ تطورًا عمرانيًّا كبيرًا، في الفترة التي تقع ما بين الضم العثماني لها عام ١٥١٧، حتى مجيء الفرنسيين عام ١٧٩٨، فقد سجّلت لنا كتبُ التراجم والرحلات، أسماء ولاةٍ ساهموا في هذا التعمير، عبر تشييدهم للأوقاف في مناطق مختلفة بالمدينة، مثل الوالي «سليمان باشا الوزير»، والوالي «سنان باشا»، والوالي «أحمد باشا الخادم» في القرن السادس عشر، والرحلات التي قام بها الرحالة المسلمون إلى مصر والقاهرة، مثل رحلة «محب الدين الحموي» في نفس القرن، بالإضافة إلى قيام أهل القاهرة أنفسهم، بتشييد عمائر جديدة على مر القرون العثمانية، ونجد أنّ عمران المدينة قد زاد بشكل كبير، طوال الفترة المذكورة، فيذكر «أندريه ريمون» في كتابه «المدن العربية الكبرى» أنّ المساحة المبنية للقاهرة المملوكية، لم تزد بحال من الأحوال عن أربعمئة وخمسين هكتارًا، بينما بلغت هذه المساحة في عام ١٧٩٨م، (نقلاً عن خرائط وصف مصر للحملة الفرنسية) ستمئة هكتار؛ أي زاد حجم عمران المدينة أكثر من ٥٠٪، مما كانت عليه قبل الدخول العثماني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما إذا أردنا ذكر هذا التوسع بالأرقام، فلدينا إحصائية تشير إلى استحداث مئة وواحد وأربعين مسجدًا ومدرسة وزاوية، في الفترة من ١٥١٧م حتى ١٨٠٥م، كما أنّ لدينا أرقامًا خاصة للمنشآت التجارية والاقتصادية، دون المنشآت الأخرى من أسبلة وصهاريج ومساجد وزوايا، تساعدنا على فهم التوسع العمراني والاقتصادي للمدينة في القرن العثماني الأول. فمنذ ضم القاهرة في ١٥١٧ حتى العام ١٦٠٠، ارتفع عدد حمامات المدينة من أربعة وأربعين إلى خمسة وسبعين حمامًا، كما زاد عدد المدارس من ثلاث وسبعين إلى خمس وتسعين مدرسة، والوكالات التجارية من ثلاث إلى مئة

وأربع، والخانات من أحد عشر إلى ثمان وعشرين خانًا، وتراجع عدد القيساريات (الأسواق) من سبع وثلاثين إلى أربع عشرة فقط، فزادت درجة نمو بعض المناطق الاقتصادية إلى ١٠٠٪ في هذه الفترة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما قاهرة القرن السابع عشر فنجد لها وصفًا مفعمًا بالحركة، مليئًا بالتكايا والقصور والجوامع والمدارس والحمامات، والعمائر الفخمة والحدائق والبرك والأسبلة، في رحلة الرحالة العثماني الشهير «أوليا چلبي»، المعروفة بعنوان: «الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٦٧٢-١٦٨٠)»، [وهو المجلد العاشر من رحلته التي زادت عن أربعة عقود في أقطار الدولة العثمانية وخارجها]، فيصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعمران القاهرة بشكل موسع، ونجده في العديد من المواضع، يقارن عمائر القاهرة بالعمائر الكبيرة للعاصمة اسطنبول، فيأتي ذكره على الأزهر الشريف وعظمته، والمشفى القلاووني الضخم الذي لا نظير له في بلاد الإسلام، الحاوي بداخله على قسم لإنتاج الدواء يُرسل منه إلى أوروپا واسطنبول. أضف إلى ما سبق أنّ منطقة «الأزبكية» الشهيرة بقلب القاهرة، قد شهدت محاولات تعمير ناجحة، تفوقت على المحاولات التي تمت في العهد المملوكي، وأصبحت في العهد العثماني من أجمل وأرقى أحياء القاهرة.

الإسكندرية

«فلمّا وصل إلى مصر شرع في تعمير البلاد وتأمين العباد... وإكرام العلماء والإحسان إليهم... وأنشأ عمارة جليلة حسنة، وأبنية عالية نفيسة وقفها في وجوه الخيرات، ومن محاسن آثاره حفر الخليج الذاهب إلى الإسكندرية، قطعَه وعمّره فعاد على أحسن ما يكون، وعمّر الثغر السكندري ومسجدًا وسوقًا.»

البكري الصدّيقي في ترجمته للوالي العثماني «سنان باشا (١٥٧١-١٥٧٢)»،

مدينة الإسكندرية كما رسمها الجغرافي العثماني الكبير «پيري ريس»، في أوائل القرن السادس عشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتخذت الإسكندرية موقعًا متميزًا على البحر المتوسط، مكّنها من الحفاظ على موقعها الهام طوال عصور متعاقبة، وقد حازت المدينة على أهمية خاصة فترة الحكم العثماني؛ فهي محور من محاور سياسة الدولة الشرقية، طوال القرن السادس عشر، ومدينة يقيم فيها عدد كبير من الجاليات الأجنبية، ومقر لممثلي الدول الأوروپية في ولاية مصر، بعد أن استطاعت الإدارة العثمانية، أن تستعيد مكانة المدينة اقتصاديًّا وعسكريًّا وسياسيًّا، وحولتها إلى واحدة من أهم المراكز التجارية في الدولة، بعد تعرضها في فترات الحكم المملوكي الأخيرة، إلى تدهور وخلل كبير.

وعملت اسطنبول على الاهتمام بالمدينة، منذ أن زارها السلطان «سليم الأول» بعد دخوله القاهرة عام ١٥١٧، وقد تم الأمر بشكل مُمنهج عبر مجموعة من الخطوات، التي انتقلت بالمدينة إلى مرحلة جديدة من الازدهار التجاري، بعدما تأثرت بشدة بعد اكتشاف طريق «رأس الرجاء الصالح»، فقامت الدولة بعقد معاهدات تجارية مع بعض الدول الأوروپية، وعملها على إحياء الطريق التجاري عبر السويس والإسكندرية، الأمر الذي ساعد على عودة المدينة لحيويتها، منذ منتصف القرن السادس عشر، كما أنّ «قانون نامه مصر»، الذي وضعته الدولة لتنظيم شؤون الولاية من جميع الجوانب، قد

شمل في جزئه المالي قوانين، ساعدت على حماية موارد الإسكندرية المالية، من الفساد الذي من الممكن أن يتطرق إليها، نظرًا لأهمية المدينة بالنسبة للدولة.
أما عن عمران المدينة وعمائرها، فللوقف فيه الدور الرئيس والركن الأساسي، لتنمية المدينة وتوسعتها. [وهو الدور الذي لعبه في الحفاظ على ازدهار الحضارة الإسلامية عامة]، وتحتوي سجلات المحاكم الشرعية في مصر العثمانية، على كميات ضخمة من وثائق الوقف، التي تغطي جميع مناحي الحياة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية، التي كانت تُنظر في المحاكم الشرعية، ومنها وثائق الوقف التي تخصّ الإسكندرية، والتي ساعدتنا على معرفة تطور الرقعة العمرانية للمدينة، فترة الحكم العثماني، وتحويل الخرب فيها والخالي إلى مناطق، تكثر فيها العمائر والمرافق الخدمية، كما تساعدنا هذه الوثائق بشكل أساسي، على إعادة رسم خريطة كاملة وتفصيلية، للبيئة العُمرانية المندثرة في المدينة، باختلاف أنواع المباني وتنوعها، سواءً بوصفها داخليًّا أم خارجيًّا.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
وانقسمت الإسكندرية في العهد العثماني إلى جزء داخل سور المدينة ويعرف «بالثغر»، وجزء خارج السور ويعرف باسم «الجزيرة الخضراء»، وهو الجزء الذي شهد محاولات بسيطة للتعمير قبل العهد العثماني، إلا أنّ تعميره الكبير بناءً على ازدياد عدد سكانه، هو الذي بلور شكله، وجعله يتخذ موقعًا واضحًا من المدينة، في الفترة من القرن السادس عشر حتى نهاية الثامن عشر؛ فقد انتشرت في هذه الفترة فيما خارج سور المدينة وداخله، المؤسسات التي أعطت للمدينة شكلًا أوسع، ولدينا بعض الأرقام التي تحصي هذا التوسع، في الفترة بين القرن السادس عشر وستينيات القرن السابع عشر، فتم استحداث خمس وثلاثين مدرسة جديدة بالمدينة، بالإضافة إلى أربعة عشر جامعًا، وخمس عشرة زاوية، وست تكايا، وعشرين سبيلاً.
رشيد
تقع رشيد شرق الإسكندرية على مسافة -٦٥ كم تقريبًا-، وهي من أهم وأغنى الثغور المصرية، التي حازت اهتمامًا كبيرًا وخاصًا في العهد العثماني، الأمر الذي جعلها مزدهرة اقتصاديًّا وعمرانيًّا طوال ذلك العصر، والذي نستطيع أن ندلل عليه، بمجموعات هائلة من الوثائق، المحفوظة في أرشيفات محاكم مصر الشرعية، والتي تغطي الحالة العمرانية والاجتماعية والتجارية للمدينة، فترة الحكم العثماني، والتي تساعدنا بسبب وفرتها ودقتها الكبيرة، على وصف أماكن العمائر التي اندثرت بمرور الزمن، وأن نقوم برسم دقيق للمدينة في هذه المرحلة.
وتشير الأبحاث إلى أنّ مساحة المدينة في بدايات الحكم العثماني لها، لم تتجاوز عدد خمسة وأربعين فدانًا، ومنذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، تطورت هذه المساحة وزادت، لتصل في القرن السابع عشر إلى خمسة وخمسين فدانًا؛ لتقفز في نهاية القرن الثامن عشر إلى خمسة وثمانين فدانًا؛ أي أنّ المدينة قد ازدادت مساحتها إلى ما يقارب ضعف مساحتها، عن بداية الحكم العثماني، ويرجع السبب في هذا العمران إلى ازدياد حجم السكان في المدينة، سواء من أهلها أم من الأجانب المقيمين فيها، بسبب الحركة التجارية الكبيرة الموجودة بها، مما أدى إلى استحداث مؤسسات جديدة بأنواع مختلفة، لخدمة أهل المدينة، مع ازدياد أعداد هذه المؤسسات بمرور القرون.
أما عن شكل المدينة وعمرانها في العهد العثماني، فللرحالة الأجانب الذين زاروها في القرن السادس عشر والسابع عشر وصف لها، من حيث اتساعها وعمائرها وحجم التجارة الموجودة بها، وهي شهادة تضاف إلى ما لدينا من وثائق، عن الحالة العمرانية المتزايدة للمدينة في هذه القرون، والتي

ساهم في تنميتها الولاة العثمانيون والأهالي، ولإحصاء سريع لعدد العمائر الجديدة في القرون الثلاثة الأولى، بناء على ما توصلت إليه [وهي أرقام قابلة للزيادة بمزيد من البحث]،يتضح أنه تم استحداث سبعة مساجد وجوامع بالمدينة، نجد لها ذكرًا مُفصلاً في وثائق الأوقاف الموجودة لدينا، منها جامع يُعرف باسم «جامع زغلول» أو «الجامع الكبير»، ما زال باقيًا إلى الآن وهو من رموز المدينة، وهو جامع تم استحداثه على الأغلب في القرن السادس عشر، أو ربما في الفترة المملوكية المتأخرة، وتم إضافة جزء آخر إليه في القرن السابع عشر، لتفوق مساحته مساحة «الأزهر الشريف» في القاهرة آنذاك، كما نجد عدد الوكالات التجارية التي تتنوع بضائعها، والتي وصلت إلى أربع عشرة وكالة جديدة، منها وكالة وقف الوالي «سليمان پاشا الخادم» عام ١٥٣٠، ووكالة وقيسارية الوزير «علي پاشا» والي مصر عام ١٥٤٩، كما نجد سبعة حمّامات عامة بالمدينة، ومستشفى واحدة كانت قائمة من العصر المملوكي، ولكنها قد اندثرت وخرجت عن الخدمة فتم إعادة افتتاحها للعمل مرة أخرة عام ١٥٨٩.

أما عن أنواع العمائر الأخرى، فنجد أن المدينة كانت ممتلئة بالصهاريج والمَعاصر والطواحين، وكانت أسواق الحرفيين والتجار فيها بالعشرات، وكَثُرت بها الزوايا، وتعددت بها خانات إيواء المسافرين، وهي بشكل عام بحاجة إلى مزيد من البحث؛ ليخرج إلينا مزيد من المعلومات، التي نقفُ فيها بشكل أكثر دقة وتفصيلًا، على حالة المدينة حتى نهاية القرن الثامن عشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القاهرة

بقلم: كريم عبد المجيد

كانت طلقات البنادق وقذائف المدافع العثمانية بقيادة السلطان «سليم الأول»، وهزيمة المماليك أمامه في «معركة الريدانية» عام ١٥١٧م، بمثابة إعلان انضمام «القاهرة» إلى قائمة المدن الرئيسة، التي حظيت بالاهتمام والرعاية والاحترام الكبير من الإدارة العثمانية الجديدة، التي تبسط سيطرتها على أراضٍ من شمال أفريقيا وآسيا وجنوب شرق أوروبا، ولتصبح القاهرة المدينة الثانية في الدولة سياسيًّا وحضاريًّا، بعد العاصمة اسطنبول، ومركزًا دينيًّا وتعليميًّا كبيرًا بوجود الجامع الأزهر بها، ينطلق منها «المحمل» الذي يحمل كسوة «الكعبة»، وقافلة «الحج المصري» المشهودة، التي تضم حجيج مصر وشمال أفريقيا، كما صار واليها يشغل مركزًا من أعلى المراكز في السُلم الإداري العثماني، فمن الولاة من تولوا مناصب وزارية كبيرة قبل توليه منصب والي القاهرة، ومنهم من أصبحوا من كبار الوزراء بعد توليهم المنصب.

عمران القاهرة العثمانية

شهدت القاهرة تطورًا عمرانيًّا كبيرًا، خلال القرون الثلاثة الأولى من العهد العثماني، حتى تولية محمد علي باشا الحكم. فبسبب أوامر الولاة العثمانيين بتعمير المناطق الخربة، وتشييدهم للأوقاف في مناطق مختلفة بالمدينة، بالإضافة إلى قيام أهل القاهرة أنفسهم بتشييد عمائر جديدة، نجد أنّ عمران المدينة قد زاد بشكل كبير، فيذكر «أندريه ريمون» في كتابه «المدن العربية الكبرى» أن المساحة المبنية في القاهرة المملوكية لم تزد بحال من الأحوال عن أربعمائة وخمسين هكتارًا، بينما بلغت هذه المساحة في عام ١٧٩٨م (نقلاً عن خرائط وصف مصر للحملة الفرنسية) ستمئة هكتار؛ أي زاد حجم المساحة العمرانية للمدينة حوالي ٥٠٪ مما كانت عليه قبل الدخول العثماني.

أما إذا أردنا ذكر هذا التوسع بالأرقام فلدينا إحصائية تشير إلى استحداث مئة وواحد وأربعين مسجدًا ومدرسة وزاوية في الفترة من ١٥١٧م حتى ١٨٠٥م، كما أنّ لدينا أرقامًا خاصة للمنشآت التجارية والاقتصادية دون المنشآت الأخرى من أسبلة وصهاريج ومساجد وزوايا تساعدنا على فهم التوسع العمراني والاقتصادي للمدينة في القرن العثماني الأول. فمنذ ضم القاهرة في ١٥١٧ حتى العام ١٦٠٠ ارتفع عدد حمامات المدينة من أربعة وأربعين إلى خمسة وسبعين حمامًا، كما زاد عدد المدارس من ثلاث وسبعين إلى خمس وتسعين مدرسة، والوكالات التجارية من ثلاث إلى مئة وأربع، والخانات من أحد عشر إلى ثمان وعشرين خانًا، وتراجع عدد القيساريات من سبع وثلاثين إلى أربع عشرة فقط، فزادت درجة نمو بعض المناطق الاقتصادية إلى ١٠٠٪ في هذه الفترة.

أما قاهرة القرن السابع عشر فنجد لها وصفًا مفعمًا بالحركة، مليئًا بالتكايا والقصور والجوامع والمدارس والحمامات والعمائر الفخمة والحدائق والبرك والأسبلة في رحلة الرحالة العثماني الشهير «أوليا چلبي» المعروفة بعنوان «الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٦٧٢-١٦٨٠)»، [وهو المجلد العاشر من رحلته التي زادت عن أربعة عقود في أقطار الدولة العثمانية وخارجها]، فيصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعمران القاهرة بشكل موسع، ونجده في العديد من المواضع، يقارن عمائر القاهرة بالعمائر الكبيرة للعاصمة اسطنبول، فيأتي ذكره على الأزهر الشريف

وعظمته، والمشفى القلاووني الضخم الذي لا نظير له في بلاد الإسلام، الحاوي بداخله على قسم لإنتاج الدواء يُرسل منه إلى أوروبا واسطنبول.
أضف إلى ما سبق في هذه اللمحة البسيطة، أنّ منطقة «الأزبكية» الشهيرة بقلب القاهرة، قد شهدت محاولات تعمير ناجحة، تفوقت على المحاولات التي تمت في العهد المملوكي، وأصبحت في العهد العثماني من أجمل وأرقى أحياء القاهرة.
الأزهر: رمز القاهرة وشعلتها المنيرة
للحديث عن الحركة العلمية في مصر العثمانية، فلا بد من البدء بالحديث عن الأزهر الشريف، ومكانته الكبيرة في العصر العثماني في مصر، فقد مثّل دائمًا قبلة العلم والعلماء وإحدى المؤسسات الإسلامية العريقة، التي أعطت الريادة العلمية والثقافية لمصر لألف عام بين أقطار العالم الإسلامي.
وقلما تجد عند الحديث في كتب التراجم التي تغطي الفترة العثمانية، عن رحلة في طلب العلم من المشرق أو المغرب الإسلامي، لم يتلقّ فيها طالب العلم في الأزهر للحصول على الإجازات من علمائها، ولم يقتصر الأمر على رحلات طلاب العلم، بل شمل رحلات العلماء من أقطار الدولة العثمانية المختلفة، لتلقي العلم أيضًا في الأزهر.
ولدينا من الأدلة الكثيرة ما يؤكد المكانة المرموقة للأزهر في ذلك العهد، فعلى صعيد الإدارة العثمانية نجد أنّ الاهتمام بالأزهر كان كبيرًا، فالسلطان سليمان القانوني قد أوقف جزءًا كبيرًا من أموال الجزية التي تخرج من مصر، على العلماء والمشايخ والمجاورين بالأزهر، كما قام الكثير من الولاة العثمانيين بالاهتمام به وتجميله وترميمه.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
أما على الصعيد العلمي، فكثير من العلماء من أقطار الدولة العثمانية وخارجها، كانوا يخاطبون علماء الأزهر، ويستفتونهم في كثير من القضايا والمسائل الفقهية، ومن ذلك ما حدث في بدايات القرن السابع عشر، مع ظهور حادثة التدخين التي أثارت انتباه المسلمين، وكَثُرت تساؤلاتهم حول الحكم الشرعي لهذا الفعل الجديد، فتناولته أقلام العلماء في مختلف الأقطار الإسلامية، لبيان حكم الدين فيه، ونتيجة لذلك زاد إرسال التساؤلات من علماء تلك الأقطار، إلى علماء مصر للاستعانة برأيهم؛ مثل علماء السودان الذين راسلوا علماء مصر، للأخذ بفتواهم في حكم هذه العادة المستحدثة.
وإذا أردنا أن ندلل على المكانة العلمية للأزهر بين الأقطار، يبرز الشام والسودان واسطنبول والمغرب، كأمثلة على الترابط العلمي لأقطار من جهات مختلفة من العالم الإسلامي بالأزهر. أما الشام فهي أولى الأقطار إقبالاً على التعليم بالأزهر للقرب الجغرافي، ولعمق الجذور التاريخية بين مصر والشام، التي تعود لقرون سبقت العهد العثماني. فبخلاف الأسئلة الفقهية التي كانت ترد من الشام إلى مصر، نجد أنّ كتب التراجم في العهد العثماني تمتلئ بالشخصيات الشامية، التي نالت تعليمها بالأزهر، وأخذت الإجازات العلمية هناك، منهم العالِم المقدسي الكبير «مرعي الحنبلي» (ت ١٦٢٣) صاحب المصنفات الكثيرة والتي من أشهرها «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين»، والذي ولي مشيخة جامع السلطان حسن بالقاهرة، والمؤرخ الأديب «نور الدين الحلبي» (ت ١٦٣٥)، صاحب المصنف الشهير «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون».
∞ ∞ ∞ ∞ ∞
أما «السودان» فقد اعتمد علماؤها على علماء مصر، في حسم بعض المسائل الخلافية، كما نشأت بين البلدين بسبب الروابط التاريخية القديمة، علاقات طيبة، كان للأزهر الجانب العلمي والثقافي

فيها، فمن ذلك ما نراه من مؤسسي مملكة «سنار» أو «سلطنة الفونج» على توثيق الصلة بينهم وبين علماء مصر ومنهم الشيخ «عجيب ابن الشيخ عبد الله جماع» أحد مؤسسي مملكة سنار (١٥٦٣ – ١٦١٠)، الذي دعم الحياة الدينية والعلمية في السودان، إذ بنى المساجد ودور العلم في أنحاء البلاد، وفي عهده تم استقطاب كثير من العلماء إلى البلاد منهم علماء الأزهر الشريف، كما قام ببناء دور للعلم خارج السودان للطلاب السودانيين، منها رواق خاص بهم في الأزهر الشريف.

اسطنبول تولّي وجهها شطر القاهرة

أما عاصمة الدولة «اسطنبول» ودرة مُدنها، فقد جرت حركات التنقل العلمية بين علماء المدينتين، مع مُحافظة اسطنبول على عدم التدخل في النظام التعليمي للأزهر، ولا إعادة هيكلته كمدارس اسطنبول الكبيرة، فاحتفظ علماء مصر بنظامهم التعليمي، دون تدخل من الإدارة في الأشخاص القائمين عليها، ولا في المناهج التي يتبعونها.

وهناك مجموعة من الأسماء الكبيرة، التي تفاعلت بالتعلُم أو التعليم في الأزهر، أو تقدمت للحصول على الإجازات العلمية من علمائه، مثل العالِم الكبير «محمد الفناري» (١٣٥٠ – ١٤٣١)، أول شيخ للإسلام في الدولة العثمانية، حيث زار القاهرة وأخذ عن بعض علمائها، والعالِم الشيخ «آلتى برمق» (ت ١٦٢٣-١٦٢٤) الاسكوبي البوسنوي، الذي اشتغل في جامع الفاتح باسطنبول بالفقه والتفسير والحديث لفترة طويلة، ثم رحل إلى القاهرة وأقام فيها مدرسة وجامعًا ووافته المنية هناك.

لدينا أيضًا العالِم الكبير «مصطفي البولوي» (ت ١٦٧٥)، شيخ الإسلام ومفتي السلطنة وعالِم علمائها ورئيس نبلائها آنذاك، الذي تولى قضاء العسكريين ثم الإفتاء بالعاصمة، ثم عزل وأمر بالتوجه إلي مصر، وأعطي فيها قضاء الفيوم ثم الجيزة، فأقام بمصر يُقرئ ويدرس ببيته، وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيمًا لتواضعه ولطف معاملته.

ومن القضاة المذكورة أسماؤهم في كتب التراجم، ونجد أنهم قد ختموا حياتهم في القاهرة، القاضي «إسحاق زاده»، و«حقي أفندي»، و«تذكره جي أفندي»، وهم من قضاة العسكر في الدولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يقتصر الأمر على مجيء علماء الدولة للقاهرة، بل نجد أيضًا أنه من ضمن الفئة الإدارية العليا في ديوان الدولة، من حرص على الحصول على الإجازات من علماء مصر؛ مثل رئيس الكُتاب [وهو من أعلى المناصب الإدارية في الدولة] في القرن الثامن عشر، حيث حضر للقاهرة إلى العالم اللغوي الشهير «مُرتضى الزَبيدي» ليحصل على الإجازة منه حيث كان مهتمًا بمقامات الحريري، كما وجد من ضمن الأمثلة في نفس القرن العالم الأزهري «عُمر الطحلاوي»، الذي ذهب إلى اسطنبول وقام بتدريس الحديث في جامع «آيا صوفيا»، وكان يحضر دروسه كبار العلماء في اسطنبول، وعند عودته للقاهرة كان يذهب إلى بيت الوالي كل جمعة، ليلقي عليه دروسًا في علم الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما «المغرب»، فقد قويت العلاقات في العصر العثماني بين مصر والمغرب، وزاد التواجد المغربي في مصر بصورة كبيرة، بحيث مثلت فيه مصر المحور الأساسي لنشاط المغاربة الاقتصادي في المشرق العربي، كما كانت قبلتهم الثقافية والعلمية، ليدرِسوا ويُدرّسوا بأزهرها الشريف، ومدارسها المنتشرة في القاهرة ومدنها الأخرى.

واستمرت العلاقات الثقافية العلمية بين المغرب ومصر، على مستوي الأفراد والحكومات؛ إذ إنّ فترات استقرار السلطة المغربية صحبتها ظاهرة صحية، تمثلت في بذل السلاطين كل عناية، لتوطيد العلاقات الثقافية لبلادهم مع بلاد المشرق، فمن ذلك ما شهدته حكومة «مولاي المنصور»، حيث راسل علماء مصر يطلب مؤلفاتهم ويأخذ منهم الإجازات، مثل طلبه الإجازة من الشيخ «البكري الصديقي» (ت ١٥٨٥)، والعالِم الإمام «بدر الدين القرافي» (ت ١٥٩٩) الذي طلب منه المنصور إجازة، فبادر الشيخ بتقديمها له وهي موجودة وترجع للعام (١٥٩١).

ومن ضمن أهل العلم المغاربة الذين استقروا بمصر، وحازوا فيها شهرة ومكانة كبيرة، الشيخ المؤرخ «المقري التلمساني» الجزائري الأصل المغربي النشأة، الذي ارتحل إلى القاهرة عام (١٦١٨)،ودرّس بالأزهر، وتوفي فيها عام (١٦٣٢)، وهو صاحب العملين التاريخيين الهامين: الأول وهو أهم مؤلفاته وأكثرها قيمة عن تاريخ الأندلس، والمعنون بـ»نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، والذي انتهى من تصنيفه في القاهرة، والثاني وهو «روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين: مراكش وفاس».

أما الشخصية الثانية، فهو شيخ الجامع الأزهر الشيخ العالِم «حسن العطار» (ت١٨٣٤)، أحد رواد التجديد والإصلاح في القرن التاسع عشر، فقد وُلد بالقاهرة لأسرة مغربية والتحق من صغره بالأزهر الشريف، وتعددت مواهبه، وتعمقت علومه في الجوانب الدينية واللغوية والمنطق والرياضيات والفلك، وساهم بأفكاره في توجيه عملية الإصلاح بالأزهر، إلى أن وصل لرئاسة المشيخة عام ١٨٣٠م.

الكتب والمكتبات والمؤسسات التعليمية الأخرى

من الممكن إجمال ما تَوصلت إليه مجموعة من الدراسات، حول المؤسسات التعليمية الأخرى في القاهرة العثمانية، بالإضافة إلى نوعية العلوم التي تم الاهتمام بها في هذه الفترة، والمكتبات الخاصة التي وجدت في تركات المتوفين، وما زالت باقية حتى الآن في أرشيفات المحاكم الشرعية.

بالنسبة للمؤسسات التعليمية، من الممكن أن نلاحظ نوعين من المؤسسات، استمرا في أداء دورهما التعليمي، بشكل أكبر من غيرهما طوال فترة الحكم العثماني وهما: «المدارس» و«الكتاتيب».فبالنسبة للمدارس وهي مؤسسة رئيسة من مؤسسات التعليم الحضارية الإسلامية، فنجد أن الاهتمام بها استمر في زيادة طوال العهد العثماني، ففي نهاية القرن السادس عشر لدينا إحصائية تشير إلى وجود خمس وتسعين مدرسة كما ذُكر سابقًا، وهو رقم أعلى من الرقم الذي تسلمته الإدارة العثمانية للمدارس في القاهرة. أما بشأن الكتاتيب فنجد أنّ عددها قد وصل في القرن السابع عشر إلى تسعة وثمانين كُتَّابًا يَدرُس بها تلاميذ القاهرة، وقد تفاوتت من حيث عدد تلاميذها والرواتب التي تُمنح للأطفال الدراسين، وبتتبع زيادة أعداد نفس المؤسسة حتى نهاية القرن الثامن عشر، نجد أنه قد تضاعفت بشكل كبير ليصل إلى ثلاثمئة كُتَّاب بختام القرن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وشهد القرن السابع عشر والثامن عشر في مصر والقاهرة، عملية نسخ للكتب بأعداد ضخمة بغضّ النظر عن تاريخ تأليفها، وهو ينسحب على كثير من مجالات المعرفة مثل العلوم والأدب والتاريخ، وكثير مما وصلنا من المخطوطات من العصر المملوكي يرجع تاريخ نسخها للعصر العثماني في مصر. ويمكن أن نقول إنّ مجمل ما تم نسخه من مخطوطات في القرن الثامن عشر، يفوق مجمل ما تم نسخه في غيره من القرون؛ مما يدل على أهمية الكتب في حياة سكان القاهرة.

وبإطلالة على نوعية الكتب والعلوم التي دُونت بها، والتي تعطينا نظرة على ثقافة المجتمع في تلك الفترة، نجد من الاطلاع على المؤلفات أنّ نسبة الاهتمام الأكبر كان تتجه نحو العلوم الدينية، فاللغوية، والفقه، والتفسير، والنحو، واللغة، والبلاغة، والأدب، ...إلخ، وكانت هذه النوعية من الكتب هي الغالبة على بقية العلوم الأخرى، ويظهر كذلك في المكتبات التي اقتصرت على العلوم الدينية واللغوية، أو التي شملت هذه العلوم مع العلوم العقلية كالطب والرياضيات، وفي حالات ضيقة وجدت بعض المكتبات التي اقتصرت على العلوم العقلية فحسب.

أما عن المكتبات التي حفظت بها هذه الكتب، فتفيدنا قوائم التركات الموجودة بأرشيفات المحاكم الشرعية، عن عدد المكتبات الخاصة التي تركها المتوفون، وحجم الكتب الموجودة فيها وقيمتها. ففيما بين أوائل القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن، نستطيع رصد الكثير من المكتبات الخاصة، فبين العامين ١٦٠٠ و١٦١٠ وجد في التركات ثلاث وسبعون مكتبة خاصة لأهل القاهرة، بينما وجد في السجلات فيما بين عامي ١٧٠٣ و١٧١٤ عدد ثنتان ومئة مكتبة خاصة، والفترة بين ١٧٣٠ و١٧٤٠ وصلت عدد المكتبات الخاصة إلى مئة وتسعين مكتبة، مع عدم اقتصار هذه المكتبات على فئة اجتماعية معينة، بل وجدت في بيوت جميع فئات المجتمع من علماء وعسكريين، وصوفية، وتجار، وأشخاص عاديين، كانوا يمتلكون مكتبات خاصة في بيوتهم. ونلاحظأنّ الأعداد المذكورة سالفًا تقتصر فقط على المكتبات التي وقع نزاع حولها بين ورثة المتوفى، فأحالوا النزاع إلى المحكمة؛ مما يدل على أنّ البيوت حازت على أعداد أكبر من هذا بكثير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حلب

بقلم: كريم عبد المجيد

يُمثل الحديث عن تاريخ مدينة «حلب»، رحلة طويلة في أعماق التاريخ السحيق، فهذه المدينة الهامة التي تعود جذور نشأتها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تحوي فائضًا من التاريخ ما زال قائمًا إلى الآن، عبر الشواهد الحضارية التي ترجع إلى الأحقاب والدول المختلفة التي مرت عليها.

استطاع المسلمون فتح المدينة عام ١٦ من الهجرة، في عهد الخليفة عُمر بن الخطاب ﷺ، ومن حينها تعاقب عليها مجموعة من الدول الإسلامية، بدءًا من الحُكم الأموي والعباسي، مرورًا بالحمدانيين الذين جعلوا منها إمارة مستقلة ومزدهرة، ثم العُبيدين، فالسلاجقة، وصولًا إلى المماليك، الذين انتهى حُكمهم للمدينة مع دخول العُثمانيين إليها عام ١٥١٦، لتبدأ المدينة حقبة جديدة من عُمرها، شهدت في معظمها ازدهارًا اقتصاديا وعمرانيًا واسعًا، حتى سقوطها على يد قوات «الشريف حسين» بمساعدة الحلفاء، في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨.

ويهدف المقال إلى تسليط الأضواء، على التطور العمراني الكبير للمدينة تحت الحُكم العثماني، مع توضيح موقعها الهام المميز بداخل خريطة الدولة، والذي أثر بدوره على ازدهار المدينة.

مكانة «حلب» تحت الحكم العُثماني

استطاع العُثمانيون السيطرة على «حلب» عام ١٥١٦، بعد معركة «مرج دابق» بقيادة السلطان «سليم الأول»، ضد القوات المملوكية بقيادة السلطان «قانصوه الغوري»، دون مقاومة من أهل المدينة، بل ساند أهل المدينة الجيش العثماني عند دخوله، ووقفوا في صفه ضد القوات المملوكية.

وعلى عكس ما هو مشهور عن الدول العربية، أنها لاقت تدهورًا وإهمالًا تحت الحكم العثماني أفقدها رونقها، فقد مثّلت «حلب» إحدى أكبر الأمثلة على التطور الاقتصادي والعمراني لمدينة عربية، كانت تُعد واحدة من أهم مدن الدولة بإطلاق، ولا يقترب منها في المكانة إلا العاصمة اسطنبول والقاهرة.

عدة عوامل هامة لعبت مكانة كبيرة، في تحول «حلب» لمدينة بارزة وكبيرة في العهد العثماني، أهمها يتمثل في تحول المدينة من مدينة حدودية في العهد المملوكي، إلى مدينة في قلب دولة كبرى؛ مما يعني توفر سوق داخلية واسعة (العراق في الشرق، الأناضول في الشمال، بلاد الشام في الجنوب)، نجد كذلك الموقع الاستراتيجي الهام للمدينة، كمربط لطرق التجارة الدولية بين الشرق (الهند وبلاد فارس)، والشمال (الأناضول)، والغرب (أوروبا)، والجنوب (فلسطين ومصر والحجاز)، مع بروز أفضلية الطرق البرية مع الهند، مقارنة مع الطرق البحرية، التي أصبحت تعجّ بالقراصنة خلال القرن السادس عشر، مما جعل المدينة مركزًا مهمًا في الطريق البري، الممتدة من الهند إلى شرق المتوسط.

تطور عمران المدينة عثمانيًا

«إنها الهند الصغيرة بخاناتها الواسعة وتُجّارها الأغنياء ومبانيها الجميلة»

«□ينتسنزو داندولو» القنصل البندقي في «حلب» عام ١٥٩٩

شهدت المدينة تطورات وتحولات كبيرة، خلال القرون الثلاثة التي تلت انضواءها تحت الراية العثمانية، توازت فيها التطورات الاقتصادية بجانب التطورات العمرانية، بشكل جعلها مركزًا من

مراكز الثقل الاقتصادي العثماني في ذروته، بجانب اسطنبول والقاهرة. وإذا تقدمنا للحديث أولًا بشكل شديد الإيجاز، عن التطورات الاقتصادية للمدينة في القرن الـ ١٦، أعظم قرون الدولة العثمانية، فنجد أنها قامت على المصادر الرئيسة للدخل، المُتمثلة في حجم النشاط الكبير لدور ضرب النقود من ذهب وفضة ونحاس، بالإضافة إلى تجارة الأغنام والحرير والعبيد، وفاقت ضريبة الحرير كل مصادر الدخل في الولاية، في القرن السادس عشر فترة حكم السلطان «سليم الثاني»، فقد كانت «حلب» بجانب اسطنبول وبورصة، واحدة من المراكز الأساسية للحرير الإيراني، وأكثر المراكز في الدولة المصدرة لأوروبا. برزت المدينة أيضًا في نفس القرن كسوق ضخمة للسلع «الهندية»، مثل الأنسجة والتوابل والأصبغة.

وبناءً على الأهمية الاقتصادية والسياسية للكبيرة للمدينة، قامت البندقية بنقل قنصليتها في عام ١٥٤٥ من «دمشق» إلى «طرابلس الشام»، ومن ثم إلى «حلب» عام ١٥٤٨م، كما تواجد هنالك تمثيل قنصلي فرنسي عام ١٥٦٢م، وتمثيل إنجليزي عام ١٥٨٣م، وتمثيل هولندي عام ١٦١٣م، بالإضافة إلى مكاتب تجارية لهذه البلدان الثلاثة.

أما التطور العمراني، فقد تمثّل إجمالًا في مساحة رقعة العمران للمدينة؛ فقد زادت هذه المساحة عن الضعف من حجمها الأصلي وقت الدخول العثماني، فمساحتها وقت الدخول عام ١٥١٦م، كانت تُقدر بحوالي ثمانية وثلاثين ومئتي هكتار تقريبًا، ومع الازدياد في التوسع وصلت هذه المساحة إلى ثلاثمئة وسبعة وستين هكتارًا مطلع القرن التاسع عشر، الأمر الذي يأخذنا إلى الحديث بشكل أكثر تفصيلًا عن العمائر الكثيرة، التي أدّت إلى هذا التوسع العمراني الكبير، فقد تضاعفت مساحة مركز ولاية «حلب»، الذي كان يعرف لدى السكان باسم «المدينة»، في أقل من نصف قرن باتجاه الغرب، بفضل أربعة مجمعات وقفية لولاة «حلب»، فبنى الوالي «خسرو پاشا» عام ١٥٤٤ والوالي «محمد پاشا دو كاجيني» عام ١٥٥٥ والوالي «محمد پاشا» عام ١٥٧٤ والوالي «بهرام پاشا» عام ١٥٨٣، مئات من المحلات التجارية والخانات والقيساريات، التي مازال بعضها قائمًا وشهيرًا إلى الآن، مثل خان الشونة، خان الجمرك، خان الوزير [في القرن السابع عشر] فازدادت مساحة مركز الولاية من خمسة هكتارات مطلع القرن السادس عشر، إلى أكثر من عشر هكتارات قبل أن يمر نصف قرن على حركة التعمير الكبيرة هذه، وأصبحت الأسواق المغطاة في المدينة من أكبر الأسواق في الدولة بكاملها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبالإضافة إلى البيوت الجميلة، والقصور الفخمة التي تدل على غنى المدينة، نجد انتشارًا للعمائر الدينية المتمثلة في الجوامع والمساجد، التي زينت سماء «حلب» أكثر مما في دمشق والقاهرة، بالمآذن العثمانية الجميلة التي تنتهي برأس مُدبب كالقلم الرصاص، إلى جانب قباب نصف دائرية راسخة، هذه المميزات العمرانية العثمانية الواضحة اتسمت بها المدينة عن غيرها من المدن العربية، بسبب القرب النسبي لها من عاصمة الدولة، بالإضافة إلى الأهمية السياسية للولاية بشكل عام داخل إطار الدولة، فكان أول المجمعات الكبيرة التي خططها المعماري الشهير «سنان»، هو جامع ومدرسة وتكية «الخسروية» عام ١٥٤٦، [نسبة إلى خسرو پاشا حاكم الولاية]، بالإضافة إلى الكثير من الجوامع والمدارس الأخرى مثل جامع بهرام پاشا، والمدرسة الأحمدية، والمدرسة الشعبانية، ومدرسة عثمان پاشا. وقد اجتمعت هذه العمائر بأشكالها الجميلة، بالإضافة إلى اتساع المدينة

ونظافتها، لتشكل سببًا من أسباب إعجاب الرحالة الأوربيين بالمدينة، ومقارنتها بمدنهم الكبرى مثل لندن وباريس.

«حلب» بأعين الرحّالة والمستشرقين

أما إذا قمنا بالاعتماد على مذكرات ورحلات الرحالة والمستشرقين الأجانب،فسنجد فيها وصفًا يَمُدنا بمعلومات عن المدينة، وعدد سكانها، وعدد عمائرها في هذه الفترة، وسيكون من الجيد أن نقتبس من عباراتهم، ما يفيدنا في مقام توضيح شكل المدينة، ونبدأ بالحديث مع الرحالة الفرنسي «جان باتيست تا□رنييه» الذي زار حلب عام ١٦٣٨ فيذكر في رحلته وصفًا عامًّا للمدينة بأنها «واحدة من أشهر المدن التركية، سواء لاتساعها وبهائها، أو لطيب هوائها المصحوب بالوفرة في كل ما يخطر بالبال، وكذلك نظرًا للحركة التجارية العظيمة التي تتداولها جميع شعوب الأرض التي تؤمَّها». أما شكل المباني والعمائر والبيوت فيقول بأن المباني «سواء العمومية منها أم الخصوصية، فليست تتسم بالرّونق إلا في داخلها، ففي الداخل تجد الجدران المكسوة بالرخام الملون، والتلبيسات الخشبية المزوّقة بتعريقات نباتية وبخطوط منقوشة بالذهب. وفي المدينة بما في ذلك باطنها وظاهرها قرابة مئة وعشرين مسجدًا، من بينها ستة أو سبعة تتميز بقدر وافٍ من البهاء، ولها قباب حسنة، ومن بينها ثلاث قباب مكسوّة بالرصاص». أما حديثه عن الخانات والحمامات وعدد السكان فيقول: «دروب المدينة مرصوفة جميعها.. وفي المدينة وأرباضها مجتمعة قرابة الأربعين خانًا، وخمسين حمامًا للرجال والنساء.. وضواحي المدينة كبيرة ومأهولة بالسكان، وجميع مسيحيي البلد تقريبًا يعيشون في هذه الضواحي، ولهم فيها كنائس وبيوت... ويبلغ المجموع العام لسكان «حلب» بما في ذلك المدينة والأرباض، قرابة خمسين ومئتي ألف نسمة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبالتعريج على شهادة أخرى من الشهادات الهامة في وصف المدينة، فإننا ننتقل إلى حديث تجاوز القرن من شهادة الرحالة السابق «جان باتيست تا□رنييه»، وهي شهادة الرحالة والمستشرق والسياسي الفرنسي «□ولني»، الذي يصف المدينة في زيارته لها عام ١٧٨٥م، بأنها «إحدى أجمل مدن سوريا، بل ربما تكون أنظف مدينة في الامبراطورية كلها وأكثرها تشييدًا. إننا حين نصل إليها من أي اتجاه نجد حشدًا من المآذن والقباب البيضاء، التي تمتع العين المرهقة من السهل الداكن والممل».

«حلب» في القرن التاسع عشر

وإذا استكملنا الحديث عن تعمير حلب في القرن التاسع عشر، نذكر أنّ المدينة تعرضت عام ١٨٢٢م، إلى زلزال ضخم دمّر جزءًا كبيرًا من مبانيها، أتبعه بعد عدة سنوات في عام ١٨٣٢م دخول حملة «إبراهيم پاشا» ابن «محمد علي پاشا» والي «مصر» إلى «الشام» وسيطرته على المدينة حتى استطاعت الدولة العثمانية استرداد المدينة مرة أخرى منه عام ١٨٤٠م، من ضمن ما استردته من أملاكها في الشام، وقد ضمت هذه الفترة إصلاحات واسعة في الولاية، تضمنت التجنيد في الجيش الجديد، ونظامًا ضريبيًّا جديدًا وإعطاء المزيد من الحرية لغير المسلمين.

وبإعلان فرمان التنظيمات عام ١٨٣٩م، انتقلت الدولة العثمانية إلى مرحلة جديدة من تاريخها، تَغيرت فيها سياسات الدولة من نواحٍ كثيرة، منها تدخلها بشكل مباشر في تنظيم التعليم والصحة، ومشاركة الوزراء ورجال الدولة للسلطان في رسم سياسات الحُكم بصورة أكبر، الأمر الذي انعكس على توسعة حركة العُمران، وتشييد المباني ذات الأغراض المختلفة، بولايات ومدن الدولة ومنها

حلب. وقد مارست الإدارة العثمانية عملية تطوير وتحديث للولايةٍ بشكل كبير، خاصة بعد انتهاء السيطرة المصرية عليها، فظهرت أحياء جديدة في المدينة، وأُتبعت ببناء شبكة من الشوارع المستقيمة والمتعامدة، مثل «شارع الخندق»، كذلك شارع «باب الفرج»، وأحياء مثل «حي العزيزية»، و«حي الجميلية»، كما زُرعت الأشجار، على أطراف الشوارع الأكثر أهمية والأكثر عَرضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما بالنسبة إلى العمائر الجديدة التي ظهرت في المدينة فقد بنى اليسوعيون مجمعًا واسعًا بين العامين ١٨٧٩ و ١٨٨٠، ضم كنيسة وديرًا ومدرسة في حي يسكنه خليط من المسيحيين والمسلمين في الضاحية الشمالية، تم كذلك في عام ١٨٩٧ الانتهاء من بناء مستشفى الغُرباء الحميدي، [نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني]. تم كذلك تشييد مبنى المكتب الإعدادي [ثانوية المأمون الحالية] عام ١٨٩٢، وبناء «برج الساعة» بباب الفرج، بتبرعات مشتركة من الأهالي وصندوق البلدة عام ١٨٩٩، وهو من علامات المدينة المميزة، كذلك وصول خط «سكة حديد بغداد» إلى المدينة، لربط اسطنبول ببغداد فكان يمر بالمدينة.

أما بالنسبة للطرق، فتم تحديث طريق الربط بين الإسكندرونة و«حلب» عام ١٨٨٠، كذلك الطرق بين «حلب» وبغداد، و«حلب» وأورفة والموصل، كما تم في عام ١٩٠٥ الانتهاء من الخط الحديدي، الذي يربط «حلب» ببيروت.

خرجت المدينة من تحت السيطرة العثمانية، لتدخلها قوات «الشريف حسين» بمساعدة الحلفاء في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، تبعه في عام ١٩٢٠ الاحتلال الفرنسي للمدينة، لتُطوى حقبة مزدهرة من أحقاب المدينة، دامت لمدة أربعة قرون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلجراد

بقلم: كريم عبد المجيد

«من شاهدَ بلغراد في عهد الأتراك وعاد لمشاهدتها اليوم لا يُمكن أن يقول أبدًا إنّ هذه المدينة هي بلغراد السابقة!»

الرحالة دريش في وصفه لبلغراد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلغراد واحدةٌ من أكبر الحواضر الإسلامية في البلقان في العهد العثماني، والمدينة التي تُمثِّل «بوابة الشرق» في وجدان وشعور الرحالة الأوروبيين في ذلك العصر، سيطر عليها العثمانيون بقيادة السلطان «سُليمان القانوني» عام ١٥٢١، واستمرت تحت الحكم العثماني حتى عام ١٨٧٦، باستثناء فترات متقطعة كان للنمساويين الحكم فيها.

حازت بلغراد على اهتمام كبير كحِصْن حدودي، وقت انضمامها إلى الأراضي العثمانية، وبمرور أول قرنٍ من الحكم العثماني، تحولت بلغراد من حصن حدودي، إلى واحدة من أكبر مدن البلقان، حيث مثّلت بسبب موقعها مركزًا عسكريًّا وغذائيًّا كبيرًا، للجزء الأوروبي من الدولة، وحسب وصف المؤرخ الصربي المعاصر «دوشان بوبو□يتش»، فإنّ بلغراد أصبحت تشبه «دمشق» أو غيرها من مدن الشرق بسكانها، ومنشآتها، وثقافتها، وتقاليدها.

يركز المقال على الحركة العمرانية والحالة العلمية والثقافية للمدينة تحت الحكم العثماني في فترته الأولى التي تمتد من عام ١٥٢١ حتى عام ١٦٨٨، وهي الفترة الذهبية التي شهدت فيها المدينة تطورًا علميًّا وثقافيًّا لا نظير له مقارنة بفترات الحكم العثماني الأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمران بلغراد العثمانية

عُرفت بلغراد بكونها مدينة مفتوحة للأعراق والأديان من مختلف المناطق والأقطار، وقد تشكّل غالبية المسلمين فيها من سُلاف الجنوب، بالإضافة إلى الألبان، مع وجود أقلية تركية صغيرة، وكان يُقدر عدد سكان بلغراد في النصف الثاني من القرن السادس عشر، بـ عشرة آلاف نسمة، لنجد أنّ هذا الرقم قد ارتفع في النصف الثاني من القرن السابع عشر ليصل إلى ثمانية وتسعين ألف نسمة كمجموع كلي، بينهم واحد وعشرون ألفًا من غير المسلمين وقت زيارة الرحالة العثماني «أوليا چلبي».

ساهمت الأوقاف الكبيرة التي أوقفها الولاة ورجال الدولة العثمانيين، في تنمية المدينة عمرانيًّا وعلميًّا طوال الفترة العثمانية الأولى، نذكر منها وقف الصدر الأعظم «پيري محمد پاشا» في بدايات الحكم العثماني، ووقف «يحيى أوغلو محمد پاشا» [١٥٤٠-١٥٤٨] ووقف «بايرام بك» [١٥٥٧-١٥٦٨]، ووقف الصدر الأعظم «صوقللو محمد پاشا» [في بدايات ١٥٧٠]، ووقف «بودا محمد پاشا» [١٦٣٢-١٦٤٣]، ووقف الصدر الأعظم «كوپرولو زاده فاضل أحمد پاشا» [١٦٦١-١٦٧٦].

ولإلقاء لمحة على كبر حجم المدينة وشكلها في القرن السابع عشر، فإننا نعتمد على ما شاهده الرحالة العثماني «أوليا چلبي» عندما زار المدينة عام ١٦٦٠، فقد وجد سبعة عشر ومئتي مسجد وجامع، [مع تحفظ بعض الباحثين المعاصرين على كبر الرقم، وأنه لم يتجاوز سبعين أو ثمانين]، وعاين

جلبي مئة وستين قصرًا، ستة كروانسراي [نَزل للمسافرين والقوافل]، «بيزستان» [سوق مغطى للبضائع والأقمشة]، ستمئة سبيل، واحد وعشرين خانًا، سبع عشرة تكية، دارًا لضرب النقود، بالإضافة إلى كنائس ومؤسسات ثقافية للمسيحيين والأقلية اليهودية.

العلماء والشعراء في بلغراد

«وتغترُّ بالدهرِ الدنيِّ وجاهِه فمن رام بالجاهِ المُجاهاةَ جاهلُ ولو لم تكن تجلو السَّريرة بالتقى صباحك لهواه ويومك هازِلُ فلا تعتمد دهرًا بُليت به فما ترى الخلق إلَّا وهو جاء وراحلُ.»

حسين باشا البلغرَادي

كانت المدرسة التي أسّسها الوالي «يحيى أوغلو محمد پاشا»، والمدرسة التي أسسها الوالي «بيرام بك» في منتصف القرن السادس عشر، من أهم المؤسسات التي ساهمت في الحياة التعليمية في بلغراد العثمانية، وكانت تمد المدينة بالمتعلمين والمفتين. وقد انتشرت المدارس والكتاتيب ودور القُراء، بجانب المساجد والجوامع في المدينة، كمؤسسات تعليمية يقوم التعليم فيها على العلوم الأدبية والدينية واللغوية، كانت تؤهل المتخرِّج منها إلى استكمال دراساته العليا في مراكز الدولة العلمية الكبيرة، [القاهرة، اسطنبول، دمشق، الزيتونة، وغيرها]، ويذكر «أوليا چلبي» في زيارته عام ١٦٦٠، أنّ عدد كتاتيب المدينة كانت سبعين ومئتي كُتَّابًا كما أنّ بها ثماني مدارس لتدريس المواد العامة، وتسعة معاهد متخصِّصة في علم الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبالنظر إلى الحياة الثقافية والعلمية في المدينة، نجد أنّ المدينة مثّلت مركزًا مهمًا من مراكز الثقافة الإسلامية في البلقان؛ لانتشار المدارس والمكتبات والتأليف بلغات الحضارة الإسلامية الثلاثة العربية والفارسية والتركية العثمانية، ونتيجة لهذه البيئة العلمية في المدينة ظهر لنا في كتب التراجم، أسماء لعلماء وشعراء ومؤلِّفين بُلغراديين، حازوا على شهرة واسعة على مستوى أقطار الدولة العثمانية، وساهموا بدأب في رسم ملامح الحركة العلمية للدولة في أقطارها المختلفة.

ولقد تنوعت اهتماماتهم بين العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية والجغرافية والتصوف، ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخ «مصطفى بن أحمد البُلغرادي» دفتردار [المسؤول عن الشؤون المالية] ولاية طمشوار (Temşvar / جزء من أراضي رومانيا وصربيا والمجر حاليًا) الذي قام بكتابة ذيل لكتاب المؤرخ ورجل الدولة الكبير «بچوي إبراهيم أفندي»، المعروف باسم «تاريخ بچوي»، [وقد صدرت ترجمته العربية في مجلدين] أكمل فيه تغطية الأحداث بين العامين ١٦٣٦ و١٦٥١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما الجغرافيا، فلدينا الجغرافي «عثمان بن عبد المنان البُلغرادي» [ت ١٧٧٩م]، الذي قام بترجمة كتاب الجغرافيا العامة، للجغرافي الألماني «برنارد □ارينيوس» إلى التركية العثمانية، مع وضع تعليقات وشروحات مفيدة، وهو كتاب مهم اعتمد مؤلفه على آراء كوبرنيكوس في مركزية الشمس ودوران الأرض. ويجب أن نذكر في معرض الحديث عن علم الجغرافيا، أنّ الجغرافي والمؤرخ وراسم المنمنمات والخطاط الكبير «نصوح السلاحي» [ت ١٥٦٤]، قد عاش فترة كبيرة من حياته في بلغراد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما الشعر والشعراء، فقد اشتُهرت بهم المدينة في القرن السادس عشر والسابع عشر، وظَهر منهم كثير من الأسماء الكبيرة. فمن شعراء القرن السادس عشر «نوري»، و«والي»، و«صادق

البُلغرادي» الذي ترجم المستشرق والمؤرخ النمساوي «ڤون هامر» بعض أشعاره إلى اللغة الألمانية، ولدينا الشاعر القاضي المعروف بـ «ابن محتسب البلغرادي» [توفي بعد عام ١٥٦٠] والذي قام بترجمة كتاب التراجم الشهير: «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» من العربية للتركية العثمانية، كذلك له مؤلف بعنوان «عشق نامه» في الأدب، ونَظم بعنوان «سليمان نامه».

أما القاضي «حسين پاشا البلغرادي» المعروف بپاشا زاده، المولود في بلغراد عام ١٥٥١ والمتوفى في القاهرة عام ١٦١٤، فنجد له ترجمة في كتاب «المحبّي» الشهير «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» واصفًا إياه بـ «واحد الدهر على الإطلاق... ورأس الفضلاء في وقته»، وقد عُين قاضيًا في «المدينة المنورة»، وأقام في «القاهرة» ببيت بمنطقة «بركة الفيل»، وقد أورد له المحبي في كتابه الآخر: «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» نماذج من قصائده. أما شعراء القرن السابع عشر فنجد الشاعر الصوفي المولوي الكبير «حَبيبي» [ت ما بين ١٦٤٠-١٦٤٣] المولود في البوسنة، وقد درس في اسطنبول وقضى معظم حياته في بلغراد، وقد كتب عملين أدبيين الأول ديوان شعري والآخر اسماه «المثنوي الصغير»، كان يُدِّرس منه لطلبة الصوفية المولوية. ولا يفوتنا أن نذكر الشاعر الغنائي «أميري البلغرادي»، والشاعر «نجمي البلغرادي» الذي اشتهر بملحمته الشعرية «الشاه والشحاذ».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإذا تجاوزنا أسماء الشعراء، يظهر لنا أسماء العديد من العلماء الكبار مثل «منيري البلغرادي» [ت ١٦٢٠-١٦٢٥]، الذي أثَّر في الحياة العلمية والثقافية للمسلمين، في بلغراد والمناطق المحيطة بها في الحقبة العثمانية الأولى، فقد وُلد لأسرة من أصل بوسنوي وعمل واعظًا ومدرسًا ومفتيًا، وصار عالمًا يُشار إليه بالبنان، وكان يترأس الطريقة الصوفية الخلوتية، وقد ترك مؤلفات بالتركية العثمانية والعربية.

ذاع صيت منيري البلغرادي بسبب تنوع الفروع العلمية التي صنف فيها، فوصل إلينا من مؤلفاته مثل: «سلسلة المقربين ومناقب المتقين» أو مناقب نامه في التراجم، وهو ترجمة لـ مئة وواحد وعشرين شيخًا من مشايخ الصوفية، وهذا الكتاب يمثل مصدرًا مهمًا لمعرفة الآخيات الصوفية في الأناضول والبلقان، من القرن السادس عشر وحتى أوائل السابع عشر، في عهد السلطان أحمد الأول ١٦١٧، وله أيضًا: «نصاب الانتساب وأدب الاكتساب»، الذي يتناول فيه النقابات التي كانت تنتشر في مدن البلقان العثمانية، والتي كانت تلعبُ دورًا مهمًا في الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى نظم في آفات القهوة والخمر والأفيون والدخان، ورسالة في تحريم السّماع والرقص الصوفي، وكتاب في الجغرافيا بعنوان «سبعيات»، ويشمل الحديث عن معارف جغرافية وعلوم الكون، استنادًا إلى الكلاسيكيات الجغرافية، مقسّمة إلى سبعة أجزاء، كما وضع تعليقات على كتاب تاريخي لشيخه «علاء الدين علي دده السكتواري البوسنوي»، المعروف باسم «محاضرات الأوائل ومسامرات الأواخر»، وهو نوع من كتب التواريخ العالمية التي تبدأ مع نزول سيدنا آدم، بالإضافة إلى مجموعة من الرسائل العقدية والأدبية والصوفية، وقد بلغ مجموع أعماله ستة عشر كتابًا ورسالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تدمير بلغراد العثمانية

تعرّضت المدينة لتدمير مُمنهج لكل ما هو إسلامي فيها، وذلك على يد الحكم النمساوي الذي سيطر عليها لثلاث فترات متباينة: الفترة الأولى من ١٦٨٨ حتى ١٦٩٠، والثانية من ١٧١٧ حتى ١٧٣٩،

والثالثة من ١٧٨٩ حتى ١٧٩١، وفي هذه الفترات تمّت إبادة السكان المسلمين، وتحويل المساجد إلى كنائس أو تدميرها، كما تم تحويل الحمَّامات إلى مخازن للبارود؛ مما جعل أحد الرحالة ويُدعى «دريش» يقول عند زيارته المدينة عام ١٧١٩: «من شاهد بلغراد في عهد الأتراك، وعاد لمشاهدتها اليوم لا يُمكن أن يقول أبدًا أنّ هذه المدينة هي بلغراد السابقة». ومثلما فقدت بلغراد عمارتها الإسلامية وشكل المدينة الشرقي، نجد أيضًا أنّ تراثها العلمي قد تم تدميره بصورة ممنهجة، في الحروب التي وقعت بين الدولة العثمانية والنمسا، في محاولة كل طرف الاستحواذ على المدينة، ورغم ذلك يتواجد حتى الآن في مكتبة جامعة بلغراد، ما يقرب من ستمئة وثلاثة وثلاثون مخطوطًا أغلبها بالعربية، وبعضها بالعثمانية والفارسية، في فروع مختلفة من الفقه والتاريخ والأدب والفلسفة وغيرها، كُتب أغلبها ونُسخ في بلغراد، والمناطق القريبة منها في العهد العثماني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البوسنة.. الماضي الذي تسبب في دمار الحاضر

بقلم: كريم عبد المجيد

«ولقد كنتُ كلَّما وقع نظري على مناظر تلك البلاد، وراقني جمالُها الطبيعي، وسرَّني ما اشتملت عليه من محاسن الأشياء وطرائفها، يبلغ مني الأسف، ويذهب بي الجزءُ على تلك البلاد، التي كانت محوطة بسيادة الأتراك، مشمولة بحكمهم، وقد سُلِخَت منهم وتأمَّر عليها سواهم».

كانت هذه هي كلمات ولي عهد مصر الأمير «محمد علي» من ضمن ما سطَّره عن البوسنة والهرسك، في رحلته السياحية الصيفية التي قام بها إلى البلاد عام ١٩٠٠، وهي وإن كانت كلمات تنم عن حسرة لفقدان حكم بلد جميل كالبوسنة، إلا أنه كان ليتحسر بشكل أكبر، لو رأى هذه البلاد بعد ما يقرب من قرن من الزمان، وطلقات الرصاص والمدافع، وقنابل الحقد الحارقة، تبيد أهلها، وتهدم مبانيها، وتزيل جمالها الطبيعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدأ مأساة مذبحة البوسنة مع حصار القوات الصربية في أبريل من عام ١٩٩٢، لمدينة «سراييفو» عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك الوليدة، وقيامهم باستهداف كل ما في أرض البوسنة من بشر أو حجر بالقتل والتدمير، ووقعت بناء على هذا التدمير الهمجي العنصري، مجموعة من المذابح وجرائم الحرب ضد المدنيين العُزل، منها مذبحة العاصمة التي راح ضحيتها أكثر من أحد عشر ألف وخمسمئة شخص، ومذبحة بلدة «سربرنيتسا» الحدودية الشهيرة التي وقعت في تموز-يوليو عام ١٩٩٥، وراح ضحيتها أكثر من ثمانية آلاف مسلم.

كانت إبادة بناء على الهوية الدينية أي لأنهم مسلمون، وكانت التهمة الموجهة إلى رئيس البوسنة حينها، هي محاولة إقامة دولة إسلامية في قلب أوروبا، فكان لابدّ من التخلص من هؤلاء المسلمين، الذين يختلفون عن البيئة والثقافة الأوروبية، عبر قتلهم وتدمير حاضرهم، وتراثهم الرفيع الذي ظهر في العهد العثماني، وهي محاولات كانت قد سبقها من قرن من الزمان محاولات أخرى، سجلها الأمير محمد علي في رحلته سالفة الذكر، حين حكمت النمسا البوسنة، وأخرجتها من تحت الحكم العثماني، فذكر الأمير المحاولات التي قامت بها الحكومة النمساوية لتنصير مسلمي البوسنة، وبعضًا من جوانب إهمال مساجدهم وتدميرها وبناء كنائس بينها، وقد نتساءل عن الوقت والسبب الذي جعل هذا الشعب السلافي يتحول إلى الإسلام، مسببًا إزعاجًا دينيًّا لجيرانه من غير المسلمين، خاصة بعد خروج البوسنة من تحت الحكم العثماني في القرن التاسع عشر.

متى ولماذا أسلم الشعب البوسنوي؟

وصل العثمانيون إلى أول أجزاء الأراضي البوسنوية عام ١٣٨٦، وضموها إلى دولتها لتستمر عملية فتح أراضي البوسنة حتى اكتمال عملية الفتح في عام ١٤٦٣، على يد السلطان «محمد الفاتح»، ويعتبر البوسنيون العرق السلافي الوحيد الذي تجاوز غيره من السلاف، في أعداد من اعتنقوا الإسلام، فلماذا انتشر الإسلام بين البوسنيين بهذه الأعداد؟

تشير مصادر محلية بوسنوية وأجنبية، إلى انتشار مذهب مسيحي في البوسنة والهرسك، عُرف باسم المذهب «البوغوميلي»، وذلك منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وهو المذهب الذي ظل باقيًا في البوسنة، حتى قدوم العثمانيين في القرن الخامس عشر. ظهر هذا المذهب أول ما ظهر في بلغاريا،

على أيدي بعض المعلمين المسيحيين، وانتشر بين النصارى في المنطقة، فوجد من اعتنق هذا المذهب في إيطاليا وجنوب فرنسا، إلا أنّ البوسنة كانت معقل المذهب الرسمي، خاصة بعد أن ضعف في فرنسا وإيطاليا، وقد احتوى المذهب على عقائد، ساعدت على انتقال البوسنيين بشكل سريع إلى الإسلام، بعد وصوله إليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تأثر البوغوميليون تأثرًا كبيرًا بأفكار طائفة تدعى «الشمشاطيون»، تتبع رجل دين مسيحي عرف باسم «بولس الشمشاطي»، الذي كان يؤمن بوحدانية الله، وبأنّ عيسى عبد الله ورسوله مثله مثل بقية الرسل، وأنه إنسان لا إلهية فيه، وبناء على كتابات بعض المؤرخين فإنّ عقيدة بولس كانت أقرب إلى الإسلام من بقية العقائد المسيحية، وربما ساهم هذا السبب بشكل كبير في انصهار البوسنيين السريع في الإسلام بأعداد كبيرة، خاصة أنّ عقائد البوغوميلين (التي نظر إليها الكاثوليك والأرثوذوكس على أنها هرطقة)، كانت ترفض عبادة «السيدة مريم» وكل أنواع رجال الدين، كما كانوا يعتقدون بأنّ التوجه بالصلاة لصور وتماثيل القديسين هو نوع من الوثنية، كما كانوا يُحرِّمون شرب الكحوليات، وكانوا يصلون في اليوم خمس مرات، وإن كان هناك بعض الفروق بين البوغوميلين في البوسنة وفي غيرها من الأقطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومع وصول الإسلام إلى البوسنة بالفتح العثماني، شهد البلد سرعة كبيرة في دخول البوغوميلين إلى الإسلام، وتذكر المصادر بأنّ هناك ستة وثلاثين ألف أسرة بوغوميلية، أتت إلى السلطان «محمد الفاتح» بعد إتمامه فتح البوسنة، لتقديم ولاء الطاعة له والدخول مباشرة في الإسلام؛ ويفسر هذا الدخول السريع في الإسلام تشابه العقائد من جهة، ووجود نزاعات دينية مريرة، بين البوغوميلين البوسنيين والكاثوليك وبعض الأرثوذكس المجريين من جهة أخرى، واحتكاك البوغوميلين بالعثمانيين من فترات طويلة، وتفضيلهم على غيرهم؛ بسبب سماحتهم الدينية التي اشتهروا بها في البلدان التي فتحوها، وقد طلب كثير من المسلمين الجدد من السلطان، أن يأخذ أبناءهم إلى اسطنبول لتربيتهم وتنشأتهم، ومن ضمنهم كثير من نبلاء البلد، وقد وصل البوسنيون بأعداد كبيرة إلى أرفع المناصب الإدارية والعلمية، في العهد العثماني الذي امتد إلى خمسة قرون.

الإرث العلمي للبوسنة وتدميره

تحولت البوسنة في العهد العثماني إلى مركز إشعاع إسلامي في منطقة جنوب شرق أوروبا، وكانت الثقافة الإسلامية باللغات الشرقية الثلاث (العربية والفارسية والتركية)، هي الرئيسة بداخل البيئة العلمية، إلا أنّ اللغة العربية تمتعت بمكانة الصدارة في ذلك العهد، من حيث كونها لغة للعلم، بالإضافة لعدد المؤلفات التي كتبت بها، وقد نتج عن هذا المناخ العلمي أن ظهر علماء وشعراء بوسنويون، اتخذوا من العربية لغة تأليفهم الرئيسة، كما أثَّر حب العربية في المجتمع البوسنوي، في ظهور اللغة البوسنية بالحرف العربي، وظهر من العلماء مَن ألف بهذا الخط الذي عرف باسم «عربيتسا».

ازدهرت حركة العمران بشكل كبير في البوسنة، وقام الوالي «عيسى بك» بوضع بذرة إنشاء مدينة «سرايفو»، التي تحولت إلى مركز من مراكز الإسلام في المنطقة، وكانت مكتباتها غزيرة بالمخطوطات، التي تناولت الإسلام وعلومه والعلوم الأخرى، والتي نذكر منها مكتبة مدرسة الغازي «خسرو بك»، التي ما زالت تحتفظ بأكثر من عشرين ألف عمل مخطوط، في فروع العلوم المختلفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي العصر الحديث، تم إنشاء مجموعة من المؤسسات الثقافية، مثل معهد الاستشراق والمكتبة الوطنية والمكتبة الجامعية بسراييفو، وتم تجميع أعداد كبيرة من المخطوطات بداخل هذه المؤسسات، خاصة مكتبة معهد الاستشراق، إلا أنّ عملية التدمير الصربية الهمجية، تجاوزت هدف محو البشر والحجر من المدينة، لتصل إلى محو معالم البلد التراثية، باستهداف المكتبات والممتلكات كلها، فقد طالت صواريخ الصرب معهد الاستشراق، ودمروا كل محتوياته، كما أصابت هذه الصواريخ سقوف المكتبة الوطنية والجامعية العامة، والتي احترقت بداخلها آلاف من المخطوطات والكتب المطبوعة، والتي كانت تحتوي على كنوز من المخطوطات الشرقية، التي تراكمت منذ الفتح العثماني للبوسنة، فمثلًا كان عدد مخطوطات مكتبة معهد الاستشراق خمسة آلاف ومائتين وستة وثلاثين مخطوطًا بالعربية والفارسية والتركية والبوسنية، وأقدم هذه المخطوطات كان يعود إلى عام ٤١٣هـ وهي «الفتاوى من النوازل» للسمرقندي، أما بعد الحرب فقد بقي من هذه المخطوطات خمسمئة وأربعة وستون مخطوطًا فقط أي عشرة بالمئة من مجموع هذه الكنوز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أندلسيات

الأندلس.. نهاية أليمة لحضارة عظيمة

بقلم: نهى عودة

الأندلس، اسم يحمل إرثًا مجيدًا، منذ فتحها المسلمون الأوائل في بداية القرن الثامن، وحتى سقوطها عام ١٤٩٢، يحتل موقعها المتميز وطبيعتها المبهرة مكانًا مميزًا في خرائط الجغرافيا، ويتصدر علماؤها وقادتها كتب التاريخ ليسطرا معًا فصلًا مهمًا في قصة الحضارة. لعل حضارة دولة الإسلام في الأندلس قد بلغت الحد الذي أصبحت لا تستطيع أية حضارة أخرى أن تضاهيها، وقد تحقق لها ذلك خلال فترة وجيزة. لم تنشأ تلك الحضارة وتتربع على عرش حضارات العالم -لتصبح الأندلس حاضرة العالم- عبثًا بل اجتمع لذلك عدد من العوامل التي ساعدت على ازدهار تلك الحضارة، وكان لابد للمجتمع الذي أفرز مثل تلك الحضارة المتفردة عن غيرها أن يكون متميزًا عن غيره. وهنا عادة ما يكمن السؤال: لماذا سقطت دولة الإسلام في الأندلس برغم حضارتها السباقة والمميزة؟ وهل يمكن لهذه الحضارة أن يكون لها علاقة بذلك السقوط؟!

على مستوى العلاقات الخارجية نجد أنّ ازدهار الحضارة الأندلسية شكل وازعًا قويًّا كي يصبح الأندلسيون منفتحين على العالم، فدائمًا ما تكون الدول المتحضرة شرهة لامتصاص المزيد، والاندماج مع من حولها من حضارات مختلفة. وقد ساهمت حقًّا الحضارة الأندلسية في تعريف الغرب بالحضارة الإسلامية ومآثرها، وكان النصارى في أوروبا خلال القرن العاشر الميلادي يرسلون أبناءهم للتعلم في قرطبة على سبيل التباهي بصفتها حاضرة العالم، وقد وصلت الحضارة الأندلسية لمرتبة عالية من التقدم في مختلف المجالات وذاع صيت علمائها في كل أوروبا، الأمر الذي جعل نقل علومهم السباقة أمرًا تسعى إليه كل أوروبا، كي تستطيع يومًا أن تلحق بركب الحضارة. وفي ظل هذا الكم من التحضر كان لا مفر من نشأة العلاقات الدبلوماسية، فلم يجد الأندلسيون حرجًا في إقامة علاقات رسمية بل شعبية أيضًا مع الإفرنج، وبالأخص الدولة البيزنطية بالرغم من أنها كانت تشكل العدو الأبرز للدولة العباسية. وتشير المصادر إلى أنّ الوفود الدبلوماسية كانت متبادلة بين الأندلس وبلاد الفرنجة، نذكر منها على سبيل المثال وفد الأمير عبد الرحمن الداخل إلى بيزنطة، الذي حمل رسالة من الأمير تتضمن رغبته في استمرار العلاقات الطيبة بين الطرفين. ومن ناحية أخرى يذكر أنّ ملك ألمانيا قد بعث بوفد إلى الخليفة الناصر، بينما بعث الناصر طبيبًا إلى أمير ليون ليساعده على تخفيف سمنته. ووصلت العلاقات في بعض الأحوال إلى المصاهرة مثلما كان من الملك المنصور، الذي تزوج ابنة ملك نبرة الإفرنجي، بعد أن أسلمت وتسمت عيدة وأنجبت له الأولاد. ولا دليل على تحضر أهل الأندلس على المستوى الاجتماعي، خير من تعاملهم مع سكان شبه الجزيرة الأيبيرية عقب فتحها، الأمر الذي جعل هؤلاء السكان يدخلون إلى الإسلام طوعًا، ومن بقي على دينه كان معززًا مكرمًا في كنف الحكم الإسلامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد شاع الاندماج والتزاوج بينهم وبين المسلمين، حتى نشأت طبقة من الشعب الأندلسي عرفت بطبقة المولدين، والتي نشأت نتيجة تزاوج الرجال المسلمين عربًا كانوا أم أمازيغ، من نساء أهل شبه الجزيرة الأصليين. وعلى النقيض نجد أنه على الرغم من الاستفادة العظمى التي منحتها الحضارة

الأندلسية في العلوم والفنون لأبناء أوروبا، إلا أنّ أبناء الممالك الأوروبية -بينما يمدون يدًا للمصافحة ومنح الهدايا والرسائل الودية المتبادلة كانت اليد الأخرى- تمد الممالك الشمالية في الأندلس بالعون والمرتزقة الذين جاؤوا ليأججوا سكانها لإشعال لهيب الثورة على الحكم الإسلامي، الأمر الذي جعل التوغل في الفتوحات الإسلامية صعبًا للغاية، حتى إنّ المنصور فتح برشلونة سنة ٩٨٥ م إلا أنّ هؤلاء الشماليين المتأججين غضبًا تمكنوا من انتزاعها مرة أخرى، ينبغي القول هنا إنّ هذه التحركات والتي كانت لفرنسا اليد الطولى في تنظيمها وتمويلها، لم تكن تتحرك بوازع حماس ديني لإعلاء كلمة المسيحية فقط، فقد كان الهدف الأكثر وضوحًا هو السعي وراء كنوز دولة الأندلس، التي ذاع صيت حضارتها وثرائها داخل كل بيت من بيوت أوروبا، والغنائم التي سوف تعود عليهم جرّاء انتصارهم في تلك الحروب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبينما أظهر أمراء الأندلس الودّ للدولة البيزنطية كانت قوات البيزنطيين تنخر في الشرق، وتتحالف مع الأعداء من المغول وغيرهم لإسقاط الممالك الإسلامية هناك. ومن جهة أخرى لم تحم تلك الوفود الدبلوماسية والهدايا المتبادلة طليطلة من السقوط في أيدي النصارى، وانفرط العقد حَتى سقطت غرناطة، فدقت أجراس أوروبا، وأقام بابا روما صلاة الشكر ابتهاجًا بسقوطها. ومن هنا نستنتج أنه مهما كان من ازدهار أمر الحضارة في الأندلس، فإنّ هذا لا يعني على الإطلاق إمعان الثقة في الأعداء، مهما أظهروا من ود،ومهما أبرموا من عهود، ولا ينبغي لأصحاب العقيدة الواحدة أن يناصر ويحالف أحدهما عدو الآخر، فمتى انتهى من الآخر جاء دور حليفه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما كيف يؤثر ازدهار الحضارة سلبًا على المجتمع فيبدو لأول وهلة أنّ الأمر غريبٌ بعض الشيء! إلا أنه بقليل من التفكر سنجد أنه لا ريب أنّ هناك علاقة طردية بين الاختلال الأخلاقي وبين انتشار مفاتن الحضارة التي تتحول بدورها بعد فترة وجيزة إلى حضارة ترفيهية استهلاكية يغلب عليها طابع الميوعة الأخلاقية، وما لم يقف المجتمع من ذلك موقف المقاومة فإنه لا مفر من تداعي تلك المجتمعات وزوالها. وليس مثالًا أوضح من دولة الإسلام بالأندلس لتمثيل ذلك، والتي استمرت زهاء ثماني قرون إلا أنّ أركانها تهاوت مثلما تتهاوى الجدران المتهالكة في لمح البصر، وكأنّ مرضًا ظل ينخر في أساسات تلك الحضارة العظيمة حتى تمكن منها، في حين أنّ أهلها كانوا منغمسين في الملذات والترهات ولم يستفيقوا إلا وهم تحت الركام! ويجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأزمة الأخلاقية التي نتج عنها تصدع الأندلس طالت كلا من الدولة والمجتمع، فمنذ عهد المرابطين الأواخر انعكس الاستقرار على الحياة الاقتصادية في الأندلس، وتطورت الزراعة والصناعة والعلوم، إلا أنّ أولي الأمر لم يولوا اهتمامًا للأعداء المتربصين بهم، ومالوا إلى جني ثمار هذا الاستقرار، وانصرفوا بعيدًا كل البعد عن حياة الزهد والتقشف، وسلكوا نهج حياة الدّعة والترف والتنعم، وتأنقوا في تشييد قصورهم التي اكتظت بالعبيد، وتفننوا في زخرفتها. وفي ظل تلك الأجواء المترفة كان لابد من شيوع جلسات الأنس والسمر، وبعد أن كانت الأندلس منارة للأدباء والشعراء، صار نظم القصائد والأشعار مبارزة بين الأمراء، يغدق كل منهم بالعطايا على مادحه. وفي هذا الجو المفعم بوسائل الإلهاء وعدم الاكتراث بالمسؤوليات التي تقع على عاتق أولي الأمر، صار الاستكثار من الإماء والجواري عامل تفاخر لدى أغلبهم، ولم يجد بعض الأمراء حرجًا من قضاء الليالي بين الغناء واللهو ومعاقرة الخمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل هذه العوامل كانت نتيجة لتحول الحضارة المدنية الأندلسية، من إنتاجية إلى استهلاكية، قوامها التفنن في هذا الاستهلاك، وقد تنبه بعضهم إلى خطورة هذا الوضع، وما سيجلبه من آثار سلبية على أخلاق المجتمع، فنجد بعض المؤلفات التي صدرت في تلك الفترة من طبيعتها أن تقوم بدور إسداء النصح، والتوجيه لما يجب أن تكون عليه أخلاق الملوك مثل كتاب «الإشارة في تدبير الإمارة» للقاضي أبي بكر الحضرمي، وكتاب «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي والذي ذكر فيه بإسهاب الأخلاق السياسية التي يجب أن يتحلى بها الحاكم، حيث لجأ بعض الحكام عندما شحت النقود في أيديهم إلى فرض ضرائب باهظة على الشعب. وفي هذا الصدد يذكر في «ريحان الألباب» للمواعيني: (وملك الملثمون بلاد الأندلس في ظل واقعة الزلاقة مدة، وجاهدوا أطراف العدو صدرًا من دولتهم، ثم أدبروا فخلدوا إلى الراحات والبطالات وفساد الأعمال والنيات، وكثر ظلمهم وحيفهم).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من جهة أخرى فإنّ الرعية لم تكن أفضل حالًا من ملوكهم؛ فقد تردّى المجتمع الأندلسي في هذه الفترة وشاعت الموبقات، فانتشرت عادة شرب الخمر في مختلف المدن الأندلسية حتى وصل الأمر أن ناشد محمد بن عبيد الله بن خاقان -وكان كاتبًا ومؤرخًا من النخبة في مدينة إشبيلية- أحد القضاة إلى العمل من الحد على تفشي الخمور، إلا أنّ الأمر انتهى بأن أقيم عليه نفسه الحد من قبل القاضي عياض حين دخل عليه مجلسه مخمورًا! وقد تم اتخاذ عدة إجراءات لمنع ذيوع هذه العادة حتى تضمنت بعض الأوامر الرسمية في مدينة بلنسية قطع مادتها وإراقتها أينما وجدت، إلا أنّ هذه الأوامر لم تكن من الحزم والشدة بما يسمح بانتزاع تلك العادة التي أضحت عادة اجتماعية مألوفة وخاصة في الأوساط الأرستقراطية. ولمزيد من التفنن في الترف واللهو يقول المقري في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: «اشتهرت بعض المدن الأندلسية بكثرة الملاهي وأماكن المجون والدعارة والمراقص مثل برشانه وأبذه، كما أنّ إشبيلية كانت مضرب الأمثال في الخلاعة»، وقد أضاف ابن سعيد المغربي في كتابه المُغرب في حُلى المغرب: «انتشرت عادات أخلاقية شاذة مثل اللواط في بعض الأحياء المشهورة كدرب ابن زيدون بقرطبة»، فضلاً عن استشراء الزنا والسفور وغير ذلك من المحرمات. وقد تشكلت رغبة جامحة لدى أمير كل منطقة في الأندلس أن يستقل بإمارته منساقًا خلف غريزة الطمع وحب التملك لكثرة الخيرات في الأندلس، وفي ذلك يقول المقري: «منذ وقعت الفتنة في الأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن إمام الجماعة، وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك، واعتادوا على ذلك فصعب ضبطهم إلى نظام واحد، وتمكن العدو منهم بالتفرق، وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع، فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة وتملك الأمصار الجليلة، وخروجها من يد الإسلام».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وخلاصة القول لابد من الإشارة إلى أن ابن خلدون قد وقف طويلاً في مقدمته عند مسألة الترف، واعتبر أنّ الترف يرتبط ارتباطًا وثيقًا بعملية التحضُّر والاستقرار، وبيّن ما يؤول إليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكس بدوره بالضرورة على مسيرة الحضارة ويأذن بتوقف تدفقها الإبداعي وبالتالي انحلالها ودمارها فيقول: «من مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ، ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط، وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخًا على الحقيقة»، هنا تسطع كلمات الله تعالى لتلخص في إيجاز بديع كيف

خسرنا الأندلس ولماذا، كيف ضاعت رغم حضارتها التي بلغت الآفاق وعظمتها التي تخطت الحدود، كيف نفرط أحيانًا في التغني بالأمجاد والتحسر عليها ونتناسى أنّ سنن الله في كونه نافذة، بسم الله الرحمن الرحيم «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» صدق الله العظيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بذور الفلسفة في أوروبا

بقلم: مريم المير

عرفت أوروبا في عصر التنوير نهضة وفلسفة جديدة، اعتمد فيها على نظريات فلاسفة ومنظرين، اتخذوا من الأسلوب العلمي منهجًا جديدًا قائمًا على الملاحظة والتجريب..

بيد أنه لا يمكن الحديث عن الفلسفة وتشعباتها دون الرجوع إلى الأصل، كيف بدأت الفلسفة في أوروبا؟ مَن بذر بذورها؟ وكيف أثمرت؟ ومن حصد الثمار؟

قبل قرون من أسطورة النهضة، في الوقت الذي كانت أوروبا غارقة في مستنقع الجهل والتخلف تحت رحمة الكنيسة؛ -إذ منعت كل ما يتعلق بأرسطو- كان في الجهة الأخرى من العالم أناس حصلوا على ما خطه اليونانيون في الفلسفة والمنطق، فترجموه وأضافوا له وأبدعوا، أتحدث هنا ابتداءً من زمن الخلافة العباسية حيث كانت البذرة..

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (٧٩٥- ٨٦٦ م)

يُعد مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية، لقب بـ «فيلسوف العرب»، ولد بالكوفة وتعلم في البصرة وبغداد، وترجم بالعربية مؤلفات اليونان، التي نقلت ومن ثم إلى اللاتينية، وضع الكندي اللبنة الأولى في توضيح مشكلة حرية الإرادة توضيحًا فلسفيًّا، فلاحظ أنّ الفعل الحقيقي ما كان وليد قصد وإرادة، وأنّ إرادة الإنسان قوة نفسية تحركها الخواطر، وهو من المؤمنين بالسببية، كما أنه يؤكد فكرة العناية الإلهية، التي يخضع الكون بمقتضاها لسنن ثابتة.

أظهر الكندي أن الإيمان والمنطق لا يتناقضان، وذلك عن نتاجه الفكري المذهل -الذي بلغ مجموعه ثلاثمئة وواحدًا وستين عملًا- وقد أقرّ أنّ الحقيقة التي كشف عنها محمد ﷺكانت مدعومة بالمنطق، وبأنّ أرسطو كان على حق ذلك أننا نرى النتائج في العالم. ويحكى أنّ أحد طلابه سأله ذات يوم عن المغزى في الآية «والنجم والشجر يسجدان» (سورة الرحمن ٦)، ولا يبدو أنّ الأشجار والنجوم قادرة على هذا الشيء! أجاب الكندي بتمعن في معنى «يسجدان» وقال: إنّ فعل السجود يعني نمو النباتات كما أمرها الله، وأضاف إنّ غرض العبادة يعني ببساطة أنّ الأشجار والنجوم تطيع الله كما أمرها. وهذه تتوافق كليًّا مع مفهوم أرسطو بأنّ الكون يطيع قوانين معلومة ونواميس ثابتة.

وهكذا وفّق الكندي في رؤيته ووجهة نظره الجديدة بين عقيدته وثقافة الإغريق، وقد فعل القديس توماس الإكويني نفس الأمر بعده بقرون لاحقة..

أبو بكر بن عبد الملك ابن طفيل Abubacer (ت ١١٨٤)

فيلسوف وطبيب أندلسي، اشتهر بكتابه الفلسفي الخيالي حيّ بن يقظان، حيث يحكي فيه قصة «حيّ» الذي تركه أهله في جزيرة صحراوية وحده منذ ولادته، لتربيه ظبية، ثم يتعلم البقاء على قيد الحياة وحده مع الحيوانات في تلك الجزيرة، كما علم حيّ نفسه قوانين الطبيعة اعتمادًا على الأسلوب العلمي للملاحظة والاختبار، فسرعن ما لاحظ أنّ ما يميزه عن بقية المخلوقات، قوة الإدراك التي يستخدمها عقله المنطقي ليفهم أمورًا كثيرة، حتى إنه علّم وافدًا جديدًا إلى الجزيرة.

هكذا استبق ابن طفيل اهتمام ديكارت بالعقلانية بمئات السنين، كما فعل عدة فلاسفة مسلمين، بيد أنّ تأثيره كان بعيد المدى، حيث إن قصته هذه كانت ملهمة للكاتب دانيال دوفو الذي نشر كتابًا عنوانه

«روبنسن كروزوي» وذلك بعد أحد عشر عامًا من ترجمة كتاب ابن طفيل للانجليزية في عام ١٧٠٨.

ابن رشد (١١٢٦/ ١١٨٢) Averroes

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فيلسوف وطبيب أندلسي ولد بقرطبة، عرف بالفيلسوف والشارح، لخّص وشرح عدة كتب لأرسطو وجالينوس، وقد ترجمت أكثر آثاره الطبية والفلسفية إلى اللاتينية والعبرية. وضاع أصول كثير منها وبقيت الترجمة، ومنها نصوص عربية بحروف عبرية.

يرى ابن رشد، على عكس ما اعتقد المسيحيون، أنّ وجود المعرفة وتجسيمها قبل الرسول ﷺ بمئات السنين وقبل نزول كلمات الله، لا يمنع بالمرة تفسيرها ولا يتعارض مع العقيدة الدينية. كما يرى العربي التقدمي أنّ الخلق من العدم خرافة، وأنّ العالم خالد خلقه الله وهو المنظم والمدبر للوجود. وهذا التدبير الإلهي يضيء المعرفة في روح الإنسان..

إضافة لهذا، فهو يؤكد أنه، برغم كل تباين مادي بين الفرديات فثمة دائمًا جوهر روحي موحد يجمع بينها؛ فالجزء السلبي من الروح هو جزء من الجسد يفنى بموته، لأنّ كل ما هو فردي زائل. أما الإيجابي الذي هو من الله وغير الذاتي، فهو الخالد. إنه كالشمس التي تضيء كل الأنحاء، والتي هي واحدة دائمًا وفي كل مكان. وهذا الجزء الإيجابي هو طريق اتصالنا بالله وهو خالد لا يموت.

لم يعان ابن رشد من الاضطهاد الديني كما يُشاع، وإنما كان عمله في الفلسفة السياسية، وفي التعليق على جمهورية أفلاطون المثالية، السبب في حرق كتبه، فقد تجرأ على مهاجمة الحكام في الأندلس، ووصفهم بالطغاة المنحطين، الذين فقدوا ثقة الشعب الذي يحكمونه، والذي أعطاهم الحق في الحكم في المقام الأول، كان نداء من أجل العدالة الاجتماعية، التي ألهبت النار في عقول مفكرين متأخرين أمثال روسو، جيفرسون وماكس، ولأنه ناضل ضد الاستبداد والجهل، عُد مارقًا، ودمرت سمعته وروحه، وخلافًا للرأي الشائع في الغرب، كانت السياسة وليس الإيمان هي التي أصابت منه مقتلًا.

مات ابن رشد لكن فلسفته لم تمت، حملها تلاميذه شمالًا وشرقًا، وتلقفها المسيحيون بشوق.. فقد وجدت فئة كبيرة من الشعب الخلاص في هذا المنهاج الجديد، لكنّ الكنيسة كانت بالمرصاد..

لقد أعطى فلاسفة ومنظرون مسلمون للفلسفة اليونانية قيمة، وحافظوا عليها من الاندثار عن طريق ترجمتها والتعليق عليها، ثم أضافوا عليها وابتكروا ما لم يكن معروفًا قبلهم، وصارت مظاهر الحركة العلمية الجديدة تنتشر شيئا فشيئًا في أوروبا والعالم..

لم يستغرق الأمر طويلًا حتى بدأت بوادر التغيير تلوح في الأفق، ولم تكن الكنيسة لتسمح بأي موضوع قد ينير بصائر الشعب الغارق في الجهل، فاتخذت وسائل وقائية عندها:

- سنة ١٢١٠م تم حظر كل ما يمت لأرسطو بصلة في باريس
- سنة ١٢٣١م عقد البابا غريغوريوس لجنة، لمناقشة أي الأجزاء في مؤلفات أرسطو يستحق الحفاظ عليه وأيها ستتلف؛ غير أنه في فترة المناقشة هذه التي امتدت لسنوات، تم حظر أرسطو بالكامل إلى حين تقرير الأمر.
- سنة ١٢٣٦م تم تجديد الحظر من طرف البابا الجديد.

غير أنّ كل هذا المنع لم يؤت أكله تمامًا، ذلك أنه في أقصى أوروبا، في شبه الجزيرة تحديدًا كان هناك أثر ابن رشد الذي ترجم أعمال أرسطو وعلق عليها، لينقذ اسم أرسطو وأعماله من الاندثار، هذا الإرث الإسلامي هو الذي جعل الفلسفة اليونانية، تكتسب شعبية في أوروبا المسيحية.

نذكر هنا على سبيل المثال؛ أستاذ الطب بيدرو دابانو، ورئيس جامعة «بادو»، كان من أقوى أنصار ابن رشد، حتى إنه أدخل ابن رشد وأرسطو في المناهج التعليمية في الكلية، وكان مصرًّا أنه على علوم الفلسفة الطبيعية أن تكون الأساس الجديد للعلم.
وبالفعل، قام دابانو مع آخرين بالتعبير عن مفهوم جديد في أوروبا، مستندًا على أعظم إسهامات الإسلام في العالم: «الأسلوب العلمي»، فلم تعد الوسائل التقليدية المعتمدة على الكتاب المقدس، هي أصل العلم، ولم تعد كافية لاستكشاف الحقيقة، بل عوضتها الملاحظة والتجريب والمنطق.
لم يستمر هذا طويلًا فسرعان ما أدين دابانو، من طرف محاكم التفتيش، بتهمة الهرطقة ومخالفة العقيدة الكاثوليكية، وحكم عليه بالموت، ورغم أنه توفي قبل موعد حكمه إلا أنّ محاكم التفتيش أصرت على حرق جثته على وتد، ووفقًا للرواية التاريخية فقد خبأها تلاميذه الأوفياء لتقوم الكنيسة عندها بإحراق دمية بدلًا من جثته!
ترك دابانو بعد وفاته طالبًا نبيهًا، أدرك قيمة الفلسفة الإسلامية لهذه الحركة الجديدة التي صارت تعرف بعصر النهضة، كان اسمه دانتي اليغييري، و قد بلغت درجة إعجابه بابن رشد وابن سينا، أن وضع اسميهما في منطقة الأعراف بدل الجحيم، في الكوميديا الإلهية.
اقتبس القديس توما الإكويني أيضًا من ابن رشد وابن سينا، وحاول أن يفعل مثل ما فعله الكندي قبله بقرون؛ أن يوفّق بين إيمانه والفلسفة الجديدة، وأصبح نظام هذا القديس المذهب الرسمي للكاثولوكية، وقد عرف بالسكولاتية.
غير أنه في نهاية القرون الوسطى، وفي سنة ١٥١٢م تحديدًا، أدان المجلس الكنسي فلسفة ابن رشد، وأعلن أنّ كل من يتبعه زنديق وكافر..
وحتى بعد أربع مئة عام من وفاة ابن رشد هددت محاكم التفتيش غاليليو، واستمرت في عملها حتى القرن التاسع عشر. وكان المسيحيون يقتلون المسيحيين الآخرين واليهود والمسلمين في أوروبا طوال قرون، كان هذا حال كل من يفكر في استخدام عقله، والخروج برأي جديد بعيدًا عن الرؤية الكنيسة وأهوائها، ورغم أنّ تراث الفلسفة الإسلامية صار جزءًا لا يتجزء من التراث الأوروبي، يأتي أمثال المستشرق جي جي ساندرز مثلًا ليصرحوا بأقوال أقل ما يقال عنها أنها محملة بالوهم، مثلًا: «لقد قام المسلمون، كما شاهدنا، باستعارة الكثير من اليونانيين، ولكن بطريقة محدودة وغير مباشرة: لم ينتم ماضي اليونانيين إليهم أبدًا، بالدرجة التي هي عليه عند المسيحية»
هذا هو جوهر الأسطورة. كم سيكون غريبًا لابن رشد أن يقرأ هذه الفقرة أو ابن سينا أو المترجمين في بيت الحكمة، أو الرازي، أو أي من الباحثين المسلمين الذين لا يحصون والمجهولين الذين كانوا يشترون كتب أرسطو من المكتبات عندما نسي الأوروبيون القراءة.
سوف يخبرونك أنّ الفكر اليوناني يخصّ الإسلام بقدر ما يخصّ المسيحية. سوف يذكرونك بأنهم هم من أنقذ اليونانيين عندما كان المسيحيون يحرقونهم. كانوا هم من ترجموهم وناقشوهم وعلقوا عليهم وحسنوا أنظمتهم. لقد أعطى المسلمون للمسيحيين علمهم وطبهم وموسيقاهم، وطعامهم وملابسهم، وشعرهم وفلسفتهم ورياضياتهم. كانوا هم من أخرج أوروبا من العصور المظلمة إلى عصر التنوير.
هذا هو السرّ المريع الذي تحاول أسطورة النهضة أن تخفيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المرأة والنهضة الأندلسية

بقلم: مريم المير

بين كل فترة و أخرى تتعالى أصوات، تطالب بحرية المرأة و الدفاع عن حقوقها المهضومة في العالم العربي خاصة، رغم أنّ الإسلام كان أول مَن دعا إلى تحرير المرأة وإخراجها من براثن الجاهلية، حيث أعاد لها كرامتها وجعلها جزءًا من كيان المجتمع، مع مراعاة الفوارق النفسية والجسدية بين الرجل والمرأة، بما يضمن كرامة وحقوق كل منهما.
وقد اعتبرت المرأة من أهم دعامات البناء الحضاري، للمجتمعات الإسلامية عبر التاريخ، انطلاقًا من تربيتها جيل النهضة في بيتها أولًا، ومشاركتها في الحياة الثقافية والعلمية، وإسهاماتها المميزة في شتى الميادين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إنّ الناظر لكتب التاريخ ليجد من سير النساء المسلمات عطاءً قويًّا وإبداعًا فكريًّا زاخرًا ومكانة مرموقة لم تكن لتحلم بها المرأة في المجتمعات غير المسلمة في ذلك الزمن. فخلال فترة العصور الوسطى مثلًا؛ تلك التي تسمى بالعصور المظلمة، والتي امتدت من حوالي القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر ميلادي، في خضم العتمة والجهل والأمراض، وكل ما يمت للتخلف بصلة، كانت الرؤية الكنسية للمرأة محددة في أنها «أداة في يد الشيطان للتنكيل بالرجل...» وكان الجدل قائمًا في الأديرة والكنائس حول بشرية المرأة، وحول كونها من ذوات الأرواح أم لا؟!؛ كان هناك في شبه الجزيرة الإيبيرية عالم آخر في أوج عصره الذهبي، حيث عرفت فترة المسلمين في الأندلس بإشعاعها ورقيّها في شتى المجالات، وبلغت الحضارة فيها مبلغًا، لدرجة أنّ قرطبة وحدها على سبيل المثال لا الحصر، قد فاقت كل حواضر أوروبا مدنية -أثناء القرن العاشر- وباتت محط إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السيّاح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينة؛ التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمئة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جرّاح، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي فلا يتجهون بمطالبهم إلا إلى قرطبة.
وما كان للحضارة أن تبلغ ذروتها، لولا المشاركة الفعلية على المستوى التعليمي التعلمي والتربوي والفكري للمرأة الأندلسية، بل كانت لها بصمات خالدة في هذا التقدم، وكان لأمراء وخلفاء المسلمين دور بارز في تشجيع تعليم المرأة، مما خلق روح التنافس في طلب العلم عند نساء الأندلس، ويشهد على هذا قول مارك غراهام في كتابه: «كيف صنع الإسلام العالم الحديث» إذ يقول: «أعطيت المرأة خيارات أكثر في إسبانيا الإسلامية من أي مكان آخر في أوروبا، وكالعادة كان المنزل مجال نشاطهن المألوف، ولم يكن تعليم النساء أمرًا غير معروف، حتى إنهنّ كنّ يلقين محاضرات عن القانون وعلم الدين، وتباهت الأندلس بالكثير من مدارسها المختلطة، حيث تستطيع الزوجات الحضور مع أزواجهن أو البنات مع آبائهن، وحصلت على الشهادات كالرجال تمامًا، مما خولهنّ حق التدريس أو حتى افتتاح مدارسهن الخاصة، حتى إنّ أحد الأمراء تزوج جارية إفريقية، لإعجابه بإنجازاتها الفكرية «.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعملت الكثير من النساء كناسخات للكتب، حيث كنّ ينسخن القرآن بخط اليد لعامة الناس الذين يشترون الكتب، وافتخرت مطبعة قرطبة في إحدى المرات بمئتي امرأة من الناسخات، وكانت الكثير منهن يُعِلْنَ عائلاتهن من هذا الدخل، وإنّ مجرد فكرة أنّ عامة النساء يمكنهن القراءة كانت صاعقة للمسيحيين في الشمال. فهذا عبد الواحد المراكشي يخبرنا نقلًا عن ابن أبي الفياض، أنّ ربض قرطبة الشرقي كان يحوي ما يناهز مئة وسبعين امرأة، كانت تكتب القرآن الكريم بخط كوفي رفيع. وكثيرة هي الأنباء التي تؤكد لنا، أنّ إتقان المرأة الأندلسية للخط العربي العتيق، أهلها لنيل رتبة كاتبة، وولوج عالم المراسلات الرسمية داخل القصر.

وتطلعنا كتب التراجم بمعلومات شيقة وطريفة، عن النساء العاملات في الأندلس، كأن تشير إلى انصبابهن التامّ على الدراسة، وانشغالهن الكلي بمجال العلم، وبالتالي عزوفهنّ عن الزواج. وكثيرة هي الأسماء الواردة في هذا الصدد، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، اسم عائشة بنت محمد بن محمد بن القاضم، وولادة بنت المستكفي، وحفصة بنت الحاج الركونية، وغيرهن من الأسماء اللامعة في هذا المضمار.

هذه الحضارة التي بدأت بـ «اقرأ»، حظيت فيها النساء بمكانة مختلفة عن بقية الأمم، وكيف لا، وإحدى سورة القرآن الكريم سميت بـ «النساء» وقد أوصى النبي بهنّ خيرًا ووصفهن بأنهنّ شقائق الرجال، ولعل «أم عمر» طبيبة القصر الموحدي و«مريم بنت يعقوب» الأديبة الشاعرة، وغيرهما الكثير، لخير دليل على مكانة المرأة المسلمة السامية في ظلال التاريخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شاعرات أندلسيات

بقلم: مريم المير

عرفت الأندلس بمكانة اللغة العربية السامية فيها، الشيء الذي جعل الشعر مادة خصبة للإبداع من طرف عدد كبير من الناس، لم يكن الأمر حكرًا على الرجال فحسب، بل وضعت النساء بصمتهن الخالدة في هذا المجال، وعُدّ شعرهن ملمحًا بارزًا من ملامح الشعر الأندلسي.

اتسمت شاعرات الأندلس بالفصاحة والبلاغة، واشتهرت العديدات بأنهنّ شاعرات بالفطرة، يقول المقري في كتاب «نفح الطيب» في مستهل فصله عن النساء: وإذا وصلتُ إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس، فقد رأيتُ أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولى في البلاغة؛ كي يُعلم أنّ البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم»!

اخترت أن أبدأ الحديث في الجزء الأول من مقال شاعرات الأندلس، عن أميرة أندلسية لامست بشعرها القلوب نظرًا لقصتها المؤثرة، أتحدث هنا عن «بثينة بنت المعتمد بن عباد»، بيد أنه لا يمكننا المرور لها، دون أن نعطي شذرات من حياة والدتها اعتماد الرميكية.

اعتماد الرميكية شاعرات الأندلس

يُحكى أنّ المعتمد بن عباد كان يتمشى في بعض مروج إشبيلية، على ضفاف الوادي الكبير، مع وزيره أبي بكر بن عمار، حين ارتجل فجأة «صنع الريح من ماء الزَّرد» ثم صمت ملتفتًا لرفيقه ينتظر منه إكمال البيت، بيد أنّ التتمة جاءت من صوت أنثوي خلفه «أيُّ درعٍ لقتال لو جمد»، التفت ابن عباد ليرى مصدر الصوت، فإذا بها امرأة تغسل الملابس على النهر، تعجب من براعتها و بديهتها، وأعجب بها، ثم علم بعد أن سأل عنها أنها جارية لرميك بن حجاج.

وهكذا، لم يمرّ وقت بعد هذه الحادثة حتى اشتراها من صاحبها وتزوجها.. وتحكي كتب التاريخ عدة قصص بين المعتمد وزوجته حيث كان لا يردّ لها طلبًا، وانتشر الكلام بين الناس عن انغماسه في حياة اللهو والتبذير، إرضاء لرغباتها، ويُعد «يوم الطين» من أشهر الحوادث التي خلد ذكرها.

يُذكر أنّ اعتماد رأت جواري يبعن اللبن، وقد شمرن عن سوقهنّ وسواعدهن يخضن في الطين، لتخبر زوجها أنها اشتهت أن تفعل مثلهن، فما كان منه إلا أن أمر بجلب العنبر والمسك، وسحق الطيب، ثم غطيت به كل ساحة القصر، وصُب ماء الورد عليها، وقد عُجِنَ ذلك حتى أصبح كالطين، لتخوض فيه الرميكية وبناتها وجواريها..

كما كان لها نفوذ سياسي واضح في عهد زوجها، بحيث أمرته بقتل الوزير أبي بكر محمد بن عمار بسبب هجائه لها، في هذين البيتين:

ألا حيِّ بالغرب حيّا حلالا أناخوا جمالا وحازوا جمالا

تخير من بني الهجين رميكية ما تساوي عقالا

لم يكن هذا هو السبب الحقيقي في قتله، بل كانت هناك أسباب سياسية أدت إلى ذلك، كاستغلال أبي بكر مكانته الرفيعة لدى المعتمد، فحاول اقتسام ملكه عندما وثب على مرسية بعدما استرجعها ابن عباد، وهو الأمر الذي أقلق الرميكية ورفضته، فقتله ابن عباد بأمر منها.

وتمر الأيام لينتهي حكم بني عباد في الأندلس، وتنقل الرميكية مع زوجها وأولادها أسرى إلى المغرب من طرف المرابطين، حيث قضت أربع سنوات، هي ما تبقّى من عمرها رفقة زوجها في

أغمات، وتوفيت سنة ٤٨٨هـ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بثينة بنت المعتمد

تعد بثينة رائدة من رائدات القصة الشعرية في عصر الطوائف، وقد بلغت هذه الشاعرة من البراعة الشاعرية والصفاء في الأسلوب المهذب الرقيق مبلغًا، استطاعت فيه أن تنقل قصة واقعية من أكثر القصص في التاريخ أسى، وأخذًا بمجاميع الإحساس والخواطر بإطار شعري، فجاء شعرها مزدانًا بفيض من الأسى والرقة.

ورثت هذه الأميرة الأندلسية روح المعتمد الشاعرة، فلم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه و لا أوسع مادة، وكانت ذات جمال بارع وحسن باهر، حاضرة الجواب سريعة الخاطر، حلوة النادرة كأمّها الرميكية.

سبيت بثينة مع جملة النساء من قصر أبيها، فاشتراها تاجر وهو ناكر لنسبها، ووهبها لابنه على أنها جارية، فلما أراد الدخول عليها، ورأت الجد في الأمر امتنعت، وأظهرت نسبها وقالت لا أحل لك إلا بعقد يجيزه أبي. وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار الجواب، فوافق الشاب ووالده على رأي بثينة، ووقع عندهما كلامها موقعًا عظيمًا، فكتبت إلى أبيها كتابًا تستشيره، جاء فيه:

اسمع كلامي واستمع لمقالتي
فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أني سبيت وأنني
بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره
وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شمنا
وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه
فدنا الفراق ولم يكن بمرادي
فخرجت هاربة فأعجلني امرؤ
لم يأت في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني
من صانني إلا من الإنكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهرٍ
حسن الخلائق من بني الإنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا
ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا أبتي تعرفني به
إن كان ممن يرتجي لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها
تدعو لنا باليمن والإسعاد

وصل الكتاب إلى المعتمد وهو في معتقله بأغمات، يعاني ظروفًا قاسية و يتفطر كمدًا على حاله وحال أولاده وزوجه، وكان ذلك سلوى له بطريقة أو بأخرى هو واعتماد، فقد سُرّا لحياة ابنتيهما ووافقا على الزواج، ثم أشهد على نفسه بعقد نكاحها من ابن التاجر وكتب يهنؤها، وكان آخر ما في رسالته نصيحة لبثينة المقبلة على الزواج قائلا:

بنيتي كوني به بــــــرة فقد

قضى الدهـــــــــــر بأسعافه؟

حفصة الأندلسية

حفصة الأندلسية تعد إحدى شواعر النساء الأندلسيات الشهيرات في القرن السادس عشر الهجري، بل هي شاعرة غرناطة في وقتها على الإطلاق حباها الله مالًا وجمالًا، وشرفًا ومكانة، يقول عنها المؤرخ الأندلسي الفذّ، لسان الدين بن الخطيب: «أديبة أوانها، وشاعرة زمانها، فريدة الزمان في الحسن والظرف، والأدب واللوذعية «

نسبها ومولدها

تنتسب حفصة إلى «ركانة» أو«ركونة» Requena وهي بلدة أندلسية تقع إلى الشرق من بلنسية، فيقال حفصة الركونية، وقد اختلف الباحثون في تحديد تاريخ ولادتها، فيرى «لويس دي جياكومو«Louis Di Giocomo أنها ربما ولدت في حدود ٥٣٠هـ / ١١٣٥م، ويشاركه الرأي د. الطاهر أحمد مكي أيضًا.

يقول ابن دحية في كتابه: «المطرب من أشعار أهل المغرب؛»إنها من بشرات غرناطة» كما ترجح المصادر على أنّ أسرة حفصة انتقلت إلى غرناطة قبل ولادتها، نظرًا لاضطراب الأحوال الأمنية شرق الأندلس في أواخر عهد المرابطين. وتصنف من بين الأسر المعروفة «بالحسب والأدب والمال».

نشأتها وشبابها

عاصرت حفصة حقبة حرجة من تاريخ مدينة غرناطة، وهي فترة انتقال السلطة من المرابطين إلى الموحدين، وما صاحبها من حروب وتوتر، ولم تستقر الأحوال فيها إلى في حدود سنة ٥٦٦هـ، إثر تمكن الموحدين بسط سلطتهم عليها. كانت حفصة في هذه الأثناء تبلغ حوالي العشرين من عمرها، وبدأت شاعريتها بالتفتق والظهور في هذه الفترة، حيث تعرفت على شاب من من أسرة عريقة، تقيم في قلعة بني يحصُب بالقرب من غرناطة، يدعى أحمد بن عبد الملك بن سعيد ويكنّى «أبو جعفر».

لم تذكر لنا المصادر كيف التقت شاعرتنا بأبي جعفر ولا تاريخ لقائهما، ويعلق الدكتور الطاهر المكي عن هذا قائلًا: «ما أسهل أن يلتقي شاعر وشاعرة في مجتمع يطرب للشعر، ويجل الشعراء، ويهزه الإنشاد الجميل»

نشأت بين أبي جعفر وحفصة علاقة حميمة أشبه بعلاقة ابن زيدون وولادة، واشتهرا بذلك حتى أصبحا حديث الناس في شوارع غرناطة، وفي هذا الصدد يرى الريسوني أنّ حب حفصة لأبي جعفر كان من العوامل الفعالة، في إبراز عملها الشعري إلى الوجود الأدبي، إذ إنّ جانبه الأكبر تعبير عن حياتها العاطفية، وقد جاء معظمه في شكل مراسلات تبادلها الحبيبان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعرها

المعلوم أن أبا جعفر كان شاعرًا لبيبًا، ووزيرًا لحاكم غرناطة الموحدي؛ عثمان بن عبد المؤمن، فلما تولى مهمته كتبت إليه تهنؤه بقولها:
رأستَ فَما زالَ العداة بظُلمهم
وَعلمهم النامِي يقولونَ لم رَأس
وَهل منكرٌ أَن سادَ أهل زمانهِ
جموح إِلى العليا حرون عن الدَنَس
وتمضي الأيام ليتطور حبهما وتكثر اللقاءات بينهما، فيحكى أنها التقيا يومًا في بستان «حور مؤمل» بغرناطة، فلما حان وقت انصراف كل منهما إلى حيث يقيم، أنشد الوزير الشاعر هذه الأبيات وبعثها لحفصة -ذلك أن التراسل شعرًا كان من عادتهما-:
رعى اللهَ ليلًا لم يُرع بمذمّم
عشية وارانا بحور مؤمل
وقد خفقت من نحو نجد أريجةُ
إذا نفحتُ جاءت بريا القرنفل
وغرد قمري على الدوح وانثنى
قضيب من الريحان من فوق جدول
فأرسلت إليه مجيبة بأبيات تحمل في طياتها قلقًا وخوفًا جاء فيها:
لعمركَ ما سرّ الرياض بوصلنا
ولكنّه أَبدى لنا الغلّ والحسَد
وَلا صفّق النهرُ اِرتياحًاَ لقربنا
وَلا غرّد القمريّ إلّا لما وجد
فَلا تحسن الظنّ الّذي أنت أهله
فَما هو في كلّ المواطنِ بالرشَد
ما خلت هذا الأفق أبدى نجومهُ
لأمرِ سوى كيما تكون لَنا رصَد
الجدير بالذكر أنّ حفصة في جرأتها في الهجوم على معاني الشوق والعشق، فاقت أية شاعرة أخرى، وهي بذلك فاق غزلها بالرجل غزل الرجل بالنساء، فكانت تزور أبا جعفر بغير موعد، والشاهد على هذا قول أبي جعفر:
«أقسم ما رأيت ولا سمعت مثل حفصة، ومن بعض ما أجعله دليلًا على تصديق عزمي وبّر قسمي أني كنت يومًا في منزلي مع من يجب أن يّحلى معه من الأجواد الكرام، على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم نشعر إلا بالباب يضرب، فخرجت جارية تنظر من الضارب، فوجدت امرأة، فقالت لها: ماذا تريدين، فقالت ادفعي إلى سيدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها:
زائر قد أتى بجيد غزال
طامع من محبه بالوصال
أتراكم بإذنكم مسعفيه
أم لكم شاغلٌ من الأشغال»
ويكمل لنا صاحب الإحاطة ما حدث بعد هذا فيقول:

«فلما وصلت الرقعة إليه، قال ورب الكعبة، ما صاحب هذه الرقعة إلا الرقيعة حفصة، ثم طلبت فلم توجد. فكتب إليها راغباً في الوصال والأنس الموصول:

أي شغل عن الحبيب يعوق
يا صاحبًا قد آن منه الشروق
صل وواصل فأنت أشهى إلينا
من جميع المنى فكم ذا تشوق
بحياة الرضى يطيب صبوحٌ
عرفاً إن جفوتنا أو غبوق
لا وذل الهوى وعز التلاقي
واجتماع إليه عز الطريق»

لم تكن خاتمة هذه العلاقة نهاية سعيدة، ذلك أنّ أمير غرناطة غار من أبي جعفر، وحاول التقرب من حفصة لكن دون جدوى، فقد كان حاد الطباع، ولم يكن يملك مؤهلات قد تبهر قلب شاعرة ثقيلة الوزن كحفصة، هكذا بدأت تتوتر علاقة الأمير مع وزيره وصارا يتحينان الفرصة ضد بعض. فمما يحكى أنّ أبا جعفر خرج ذات يوم في رحلة صيد مع أصدقائه، فكان مما أنشده تعريضًا بالأمير الموحدي:

فقُل لحريصٍ أن يراني مقيَّدًا
بخدمته لا يُجعلُ البازُ في القفصِ
وما كنتُ إلا طوع نفسي فهل أُرى
مُطيعًا لمن عن شأو فخري قد نقص!

انتهى الأمر بأبى جعفر أن ائتمر مع أخيه وبعض أقاربه، على الانضمام إلى أحد المتمردين شرق الأندلس يُسمى محمد بن مردنيش، ولحق أخوه وأقاربه بقلعتهم في بني يحصب. ولكنه جبن وتأخّر، ثم فرّ إلى مالقة، ليركب منها البحر إلى بلنسية، ولكن عمال السيد الموحدي اكتشفوا أمره وقبضوا عليه، فأمر بقتله، وكان مصرعه في جمادى الأولى سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤ م).

الرحيل من غرناطة

تأثرت حفصة بوفاة أبي جعفر ،وظل مقتله يشكل غصة لديها، فلبست السواد، وأعلنت الحداد، وشاع ذلك في غرناطة، حتى جاءها التهديد الصريح بالقتل إن هي استمرت على هذا النوح والبكاء، فقالت:

هدّدوني من أجل لبس الحدادِ
لحبيبٍ لي أردوْه بالحدادِ
رحم الله من يجودُ بدمعٍ
أو ينوحُ على قتيل الأعادِ
وسقته بمثلِ جودِ يديْه
حيث أضحى من البلادِ الغوادِ!

وعليه فقد رحلت إلى مراكش عاصمة الموحدين آنذاك، وقد تقدم بها العمر، فحظيت عند الأمراء هناك، حتى استخدمها المنصور الموحدي لتعليم نسائهم، وظلت هناك حتى وفاتها ٥٨١هـ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أديبات أندلسيات

بقلم: مريم المير

تؤكد جميع المصادر على الدور المميز للمرأة الأندلسية في ازدهار الثقافة وتطور المجتمع، وقد ركزت مجموعة كبيرة منها حول موهبة المرأة وتميزها في مجالات الشعر والأدب والفنون. بالرغم من أنَّ عددًا من النساء لم تنلن حقهنّ من الذكر، وسقطت أسماؤهن من ذاكرة التاريخ، إلا أنّ هناك عددًا ممن سرى ذكرهن على الألسن وبين طيات الكتب، نتناول في هذا المقال ومضات من حياة الأديبتين، عائشة بنت أحمد القرطبية، ومريم بنت يعقوب الأنصاري، مما توفر لنا من المصادر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عائشة بنت أحمد القرطبية

هي عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية الشاعرة والأديبة والخطاطة، عاشت خلال القرن الرابع الهجري، وعاصرت أوج النهضة العلمية والأدبية خلال هذا القرن، حيث شهدت هذه الفترة نشاطًا كبيرًا، وتنافسًا بين العلماء في مختلف الميادين والمجالات..

وقد تعلمت عائشة النحو، والصرف، والبيان، والعروض، والحديث، وفتحت حلقة للتدريس، يُذْكر أنها سمعت عن زوجها الحافظ نجم الدين الحسني، وعن الإمام ابن الخباز، والمرداوي، ومن بعدهما حدثت، وانتفع الناس بمعارفها وعلومها، حتى إنها فاقت أهل زمانها علمًا وأدبًا ومعاشرة وعفة.

وهكذا عرفت عائشة بأنها حسنة الخط، تكتب المصاحف والدفاتر بخط عربي جميل متقن، وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة حسنة، حوت العديد من المخطوطات والكتب النادرة.

كما يروى أنها كانت تبلغ ببيانها ما لا يبلُغه كثير من الأدباء، فلم يكن في زمانها من حرائر الأندلس مَنْ يَعْدِلُها علمًا وفهمًا وأدبًا وشعرًا وفصاحةً، وكانت تمدحُ ملوك زمانها، وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها، ولا ترد شفاعتها.

ويذكر أنها دخلت يومًا على المظفر بن أبي عامر، وبين يديه ولد من أولاده، فأنشدت:

أراكَ اللـــهُ فــــيه مـــا تُريد
ولا بَرِحَت مـعالــيه تـــــزِيدُ
فقد دلَّت مَخَايِــــلُه عـــــلى
تُؤَمّله، وطالــعه الســـــعيدُ
تشوقـــت الجــياد له وهزل
حسام هوى، وأشرقت البنود
فسوف تراهُ بَـــدرًا في سَماءٍ
من العليا كـــواكبه الجـــنودُ
وكيف يخيب شِـــبل قد نَمَتْهُ
إلى الـعليا ضراغمــــةٌ أُسودُ
فأنتم آلَ عامِــرَ خـــــيرُ آلٍ
زكا الأبـــناءُ منكمْ والجــدودُ
وَلِيدُكمُ لـــدى رأي كـــشيخ

وشيخكم لدى حَرْبٍ وَلِيْـــدُ
الجدير بالذكر أيضًا أنها كانت من أثرياء قرطبة، سخرت جزءًا من مالها لإعانة المحتاجين، كما كانت تقضي حوائج الناس نظرًا لقربها من ذوي الشأن، غير أنها لم تتزوج رغم مكانتها ورغم خطبة الكثيرين لها، ومما يحكى أنه خطبها شاعر فلم تره كفؤًا لها، ولما ألح في رغبته بالزواج منها كتبت إليه تقول:

أنـــا لبــوة لكنـنــي لا أرتضـــي نفسي
مُناخًا طول دهري من أحدٍ
ولو أنني أختـــار ذلك لم أُجِــبْ
كلبًا وكم غَـلَّقْتُ سمعي عن أسد

و لعل عزتها وكبرياء نفسها ما جعلها تتوفى دون أن تتزوج، وقد قال عنها ابن حيان في هذا الصدد: «ماتت عذراء لم تنكح قط، سنة أربعمئة للهجرة»
تركت عائشة عددًا من الكتب والمؤلفات كما زخرت المصادر بشعرها الارتجالي الرصين. وقد شهد بغزارة علمها الكثيرون، منهم صاحب «المغرب» الذي قال عنها: «إنها من عجائب زمانها وغرائب أوانها، وأبو عبد الله الطبيب عمها ولو قيل: إنها أشعر منه لجاز»

مريم بنت يعقوب الأنصاري

هي مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الفُصولي الشلبي الحاجَّة، وكما تدل كنيتها فأصلها من مدينة شِلْب (Silves) في جنوب البرتغال تتبع مقاطعة الغرب، لكنها أقامت واشتهرت بمدينة إشبيلية بالأندلس بعد الأربعمئة.
عرفت مريم بكونها امرأة ذات ثقافة عالية، درست الشعر والأدب والبلاغة، مما مكنها من احتلال منزلة مرموقة عند علية القوم في البلد، كما أجمعت المصادر أنها كانت تطوف بيوت إشبيلية لتعلم النساء الصرف والنحو والأدب، وكانت تغدو على بنات سادات المدينة أيضًا تعلمهن الشعر، وربما تخرّج في مدرستها طائفة من النساء الشهيرات في الأندلس.
ومما يُروى عنها أنّها كانت تمدح ابن المهند و يساجلها شعرًا، ويبرز للقارئ من خلال هذه المساجلات، حجم الاحترام، والإجلال الكبير الذي كان يبديه لها، حيث يشبهها بمريم العذراء في ورعها، وبالخنساء في شعرها.
يقول عنها الحميدي(٤٢٠-٤٨٨هـ) في كتابه جذوة المقتبس: »..وأخبرني أنّابن المهند بعث إليها بدنانير، وكتب إليها:

مالي بشُكرِ الذي أوليْتِ من قِبَلِي
لو أنني حُزْتُ نُطْقَ الإنسِ والخَبَلِ
يا فَرْدَةَ الظَّرْفِ في هذا الزّمان ويا
وحيدةَ العصْرِ في الإخلاصِ والعملِ
أشْبَهْتِ مريماً العذراءَ في وَرَعٍ
وفُقْتِ خنساءَ في الأشعارِ والمُثَلِ

وردت عليه مريم بقصيدة تمدح فيها الأمير، الذي بعث إليها من ماله، وخلع عليها من أدبه قائلة:

مَنْ ذا يجاريكَ في قولٍ وفي عملِ
وقَدْ بَدَرْتَ إلى فضْلٍ ولم تُسَلِ

ما لي بشكرِ الذي نَظمْتَ في عُنَقي
منَ اللآلي وما أوْلَيْتَ من قِبَلِي
حَلَّيتني بِحُلًى أصبحتُ زاهيةً بِها
على كلِّ أُنثى مِنْ حُلىً عُطُلِ
لله أخلاقُكَ الغُرُّ التي سُقِيَتْ
ماء الفراتِ فَرَقَّتْ رقَّةَ الغَزَلِ
أشبهْتَ في الشعر مَنْ غارت بدائعُهُ
وأنْجَدَتْ وغَدَتْ من أحْسن المُثلِ
من كان والدُهُ العَضْبَ المهنَّدَ لم
يَلِدْ من النَّسلِ غير البيضِ والأسَلِ
وذكر الحميدي شعرًا لها شعرها حين كبرت وعَمَّرَت، وقال: أنشدني لها أصبغ بن السيد الإشبيلي:
وما تَرْتَجي مِنْ بِنْتِ سبعين حِجَّةً
وسبع كنسْجِ العَنْكبوتِ المهلْهل
تدِبُّ دبيبَ الطِّفْل تَسْعى إلى العصا
وتمشي بِها مَشْيَ الأسير المُكَبَّلِ
تجدر الإشارة إلى أنّ الأبيات الثمانية السالفة هي كل ما وصلنا من شعرها، رغم أنها اعتُبرت أستاذة مخضرمة من أساتذة الشعر في وقتها. وإلى جانب قوتها العلمية، اشتهرت مريم بنت يعقوب كذلك بقوتها الأخلاقية بالتزامها بالصّون والعفاف والحشمة.
وكما روت عن نفسها في الأبيات السابقة، فقد عاشت إلى أن بلغت السبعين، وتوفيت رحمها الله بعد ٤٠٠هـ/١٠١٠م.
يزخر التاريخ الأندلسي بأسماء نساء وضعن بصماتهنّ فيه، وما عائشة بنت أحمد القرطبية ومريم بنت يعقوب الأنصاري، سوى قطرتين في سجل العالِمات الأندلسيات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طبيبات أندلسيات

بقلم: مريم المير

في كل مرة يثار الحديث عن «عالمات أندلسيات»تقفز إلى أذهاننا أسماء شهيرات برزن في الشعر والأدب وكل ما يمتّ له بصلة، رغم أنّ العديد منهن كنّ عالمات موسوعات؛ بمعنى أنهنّ أجدن أكثر من مجال، فكنّ بارعات في الشعر كما الطبّ وعلوم أخرى، المعلوم أنّ الأندلسيين نالوا تقدمًا ملحوظًا في علوم الطب واعتبر هذا العلم في مقدمة العلوم التطبيقية، من حيث الاهتمام والعناية ووفرة الإنتاج العلمي في الأندلس.

لم يقتصر التميز في هذا المجال على الرجال فقط، فقد نبغ عدد غير قليل من النساء الأندلسيات فيه، حتى إنّ نساء الملوك كن في غنى عن الأطباء بالطبيبات، ويذكر أنّ أخت الحفيد ابن زهر الأندلسي وابنتها كانتا تطببان نساء الحاجب المنصور بن أبي عامروأهله، وكان المنصور لا يقبل بأحد سواهما.

طب التوليد نموذجًا

عملت نساء المغرب والأندلس في صناعة التوليد، الذي يتمثل في «استخراج المولود الآدمي من بطن أمه مع الرفق في إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك «، قد عرفن باسم القابلات.

وقد حرص الأطباء على تعليم القابلات طرق فحص النساء ومعالجتهن، ويستشف هذا من عبارة الرازي: «إذا رأيت احتباس الطمث، فقل للقابلة أن تجسّ عنق الرحم «

كما يذكر الونشريسي صاحب المعيار أنّ العجائز تحكمت في الطب التقليدي بواسطة وسائل خاصة في تحديد النسل وتكاثره، وقد أجاز لها الشرع الإسلامي ذلك في «أن تجعل المرأة وقاية في رحمها تبطل الإنجاب عند الضرورة»، وأضاف: «أنّ التجار كانوا يسقون الخدم عن إمساك الضمأ بالأدوية التي ترخيه فيبطل الحمل». كما وجدت بمدن المغرب والأندلس عارفات من النساء بهذه الأمور كن بمنزلة طبيبات بالتجربة والممارسة، وكن يداوين العاقرات فينجبن ويلدن بفضل الله تعالى، وهكذا برهنت المرأة في المغرب والأندلس على نجاحها في طب التوليد.

ونذكر من بين الطبيبات الشهيرات اللواتي تركن صدى حتى بعد وفاتهن:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أم الحسن بنت أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم أبي جعفر الطنجالي

تشير كتب التراجم إلى أنّ أم الحسن تلقت عن والدها حظًّا وافرًا من تكوينها العلمي وخاصة صناعة الطب، فيما لا يعرف تاريخ مولدها أو وفاتها، عدا أنها عاشت خلال القرن الثامن الهجري.

وتنتمي أم الحسن لعائلة عريقة في مجال العلم والمعرفة، اشتهرت بالجلسات العلمية في مختلف الميادين العلمية والأدبية، فأبوها هو العالم المشهور أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم أبي جعفر الطنجالي، الذي يعتبر من أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب، وقد جاء إلى الأندلس قادمًا من المغرب، وولي القضاء بلوشة؛ المدينة العريقة التي أنجبت عددًا من العلماء البارزين في مختلف المجالات، كما عُرف عن أبي جعفر إلمامه واعتناؤه بصناعة الطب.

وهكذا ترعرعت بنت أحمد في أحضان الكتب والحلقات العلمية، فأجادت قراءة القرآن بقواعده بصوت حسن رخيم، وشاركت أباها البحث في قضايا الطب، فكان لا يذخر عنها تدريجيًّا ولا سهمًا،

حتى نهض إدراكها، وظهر في المعرفة حراكها، ودرسها الطب ففهمت أغراضه، وعلمت أسبابه وأعراضه.
لم تكن أم الحسن بارعة في الطب وحده، بل برزت في الشعر أيضًا، فيصفها لنا ابن الخطيب بقوله: هي «ثالثة حمدة وولادة،وفاضلة الأدب والمجاهدة، تقلدت المحاسن من قبل ولادة. وولدت أبكار الأفكار قبل سن الولادة». ثم يضيف عنها: «لما قدم أبوها من المغرب، وحدَّثَ بخبرها المُغْرِب، توجَّه بعض الصُّدور إلى اختبارِها، ومطالعة أخبارها، فاسْتَنْبل أغراضها واستحسنها، واستظرَف واستطربَ لَسِنَهَا وسألها عن الخطِّ، وهو أكْسَدُ بضاعة جُلِبِتْ، وأشحُ درَّةٍ حُلِبَتْ، فأنشدتْه من نظمها:
الخط ليس له في العلم فائدة
وإنما هو تزيين بقرطاس
والدرس سؤلي لا أبغي به بذلا
بقدر علم الفتى يسمو على الناس»
ومن شعرها في غرض المدح:
إن قيل من الناس رب فضيلة
حاز العلا والمجد منه أصيل
فأقول رضوان وحيد زمانه
إنّ الزمــــــــان بمثله لبخيل
وصفها ابن الخطيب بأنها كانت «نبيلة حسيبة»، وقد تركت وفاتها فراغًا نظرًا لمكانتها الكبيرة لدى الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإرث العثماني

الطغراء ... فنٌّ أصيل لم يقهره الزمن

بقلم: نهى عودة

لعبت الامبراطورية العثمانية دورًا بارزًا في ريادة النُظم والمعاملات الرسمية، وكان من الرائع جدًّا الهيكلية التنظيمية، التي كان يعمل بها موظفو ديوان القصر السلطاني، من تسجيل ونسخ وتأريخ لجميع المراسيم الرسمية -والتي تعرف باسم «فرمان»- فضلًا عن المعاهدات والمراسلات الرسمية، وكان ذلك بمثابة انعكاس لقوة وهيبة الحاكم. وفي هذا الصدد تُعد الطغراء أحد السمات المميزة للعصر العثماني، وهي عبارة عن شعار خطي مرسوم يحمل اسم السلطان الحاكم، واسم والده، ولقبه، ويعتبر بمثابة علامة سلطانية تستخدم كمزيج بين الختم السلطاني وتوقيع السلطان يتم التعامل بها في جميع الوثائق الرسمية مثل: عقود الملكية، الأوقاف، المراسلات، وأيضًا استخدمت بشكل أساسي في العملات المعدنية؛ كما كانت تضاف كعلامة مميزة إلى الأعمال الإنشائية، التي تتم في عهد حاكم ما للإشارة إليه، كالأسبلة والمساجد والتكايا والقصور وغير ذلك.

وتعتبر طُغراء السلطان العثماني أورخان غازي (١٣٢٦ - ١٣٦٠ م)، بلونها الأسود وشكلها البدائي، هي أول طغراء تم رصدها من قِبَل السلاطين العثمانيين، ثم تطورت الطغراء بعد ذلك إلى شكل أكثر تعقيدًا، حتى أصبح من الصعب قراءة أو نسخ هذا الشعار الخطيّ الفريد، وخلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠- ١٥٦٦ م) وصل الطغراء إلى شكله الكلاسيكي، وأبعاده القياسية المعتمدة إلى يومنا هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبداية من القرن السادس عشر، ظهرت وظيفة الطغرائين. حيث عهد السلاطين العثمانيين إلى خطاطين متميزين، من أجل إتمام طغراء كل منهم وتحسينها، يساندهم فنّان بارع من أجل التأكيد على انسيابية التصميم، وإضافة بعض العناصر النباتية الزخرفية، واستخدام فنّ التلوين لإضافة مزيد من التناغم والحسّ الجمالي. ونستطيع القول أنّ الطغراء تتكون بشكل أساسي، من ثلاثة امتدادات عمودية تتناقص في أطوالها، وحلقتين بيضاويتين متحدتي المركز من جهة اليسار، متفاوتتين في الحجم من جهة اليمين، وتخرج نهايتاهما إلى جهة اليمين في انسيابية. كما يُلاحظ التباين الواضح في المساحات الفسيحة في الجانب الأيسر والكتابة الكثيفة أسفلها والتي قد تختلف وتتنوع من سلطان لآخر، فقد تكون عبارة عن بعض ألقاب السلطان، أو دعاء لله بأن يمتد عهده وانتصاراته، وقد تفرّد السلطان سليمان القانوني بذكر إنجازاته في ثلاث قارات، بالإضافة لعبارة «ظل الله على الأرض».

وتُمثل طغراء السلطان سليمان العظيم -كما يُعرف في الغرب-، المعروضة في متحف المتروبوليتان بنيويورك، والتي تعود لعام ١٥٥٥م، ذروة الكلاسيكية العثمانية في ذلك الفن الخطي، على عكس أمثلة أخرى تبدو غير متقنة، أُنتجت في وقت لاحق. ويُدعّم التصميم الرائع التشكيلات الزخرفية، التي تجمع ما بين أرابيسك يدمج بين مجموعة من الزهور النباتية المختلفة، وما يشبه أوراق نبات القصب الطويلة المنحنية، وريشات ذهبية تتخلل كل ذلك، ومن أجل التلوين تم استخدام الحبر وألوان الماء والذهب، أما نصُّ الطغراء فكان: «سلطان سليمان خان، ابن السلطان سليم خان».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا ويطول شرح العناصر التصميمية التي تشكل التوازن العام، والإيقاع المرن الذي يُضفي رونقًا خاصًا بديعًا على الطغراء، مما جعلها من القوة بحيث لم تستطع قوى العلمانية، أن تنتزع هذا الفن الأصيل من حياة الأتراك وثقافتهم، كغيرها من الفنون العثمانية التي اندثرت، فهو حاضر في أقداح المقاهي، وعلى حوائط أكثر المنازل عصرية، وعلى مستلزمات الموضة من ملابس وحقائب وإكسسوارت؛ ومَن منا ذهب إلى اسطنبول ولم يعد بتذكار يحمل نقش الطغراء؟، فهو ليس موروثًا عثمانيًّا فحسب، بل هو أحد أجمل الموروثات الفنية الجمالية للخط العربي، التي تأبى أن تزول مهما أنهكها الزمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مباهج العيد واحتفالاته في القاهرة العثمانية

بقلم: كريم عبد المجيد

يتخذ أدب الرحلة موقعًا خاصًّا بين أنواع الأدب، التي تصور حياة الإنسان واجتماعياته في الأزمنة المختلفة، وهي مصدر هام من مصادر الجغرافيا والتاريخ والاجتماع، لما يقوم به صاحب الرحلة بتصوير لهذه الجوانب، في حياة المدن والبلدان التي يقوم بزيارتها، كما أنها وسيلة من وسائل المقارنة، والوقوف على مواطن الانفصال أو الاتصال، بين عادات الشعوب في الماضي والحاضر.

ولقد حوى العهد العثماني مجموعة كبيرة من الرحلات الهامة، التي سجلت لنا الكثير من المظاهر الاجتماعية، لشعوب الأقطار العربية وعاداتها، والتي حظيت منها «مصر» بعدة رحلات في القرون العثمانية الأربعة، فمنها رحلة «حادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية» «لمحب الدين الحموي» في القرن السادس عشر، نجد كذلك «حالات القاهرة من العادات الزاهرة» للمؤرخ ورجل الدولة العثماني «مصطفى عالي» والتي سجل فيها مشاهداته الاجتماعية، لأحوال القاهرة العثمانية أواخر القرن السادس عشر، كما نجد أيضًا الرحلة الكبيرة الهامة للرحالة العثماني «أوليا جلبي»، المسماة «سياحتنامه»، والتي امتدت لأكثر من ثلاثة عقود خلال القرن السابع عشر، ساح خلالها في أقطار الدولة العثمانية وخارجها، مع تخصيص الجزء العاشر منها للحديث عن مصر والسودان والحبشة، في الفترة من ١٦٧٢ حتى ١٦٨٠.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتُعد رحلة أوليا من أهم مصادر التاريخ الاجتماعي والحضاري لمصر، في أواخر القرن السابع عشر، وهي تعطي لنا نظرة واسعة عن حالة مصر والقاهرة، بعاداتها وعمرانها وطباع شعبها وأعيادهم وأشكال أفراحهم وأتراحهم، ومنها مظاهر «عيد الفطر» الذي قام فيها بتفصيل طريقة احتفال الإدارة العثمانية بهذه المناسبة، ضمن إطار الأعياد التي يحتفل بها المصريون، كما قام بذكر عادات الشعب المصري في الاحتفال بالعيد، وهي أمور ما زال بعضٌ منها موجودًا حتى الآن.

تُرجمت هذه الرحلة ثلاث ترجمات، كان آخرها الترجمة التي قام بها الدكتور «الصفصافي أحمد القطوري»، في ثلاث مجلدات، وصدرت عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، وقد قمت بالاعتماد على هذه الترجمة، لنقل النصوص الخاصة بمظاهر العيد واحتفالاته.

عادات عيد الفطر لأهل القاهرة في القرن السابع عشر

يلخص لنا أوليا مظاهر العيد في جملة جامعة، حيث يقول: «فالاحتفال بالعيد الشريف في مصر يقصر عن وصفه اللسان، ولا يجرؤ على التطاول عليه إنسان، وهذا من الأمور المعلومة»، وهذا الوصف الذي امتدح به أوليا، ينبسط الحديث عنه في مظاهر متنوعة وطرق احتفال مختلفة، فيبدأ المصريون التجهيز للعيد قبل حلوله بثلاثة أو أربعة أيام، حيث يقوم الناس بتجهيز مشروب «السوبيا»، الذي يشرب في المنزل بديلًا عن «الشربات» في أيام وليالي العيد الثلاثة التي يكثر فيها الفرح والزينة، ويخبرنا أوليا بأنّ مشروب السوبيا تختص به مصر وحدها، فيتحدث عن هذا الحدث بعباراته قائلًا:

«وخلال هذا اليوم أو أيام العيد، لا يُشرب الشربات في المنازل قط، بل تُشرب «السوبيا» التي تصنع من نقيع الأرز... وهذه السوبيا تصنع في مصر لهذه المناسبة قبل العيد بثلاثة أو أربعة أيام، وكثيرًا ما

يوضع بداخلها القرفة والقرنفل، وهي شراب نافع جدًّا لمن هم يشتكون من بعض الحموضة.. وهو خاص بمصر وحدها.
وتستمر الاحتفالات بهذا العيد السعيد ثلاثة أيام وثلاثة ليال متواصلة، فهذه الأيام كأيام ليلة القدر في مصر، وتزدان ميادين مصر - كميدان الروملي، وميدان حي الإسطبل الأميري، وقره ميدان، وميدان مصر العتيقة، وبولاق وباب النصر وضواحيها، وضواحي حي عابدين، وغيرها من آلاف الميادين - بالمراجيح والدولايب الدوراة، وغيرها من اللعب الصبيانية والشبابية التي تضفي البهجة والفرحة على الجميع».
لا ينام أحد من سكان القاهرة يوم «الوقفة»، وتتحول المدينة إلى بحر من البشر في أيام العيد، فيخرج عشرات بل مئات الآلاف إلى الطرقات للاحتفال بأشكال مختلفة، ويفضل نساء المدينة «عقد النكاح» في العيد، للخروج بسهولة ويسر مع أزواجهم للتنزه والفُرجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يحدثنا رحَّالتنا أيضًا عن بعض عادات العاشقين في العيد، واستثمارهم لهذه المناسبة للتقدم إلى الشابات لتقديم التهاني فيقول:
«وانطلاقًا من هذه الفجوة، فإنّ العشاق الصادقين يشاهدون الجمال، ويشغلون البال والخاطر ... وإذا كان بين العارفين رجل واحد فإذا ما رأى مليحة يتقدم نحوها دون خجل أو حياء ويقول لها: ليكن عيدك سعيدًا مباركًا.. ويتمنى لها أن تصل إلى مرادها. إن هذا من العرف السائد في مصر، وليس هذا عيبًا، ولا يعد أمرًا غير مألوف، فالعرف في مصر أنه خلال العيد يكثر العشاق والأراذل».
إلا أنّ الأمر كان في حدود الأدب، ولم يتحول كما هو الحال الآن إلى حالات تحرش، تصل لحد الاغتصاب للفتيات في العيد في شوارع القاهرة، الأمر الذي امتد إلى بعض محافظات مصر أيضًا، فيقول رحَّالتنا معقبًا على أفواج البشر في الطرقات والشوارع:

«وخلال العيد تسير الفتيات والفتيان جموعًا جموعًا، ويلعب الصبية والصبايا أفواجًا أفواجًا، ويتجولون في المتنزهات.. وليس هناك أي احتمال لأي تجاوزات أو اغتصاب لفتى أو فتاة أو سيدة، فلا يجرؤ أي رجل أن يمد يده على غلام أو صبية، فهناك غاية الأمن والأمان بهذا العدد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يلاحظ أوليا أمرًا آخرَ من خلال مشاهداته، وهو عدم ملاقاته لأي مخمور في طرقات القاهرة وشوارعها، ويشيد بهذا الأمر وهو يقول:
«كما أنّ هناك في مصر عبرة أخرى، فخلال هذا الخضم الهادر من البشر ووسط الآلاف بل مئات الآلاف، لا يمكن أن ترى رجلًا ثملًا في الطريق العام، ولقد تجولت كثيرًا في الطرق والمتنزهات، ولم أصادف مخمورًا قد تردى في الطريق العام، أو ثملًا يترنح وهو يسير بين الناس، فهذا أمر معيب جدًّا. وإذا ما تصادف ذلك، فإنهم يقبضون عليه فورًا ويحضرونه أمام باب دراه ويجلدونه، أو ينفونه إلى قبرص أو إلى حدود بلاد الفونج، ويظل إلى ما لانهاية في «قلعة صاي» على نهاية حدود بلاد الفونج هذه. فاحتساء الخمر أو الشراب في الطريق العام وبشكل علني ممنوع، وشيء منفور منه تمامًا، ولكن الأشياء غير الملومة كثيرة، وفي العيد الشريف يكثر المصريون من دعوة بعضهم بعضًا، ويقيم بعضهم لبعض الولائم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا وصف لنا رحَّالتنا الكبير مظاهر البهجة والفرح، بشرح الكيفية التي يحتفل بها المصريون بالعيد، وهي مظاهر مازال بعضها قائمًا إلى الآن، وسقى الله تلك الأيام كم كانت جميلة ومليئة بالسرور، الذي تلاشى من مصر منذ فترة طويلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإرث العثماني للجمهورية التركية

بقلم: كريم عبد المجيد

شهدت الدولة العثمانية في قرنها الأخير الكثير من التطورات والتغُيرات، التي تسببت مع مرور العقود بالعصف بأسس الدولة وانهيارها، وقيام الجمهورية التركية على رُكامها، هذا الرُكام الذي استفادت منه الجمهورية في النهوض، وتكوين كيان سياسي جديد، كانت نتيجة تحديثات وإصلاحات، قام بها سلاطين الدولة بدايةً من عصر السلطان «محمود الثاني»، المُمَهِّد لإعلان (فرمان) «التنظيمات» عام ١٨٣٩، حتى الانقلاب على السلطان «عبد الحميد الثاني» عام ١٩٠٩.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدستور والبرلمان

وهما من الأسس التي قامت عليها الجمهورية التركية، ويرجع تاريخ المطالبة بالدستور في الدولة العثمانية، بعد فتح المجال السياسي الذي أعقب تدمير «الانكشارية»، على يد السلطان «محمود الثاني» عام ١٨٢٦، والذي أعقبه مجموعة من التغييرات والإصلاحات التي قام بها السلطان، وكان نتاجها إصدار (فرمان) «التنظيمات» عام ١٨٣٩، الذي وضع الأساس القانوني لنهاية الدولة العثمانية فيما بعد، وقد ظهرت من بعد إصدار (الفرمان) بعقد من الزمن تقريبًا، الأصوات التي نادت بضرورة مراجعة مركزية الحكم في الدولة، وأنه لابد من مجلس يمثل الأمة العثمانية، كبديل عن الحكم المطلق لطائفة من رجال الدولة..

وكان المتبنون لهذا الأمر المجموعة المعروفة تاريخيًّا باسم «العثمانيون الشباب، «ذات التوجه الإسلامي»، ونادوا بأنّ القوانين التي تُقِرُّها طبقة التنظيمات الحاكمة، لابد أن تُمثِّل حاجة المجتمع الحقيقية، وألاَّ تكون عبارة عن استجلاب لقوانين أوروبية، وزرعها في بيئة غير بيئتها، وأنّ هذه القوانين لابد أن تحتوي على روح الشرع الإسلامي، وأحكامه عند سنِّها.

تطوَّر الوضع، وطُرحت فكرة الحكومة الدستورية، التي تلتزم بدستورٍ يحدُّ من صلاحيات الطبقة الحاكمة، بجانب مجلس يمثل الأمة، وكان «العثمانيون الشباب» بجانب العلماء، هما الطرفان الرئيسان في تبنّي هذه الفكرة، فنتجَ عن الأمر الدعوة إلى نظام «أصل المشورة»، الذي ينصُّ عليه الشرع الإسلامي، وإطلاق اسم «مجلس شورى الأمة» في الصحافة العثمانية لأول مرة، على المجلس الذي يضم ممثلي الأمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبعد الكثير من المشاورات، تم في النهاية الموافقة على وضع الدستور، الذي أطلق عليه اسم «القانون الأساسي»، وقد شكَّل «مدحت باشا» الصدر الأعظم في عهد السلاطين «عبد العزيز» و«مراد الخامس» و«عبد الحميد الثاني»، لجنة مُكونة من ثمانية وعشرين شخصًا، حوت أسماء من طوائف مختلفة، وتم وضع الدستور في مئة وتسع عشرة مادة، عملت على التقييد من نفوذ السلطان والحكومة..

وتم عقد الانتخابات بين يناير ومارس من عام ١٨٧٧، وانتخاب ممثلين من كافة الولايات التي ما زالت تُحكم بشكل مباشر من المركز، كل ذلك والحرب مشتعلة بين الدولة وروسيا، الأمر الذي لم يمنع انعقاد أولى جلسات البرلمان الجديد، الذي سرعان ما تم تعطيله بواسطة السلطان «عبد الحميد

الثاني»، إلى أن عاد للعمل مرة أخرى عام ١٩٠٨، قبل الانقلاب على السلطان، واستمر العمل بالبرلمان في الدولة، إلى أن صدر من خلاله تشريع بواسطة «الكماليين»، بإلغاء الخلافة وطرد الخليفة في مارس ١٩٢٤.

مؤسسات الدولة

يُجمِعُ المؤرخون على أنَّ مؤسسات الدولة العثمانية منذ القرن التاسع عشر، هي المؤسسات التي قامت عليها الجمهورية التركية، فمنذ عهد السلطان «محمود الثاني» (١٨٠٨-١٨٣٩) وكل مؤسسات الدولة يُعاد استبدالها لتوافق النمط الأوروبي، فتمَّ تشييد وزارة تختصّ بالأمن الداخلي «الداخلية» منذ عام ١٨٣٥، وتم استبدال «نظارة المعامل والبارود» وأسس مكانها «وزارة الحربية» عام ١٨٣٥، وتغير اسم «وزارة الكُتَّاب» إلى «وزارة الخارجية» عام ١٨٣٦، وتمَّ تشييد «وزارة العدل» عام ١٨٣٦، وأدمجت التشكيلات الإدارية المختلفة للأوقاف، وتم استحداث وزارة لها وهي «وزارة الأوقاف».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمَّا على مستوى الخدمات، فقط توسعت خطوط «التلغراف» في عهد السلطان «عبد الحميد الثاني» توسعًا كبيرًا، ومُدَّت خطوط السكّة الحديدية بشكل كبير في أركان الدولة، وكان مشروعه الأشهر في هذا الأمر هو «الخطّ الحديدي الحجازي»، كما تضاعفت أعداد المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية، التي افتُتحت في عهد السلطان، وكانت لها اليد الطولى في تخريج الكوادر، التي ستتولى إدارة الجمهورية بعد ذلك..

وكان من أشهرهم «أتاتورك» أول رئيس للجمهورية الجديدة، وهو خرّيج المدرسة العسكرية التي افتتحها السلطان عبد الحميد، كل هذا ورثته الجمهورية من جهود السلاطين السابقين، وإضافة لما سبق، وبناءً على إحصاءٍ قامت به «حكومة أنقرة» الكمالية عام ١٩٢١، للولايات التابعة لها [باستثناء الولايات التي تتبع حكومة السلطان]، فقد ورثت الجمهورية أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف مؤسسة صناعية صغيرة وكبيرة، لإنتاج النسيج ومواد البناء والمواد الغذائية والكيماوية وغيرها.

العلمنة

يعتبر «خط شريف كلخانة» أو (فرمان) «التنظيمات»، الذي قرأه وزير الخارجية «مصطفى رشيد باشا» في عهد السلطان «عبد المجيد الأول» عام ١٨٣٩، (فرمانًا) سلطانيًّا لم يشبه أيّ (فرمان) آخر في تاريخ الدولة العثمانية، فهو بداية إصلاحات الدولة بشكل حقيقي وممنهج على النمط الأوروبي، كما يُمثّل أيضًا بداية الثنائيات المتضادة في الدولة، فالمحاكم الشرعيّة بجوار المحاكم الأجنبية، والقانون المدني الفرنسي بجانب مجلة الأحكام العدلية الشرعية، والجامعات الحديثة في مواجهة المدارس الشرعية القديمة، والمسرح الأوروبي في مقابل عروض خيال الظل، والروايات في مقابل الأدب الديواني، كل هذا أدَّى في النهاية،إلى استحواذ التحديثات الأوروبية على نظم الدولة القديمة،وسحقها في ظل الجمهورية الجديدة.ومع نظرة قريبة لمواد «الفرمان» يتضح أنّ الكثير منها يستلهم أفكاره من الإعلانات الأوروبية خاصة الفرنسية، مثل «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» الخاص بالثورة الفرنسية، ووثيقة «حقوق فيرجينيا» للولايات المتحدة الأمريكية، والتي تدلّ على أنّ فكرة الإصلاحات لدى الدولة، كانت تستلهم من أوروبا ومن خارجها، كل ما يناسب رؤيتها للإصلاح، والتي منها رؤيتها تجاه «التعليم»..

فالمدارس الجديدة التي بُنِيَت على النمط الفرنسي، كانت تقابل المدارس الشرعية الإسلامية الموجودة في الدولة، وكان يتمُّ الاعتماد على تلك المدارس، في تخريج أجيال الشباب ونخبة الدولة بعيدًا عن التعليم الديني، ففي عام ١٨٥٧ تأسست وزارة التعليم، وبعد أزيد من عقد من الزمن، أصدرت الإدارة قرارات وتشريعات، تحدد معايير قياسية للتعليم وتطويره، وكانت هذه التشريعات مستلهمة من برنامج «فيكتور ديوروي» العلماني في فرنسا، والتي أخرجت نسخة من نظام تعليمي للمدارس والكليات، تناسب الفكر الأوروبي أكثر مما تناسب فكر العثماني.

أما عن التشريعات والقوانين، فصدرت مجموعات من القوانين، التي تقطع الصلة مع الشرع الإسلامي، وتتبنى مباشرة القوانين الأوروبية، فقانون العقوبات الجديد بين العامين ١٨٤٠ و ١٨٥١، تم فيه محاولة التوفيق، بين المفاهيم الحديثة للقوانين الأوروبية والشريعة الإسلامية، أما قانون العقوبات الذي صدر عام ١٨٥٨، والذي أسس على إطار قانون العقوبات الفرنسي فعمل على دفع مبادئ العقوبات الإسلامية إلى المؤخرة، فألغي حد الردة، وصدر قانون المساواة بين المسلمين وغيرهم بشكل تام، وألغيت الجزية، كما تم تبني قانون تجاري جديد للدولة عام ١٨٥٠، نقلًا عن القانون الفرنسي، تبعه قانون ١٨٦٣ الخاص بالتجارة البحرية.

وعلى هذا فإننا نرى أنّ المؤسسات والقوانين في الجمهورية التركية الحالية، ما هي إلا امتداد لقوانين ومؤسسات عثمانية، تم اقتباسها من الأفكار الأوروبية منذ القرن التاسع عشر، مما أدى في النهاية إلى صعود القوميين العلمانيين، وإلغاء الخلافة ومشيخة الإسلام، وتوحيد التعليم العلماني، وطرد الدين بالكُليَّة من موقعه، بداخل الدولة وحياة الناس في الجمهورية التركية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإصلاحات السليمانية في المدينة المقدسية

بقلم: نهى عودة

يرحل العظماء وتبقى انجازاتهم الحضارية لتشهد على ما قدموه من بصمات، تعجز القرون المنصرمة عن أن تمحوها، سليمان القانوني هو أحد هؤلاء العظماء، والذي امتدت مشروعاته الإصلاحية لتشمل كافة أقطار الدولة الإسلامية. وليست بمبالغة إذ أشرنا إلى أنّ أكبر المشروعات التي تمت في عصر الدولة العثمانية، قد تمت في عهد ذلك السلطان، فبجانب كونه أحد الفاتحين الكبار، وانشغاله الدائم بالجهاد حتى آخر أيامه، إلا أنه لم يغفل يومًا عن مسؤوليته الكبيرة تجاه رعاياه، المنتشرين على امتداد ثلاث قارات. وقد تبوأت الأراضي المقدسة لديه مكانة خاصة، وبالرغم من أنّ مكة المكرمة والمدينة المنورة بلا شك كانتا أولوياته في ذلك، إلا أنه لم ينسَ مكانة القدس كثالث المدن المقدسة في الدولة الإسلامية، باعتبارها أولى القبلتين وحاضنة المسجد الأقصى؛ حيث عُرج بالنبي -عليه الصلاة والسلام- إلى السموات العُلى، ولم تخلُ أحلام القانوني من ذكرها؛ فينقل لنا الرحالة العثماني الشهير أوليا جلبي رؤيا السلطان، عقب الفتوحات الجليلة التي توجت بداية عهده، وكيف أنّ رسولنا محمد ﷺ زاره في منامه، وبشره بالانتصارات، وأوصاه خيرًا بمكة والمدينة، وخصّ القدس بالتحصين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن المثير أنّ ولاية الشام -ومن ضمنها القدس-، قد استقبلت حكم القانوني بأول ثورة ضده، اعتراضًا على حداثة سنه عندما اعتلى العرش، فما إن ترددت أصداء وفاة والده السلطان سليم، حتى سارع نائبه عن ولاية الشام، جان بردي الغزالي، بإعلان التمرد والاستقلال عن الدولة العثمانية، وتلقب ب»الملك الأشرف» ومنع خطباء المساجد من الدعاء للسلطان الجديد سليمان خان على المنابر، وأيده في ثورته أميرا القدس وصفد، إلا أنّ طلائع جيش سليمان القانوني بقيادة وزيره فرهاد باشا، تمكنت من الغزالي وثورته فأودت بكليهما.

وما إن استتب الأمر في الشام حتى أخذت ملامح مدينة القدس تتغير تغيرًا جذريًّا، ودخلت القدس عصرًا ذهبيًّا في عهد السلطان سليمان؛ فقد عُنِيَ بها أيما اعتناء ليس على المستوى العمراني فحسب، بل على المستوى الإنساني والإداري والحضاري أيضًا، وفي إطار عنايته بالقدس كان يهتم بدراسة كل ما يصله من شكاوى تخص المدينة، حتى إنه بعث لقاضيه هناك عام ١٥٦٥م، يخبره بأنه قد أصدر مرسومًا خصيصًا، للحفاظ على نظافة مدينة القدس والآداب العامة بها، فأرسل له يقول: «وصلتني شكاوى بأن هناك مخالفات من تصرفات تخالف الشرع في الأماكن المقدسة؛ حيث كان النساء يجتمعن ليلًا إذا مات أحد سكان المدينة، ويتنقلن بين الأحياء لإعلان ذلك، ويضعن على وجوههن صبغة سوداء. كما أنّ سكان المنازل المجاورة للأقصى كانوا يلقون بقايا أطعمة هناك، إلى جانب إهمال الحراس لوظائفهم. ووصلني أيضًا أنّ الفلاحين الذين ينقلون الحليب والرائب للسوق يسلكون طريق الحرم الشريف، حيث يقع شيء من بضاعتهم على الطريق، وقد قررنا إصدار مرسوم يمنع وقوع مثل تلك التصرفات والمخالفات، في هذه الأماكن المقدسة التي يجدر بنا حمايتها والحفاظ عليها. كما آمر أن يسجل هذا المرسوم في السجلات لتطبيقه من قبل القاضي الذي سيلحق بك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القدس مطلع القرن السابع عشر

ويذكر المؤرخون أنّ البصمات العمرانية التي تركها سليمان القانوني، خلال سنوات حكمه الطويلة والتي دامت ٤٦ عامًا، قد فاقت ما خلفه نظرائه من السلاطين العثمانين، على مدى أربعة قرون حكموا فيها المدينة من بعده. ويبدو أنّ رؤيا سليمان لم تفارقه، فجاء على رأس هذه المشروعات بناء سور جديد للقدس، بديلًا للسور الأيوبي الذي كان قد تهدم أغلبه، وقام بإرسال المعماري سنان، أشهر معماري عثماني في عصره، إلى القدس وكلفه بأعمال الترميم والإصلاح في المدينة، واستقدم العمال المهرة والنقاشين من مصر والشام وحلب، لترميم قبة الصخرة، فأزيل الطلاء الفسيفسائي عن الحائط الخارجي، لأنه بدا في حالة رثة، ووضعت لوحات من القاشاني بديلًا عنه حيث زُيّن السطح الخارجي للمبنى بخمسٍ وأربعين لوحة من القاشاني، ذي النقوشات العثمانية المميزة الباقية إلى يومنا هذا، كما رمم المسجد القبلي والقلعة، وأنشئ في عهده العديد من التكايا والحمامات والمدارس والمساجد، بالإضافة إلى أنه رمم ما قد اندثر منها، كما قام بترميم وصيانة بعض الأماكن المقدسة لليهود والنصارى، تقديرًا منه لكونها مزارات دينية، يفدون إليها من كافة أرجاء الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبة الصخرة

وكما اهتم السلطان بعمران المدينة، اهتم أيضًا بقضايا سكانها، فقد لفتت مشكلة قلة المياه التي يعانيها أهل القدس انتباه القانوني، حيث كان الجفاف من أهم مشكلاتهم، وكان الناس يوفرون احتياجاتهم من الماء، من الأمطار التي تتجمع في الوديان والبرك، بيد أنّ هذه المياه المتجمعة لم تكن تكفي حاجة الناس في فصل الصيف؛ فقام القانوني بتخصيص أموال كثيرة لإنشاء خطوط المياه -وهي القنوات والخزانات والسُبل والحمامات- وإصلاحها والعناية بها. ويسجل الرحالة العثماني أوليا جلبي قوله: «السلطان سليمان القانوني أجرى نهرًا في القدس، التي كانت تلبي حاجاتها المائية قبل ذلك من تجميع مياه الأمطار في خزانات، فهو قناة مائية آتية من مسافة بعيدة جدًّا»، وقد أنشأ القانوني البرك الشهيرة المنسوبة إليه «برك سليمان»، وفي السابق كانت تعتبر مياه البرك من أهم مصادر المياه، لمدينتي القدس وبيت لحم، كما أصلح قناة السبيل الواقعة بين بيت لحم وخليل الرحمن، وأمر بترميم السبيل خارج باب يافا، المعروف ب «بركة السبيل»؛ وجدّد السبيل المملوكي المعروف ب «سبيل شعلان»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

برك سليمان

وامتدت عناية السلطان بالمدينة إلى تنظيم الجهاز الإداري، بداية من المكانة المميزة التي تمتعت بها السلطة التنفيذية، مجسدة في الأميرالحاكم ومعاونيه، وامتدت إلى تعيين القاضي الشرعي والمفتي العام، الممثلين للسلطة القضائية والتشريعية، والتي كانت تمر عبر اسطنبول، وتحت إشراف السلطان مباشرة، وبفرمان صادر منه شخصيًّا. وقد حرص السلطان على أن تكون إدارة المدينة ذاتية لا مركزية، وقد اندرج تحتها العديد من الإدارات الفرعية،، كإدارة الأسواق والأموال، وإدارة المؤسسات الصحية، وإدارة المؤسسات الدينية، وإدارة المؤسسات التعليمية، وغير ذلك.

إنّ تخصيص مقال لا يتعدى الألف كلمة لإفراد إصلاحات القانوني في القدس، يبدو أمرًا مجحفًا بعض الشيء، ويكفي أن نذكر حادثة طريفة في عهده، تنمّ عن شدة حب وإجلال أهل القدس للقانوني، حينما كاد السلطان أن يترجم اهتمامه الفائق بالمدينة بزيارتها، وكان ذلك عام ١٥٥٣م، وسرت في

المدينة شائعة تزف ذلك؛ فتبارى كل من شيخ اللحامين تاج الدين السكري، والأمير بيرام جاويش -أحد رجال القانوني-، بأسبقية إعداد وليمة للسلطان وعساكره، وجميع أهالي القدس، في حالة قدومه إلى المدينة من مالهم الخاص، وتعهدا بذلك أمام الحاكم الشرعي، ويبدو أنّ السكري كان حريصًا على ألا ينتصر عليه جاويش في هذا، فزاد في تعهده أنه سوف يطلق زوجته إذا لم يلتزم بهذا الإشهاد، بيد أنّ السلطان قد عدل عن هذه الزيارة، حيث استعرت الحرب العثمانية الصفوية حينها. وحتى يومنا هذا يشهد أحد أشهر الطرق في القدس -وهو طريق السلطان سليمان والذي نُسب إليه،اعترافًا بفضله في تسوير البلدة القديمة على شكلها الحالي- على جملة أعماله الخيرية والوقفية، وما شغلته مدينة القدس من مكانة حساسة لديه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيف كانت البوسنة العثمانية قبل مذابح الصرب؟

بقلم: كريم عبد المجيد

«سنذبحُك يا «عليَّ» عندما تقوم الحرب كما ذبح «مليوس» «مُرادًا» - الصحافة الصربية في رسالة إلى رئيس البوسنة علي عزت بيجوفيتش قبيل العدوان الصربي على البوسنة، في إشارة إلى قتل مليوس الصربي للسلطان العثماني مراد الأول بعد معركة قوصوة عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحادي عشر من شهر تموز/يوليو، ١٩٩٥م، اندلعت مذبحة عُرفت بالمذبحة الأخيرة في القرن الحادي والعشرين. ففي بلدة «سربرنيتسا» الواقعة جنوب شرق البوسنة بمحاذاة حدودية مع «جمهورية صربيا» حاليًا، ذبح الجنود الصرب ما يزيد على ثمانية آلاف مسلم بوسنوي مدني. لم تكن هذه المذبحة هي المأساة الوحيدة في الحرب التي قامت بين «جمهورية البوسنة والهرسك» المنفصلة عن الاتحاد اليوغسلافي من جهة و«الصرب» من جهة أخرى في الفترة ما بين عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٥، وإنما تنضمّ إليها مآسٍ أخرى، أبرزها محاصرة العاصمة البوسنية «سرايي□و» وقتل أحد عشر ألفًا وخمسمائة شخص من سكانها من بينهم ألف طفل على يد القوات الصربية.

وفي كل حادي عشر من شهر يوليو/تموز، من كل عام، تحلّ ذكرى مذبحة «سربرنيتسا» البوسنية. في الوقت الذي لا زال حاضر البوسنة مرتبطًا بصلاتٍ قوية مع مكانتها المتميّزة في العصر العثماني طيلة أربعة قرون وأكثر، منذ عام ١٤٦٣م حتى عام ١٨٧٨م، تشكّلت فيها هويّتها الحضارية، حتى صارت مركزًا للثقافة الإسلامية القادمة مع الفاتحين العثمانيين، وذلك قبل أن تتعرّض للاحتلال النمساوي المجري فيما بعد.

الفتح العثماني لأراضي البوسنة

بدأت قصة الوجود العثماني في «البلقان» [الروملي بالاصطلاح العثماني] بعد انتقال العثمانيين إلى البرّ الأوروبي عام ١٣٥٣م، واتخاذهم مدينة «إدرنة» عاصمة لدولتهم عام ١٣٦٣م، وأصبح الفتح العثماني لأراضي البلقان يمثل أولوية للدولة، كي يؤمن عمقًا أرضيًّا للعاصمة الجديدة باتجاه الغرب.

وقد وصل العثمانيون إلى أول أجزاء الأراضي البوسنوية عام ١٣٨٦ واستمرت عملية ضم أراضي البوسنة للدولة حتى عام ١٤٦٣، لتنضم كلها تحت الحُكم العثماني المباشر الذي كان له الأثر الأول في التغيرات الكبيرة، في البنية الدينية والديموغرافيا السكانية للبوسنة.

ببطء وتأنٍ بدأت عملية تحول السكان إلى الإسلام، وكانت المراحل الأولى من عملية التحول للدين الجديد تنقسم إلى: هجرة المسلمين إلى هذه الأراضي الجديدة، بالإضافة إلى اعتناق «البوشناق» سكان الأرض الأصليين للإسلام، وعلى المدى الطويل، كان اعتناق المسلمين المحليين للإسلام هو المصدر الرئيس لمسلمي البوسنة، وأصبح أغلب من يتحول عن دينه القديم يتجه إلى الإسلام.

أما الحالة العمرانية للبوسنة، فقد شهدت تطورًا كبيرًا جدًا تحت الإدارة العثمانية، فتطورت قرى وقصبات وقلاع، لتتحول إلى مدن كبيرة وواسعة مثل «بانيالوكا»، و«فيشجراد»، و«سرايي□و»، التي لابد من إفراد حديث خاص عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«سرايي□و» المدينة العظيمة

تعتبر «سرايي□و» عاصمة البوسنة والهرسك وأكبر مدنها، أول مدينة تَنشأ في البوسنة على النمط الشرقي الإسلامي بعد الفتح العُثماني. وقد تحولت تحت هذا الحكم إلى واحدة من أكبر المدن في جنوب شرق أوروبا، وواحدة من أكبر مراكز الثقافة الإسلامية في البلقان. وكان للوقف دور كبير في نشوء المدن الجديدة في البلقان ومنها «سرايي□و».

يرتبط اسم المدينة [سراي بوسنة أو سرايي□و] بمؤسسها «عيسى بك»، الذي شكّلت أوقافه الخاصة النواة الرئيسة للمدينة، ومن بين أوقافه: جامع باسم السلطان «محمد الفاتح» أنشأه في ١٤٥٧م، وحمامًا -بقي حتى ١٨٨٩م-، وجسرًا على نهر «ميلياتسكا»، وخان [فندق]، وبيزستان [سوق مغطى للبضائع والمنسوجات] يحتوي على محلات كثيرة، وتكية في قرية «برودانس» المجاورة، التي خُصصت [حسب الوقفية] لنزول «الفقراء والمُسلمين، من السادات والغزاة وأبناء السبيل»، وتقديم الطعام لهم، وأوقف عليها العديد من الطواحين والكثير من الأراضي. والجدير بالذكر أنّ وقفية «عيسى بك» قد كُتبت بالعربية، وهي اللغة الجديدة التي دخلت البلقان مع العُثمانيين، وأصبحت من لغات الثقافة الإسلامية، التي ساهم بها «البشانقة»، بما ألفوه بعد انتشار الإسلام هناك.

أخذت هذه النواة العُمرانية (الجامع – الحمام – السوق – التكية) تكبر بسرعة، فنما حي جديد حول الجامع، وحي ثانٍ حول التكية، وثالث حول السراي، ومع مرور الوقت، وصلت هذه المدينة إلى عصرها الذهبي، في النصف الأول من القرن السادس عشر، على يد الوالي «خسرو بك»، مع كثير من المباني الجديدة التي أوقفها لتطوير المدينة مثل مسجد «خسرو بك»، مدرسة، مكتبة، تكية، خان، بيزستان، حمام، وغيره، بالإضافة إلى كثير من الولاة الآخرين الذين ساهموا بوقفياتهم في نمو المدينة، مما عمل على تنشيط التجارة ونشوء كثير من الحرف بشكل سريع، حتى تحولت المدينة إلى واحدة من أعظم مدن جنوب شرق أوروبا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبناءً على وصف الرحالة العثماني الشهير «أوليا چلبي» للمدينة عندما زارها عام ١٦٦٠م، فإنه يتضح مدى اتساع المدينة وضخامتها، فقد ذكر بأنها تحتوي على ستمئة حي سكني، سبعة عشر ألف منزل، سبعة وسبعين جامعًا ومئة مسجد، العديد من المدارس، مئة وثمانين مكتبًا لتعليم الصبية، سبع وأربعين تكية، ثلاثمئة سبيل، سبعمئة بئر، خمسة حمامات، ثلاثة كروانسراي [نزل للمسافرين والقوافل]، ثلاثة وعشرين خانًا، ألف وثمانين متجرًا، بيزستان واحد، سبعة جسور على نهر «ميلياتسكا»، كنيسة كاثوليكية، وكنيسة أرثوذكسية، وغيرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بوسنويون أقاموا صرح الدولة العلية

يَحفَل التاريخ العثماني بمئات الأسماء البوسنوية، التي خدمت الدولة وساهمت في تشييد مجدها وإعلاء اسمها(1)، فظهر العُلماء الموسوعيون، والشعراء الكبار، ورجال الدولة الأكفاء، والقضاة العادلون، الذين تولوا منصب القضاء في مدن كثيرة، تمتد من اسطنبول وإدرنة ومرعش، حتى حلب ودمشق ومكة والقاهرة.

ولعل سَردًا سريعًا لبعض الشخصيات البوسنوية الكبيرة، أو ذات الأصل البوسنوي، التي ساهمت بصماتها في كتابة صفحات من تاريخ الدولة، يخبرنا عن مدى عظمة ما أضافوه وقدّموه من أعمال، فنبدأ بالصدر الأعظم [رئيس الوزراء] الكبير، وأحد رجال الدولة العظام «صوقوللو محمد پاشا» [١٥٠٦-١٥٧٩]، الذي خدم في مواقع كثيرة من الدولة، وصولًا إلى الوزارة العظمى في عهد

السلطان «سليمان القانوني»، وابنه السلطان «سليم الثاني»، وحفيده السلطان «مراد الثالث»، فوصلت مدة صدارته إلى ستة عشر عامًا تقريبًا، أدار فيها الدولة بأحسن ما يكون، وضم إلى أملاكها جزيرة «قبرص». إلا أنّ الدولة في عهده مُنيت بهزيمة بحرية ساحقة، في «معركة ليپانتو» [اينى بختى] عام ١٥٧١م. وقد أمر ببناء المساجد والجوامع والمدارس والجسور، التي ما زالت قائمة إلى الآن منها جامعه الشهير في اسطنبول، وجسر يحمل اسمه بمدينة «فيشجراد» بالبوسنة، تم ضمه إلى قائمة «اليونسكو للتراث العالمي» عام ٢٠٠٧م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن العلماء البوسنويين الموسوعيين «نصوح السلاحي» [ت ١٥٦٤م]. هذا الكاتب والمؤرخ والجغرافي والرياضي وراسم المنمنمات الكبير، الذي عاصر اثنين من كبار سلاطين آل عثمان وهما السلطان «سليم الأول» والسلطان «سليمان القانوني»، حيث صاحبهما في حملاتهما العسكرية وأرّخ لهما. ومن أبرز مؤلفاته، مجموعة من الكتب التي تؤرخ لفتوحات السلطان «سليمان القانوني»، إلى جانب ترجمته لكتاب «تاريخ الطبري»، مع إضافة ملحق إليه من كتابته، ومجموعة من الرسومات الطوبوغرافية لمدن الأقاليم العثمانية، ومؤلفات في الرياضيات والحساب، وقد نظمت اليونسكو في عام ٢٠١٤م مؤتمرًا، لإحياء ذكرى مرور أربعمئة وخمسين عامًا على وفاته.

ومن مشاهير رجال العلم البوسنويين العُثمانيين المؤرخ المدقق «إبراهيم بچوي» [١٥٧٢-١٦٥٠]، صاحب الكتاب الشهير «تاريخ بچوي» الذي يمثل واحدًا من أهم كُتب التواريخ العثمانية التي غطّت تاريخ الدولة لمدة ١٢٠ عامًا [١٥٢٠-١٦٤٠] ابتداءً من عهد السلطان «سليمان القانوني» حتى عهد السلطان «مراد الرابع»، وقد صدر الكتاب بترجمة عربية عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة في مجلدين كبيرين.

أما خاتمة العلماء الذين نذكرهم في هذا السرد السريع، فهو العالِم الموسوعي «حسن كافي الأقحصاري» [١٥٤٤-١٦١٦]، وهو فقيه أصوليّ قاضٍ نحوي أديب شاعر، وأكثر علماء البوسنة الذين تركوا آثارًا علمية باللغة العربية، حيث شكّلت معرفته إتقانه للغات الثلاثة: العربية والفارسية والتركية لدرجة مكنته من قرض الشعر بها. وصل عدد مؤلفات الرجل [المكتوبة بالعربية في أغلبها] والتي تَنوعت ما بين كتب ورسائل إلى سبعة عشر كتابًا ورسالة في العقيدة والنحو والمنطق والفقه والبلاغة والتراجم، برز من بينها كتاب «أصول الحُكم في نظام العالم» وهو من نوع الكُتب التي عُرفت في التاريخ العثماني بُكتب النصح «نصحة نامه» التي تُقدم إلى السلطان ورجال الدولة لوضع علاج مناسب للأعطاب والمشاكل التي تواجه الدولة، وقد تُرجمت هذه الرسالة إلى الفرنسية والألمانية والمجرية والصربية-الكرواتية في القرن التاسع عشر والعشرين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإرث الإسلامي المجيد في البوسنة

غدت البوسنة في العهد العثماني مركزًا ومنارة للثقافة الإسلامية في البلقان، فبعد توطيد الحكم العثماني فيها شرع الولاة في بناء المُجمَّعات [الجامع الملحق به مدرسة وتكية] التي ضمّت الكثير من المدارس التي أصبحت مقصدًا لكل راغب في تلقي العلوم، ويأتي على رأس هذه المدارس مدرسة «الغازي خسرو بك» بمدينة «سرايي□و» الذي أسس في وقفية خاصة به لجامع كبير ومدرسة أتبعها بمكتبة ملحقة بها عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٧م، وقام بتزويدها بمجموعة كبيرة من الكتب والمخطوطات، فتحوّلت بعدها هذه المدرسة(2) [التي ما زالت تؤدي رسالتها إلى الآن] إلى أكبر مدارس البلقان رغم

كونها المدرسة الثالثة التي تم تأسيسها بالمدينة. وبمرور القرون تراكمت المخطوطات بمكتبة المدرسة باللغات الشرقية الثلاث بالإضافة إلى اللغة البوسنوية المكتوبة بالحرف العربي؛ نتيجة إقبال العلماء المحليين على اقتناء ونسخ المخطوطات، ثم التأليف بهذه اللغات، وتحوّلت المكتبة حاليًا إلى أشهر وأغنى مركز، يضم مخطوطات للتراث الإسلامي في جنوب شرق أوروبا بعدد تجاوز عشرة آلاف مخطوط احتوت على المعارف الإسلامية المتنوعة من موسوعات وكتب للعقائد، والفقه، والحديث، والتفسير، والجغرافيا، والطب، والتاريخ، وغيرها.
أما ثاني أكبر المراكز الثقافية الإسلامية بالبوسنة فيتمثل في «معهد الاستشراق» بسرايي□و الذي تأسس عام ١٩٥٠م، بغرض جمع المخطوطات باللغات الشرقية وتحقيقها ونشرها، فأخذت إدارة المعهد في جمع هذه المخطوطات المُبعثرة من أنحاء البلاد المختلفة، وعند إعلان البوسنة استقلالها عن يوغوسلافيا عام ١٩٩٢م كان عدد المخطوطات الموجودة بمكتبة المعهد قد وصل إلى خمسة آلاف ومئتي وستة وثلاثين مخطوطًا بالعربية والفارسية والعُثمانية والبوسنوية مما رفعها إلى مصافّ المجموعات المهمة في البلقان، إلا أنّ الحرب الصربية الهمجية التي قامت في نفس العام وعلى إثر قصف صربي مكثف على موقع المكتبة، تحولت المكتبة وما بداخلها من كنوز تراكمت منذ الفتح العثماني إلى أشلاء وحُطام، ولم ينجُ منها سوىخمسمئة وأربعة وستين مخطوطًا فقط، أي ١٠٪ من مجموع هذه الكنوز قبل الحرب، كان أقدمها يعود إلى عام ٤١٣هـ، وهي «الفتاوى من النوازل» للسمرقندي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما الظاهرة الثقافية الهامة التي تلفت النظر فهي ظهور نوع من الكتابة الأدبية في البوسنة العثمانية تعُرف باسم «الألياميادو» وهي كتابة اللغات الأوروبية بحروف عربية، فكُتبت اللغة الصربوكرواتية السلا□ية [أو البوسنوية كما يقال عنها حديثًا] بالحروف العربية، كمحاولة لكتابة لغة السُكان المسلمين بحروف لغة القرآن، وهي نفسها حروف العثمانية والفارسية والعربية لغات الدولة الثلاث، بجانب الخط «البوسانتشيكي»، وعرف هذا الخط باسم «عربيتسا»، وتداول استخدامه بين علماء وشعراء وشاعرات البوسنة، فظهرت الأعمال الشعرية ذات الطابع الديني، والقصائد ذات الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية، وفق الأوزان الشعرية العربية الكلاسيكية.
ومن ضمن الأعمال التي ظهرت بهذا الخط قاموس «صربوكرواتي-عثماني» يُمثل ثاني أقدم معجم في أي لغة سلا□ية جنوبية، كُتب بواسطة الشاعر «محمد خفاجي الأسقفي البوسنوي» عام ١٦٣١م. نجد كذلك من ضمن الأعمال التي كُتبت بهذا الخط كتابًا يُسمى بـ «الكتاب البوسنوي في علم السلوك» وهو عمل يتضمن أربعة وخمسين من الواجبات الدينية التي يجب على كل مؤمن أن يعرفها ويؤمن بها ويؤديها. وقد قام بتأليف العمل المؤلف والشاعر «سيد عبد الوهاب إلهامي» ونُشر بعد وفاته عام ١٨٢١م، بعشر سنوات.

(1) لمعرفة تفاصيل عن مجموعة واسعة من العلماء والشعراء البوسنويين، بإمكانك الرجوع لكتاب «الجوهر الأسنى في تراجم عُلماء وشُعراء بوسنه» لمحمد بن محمد بن محمد الخانجي، وهو من الكتب التي أفردت الحديث بالعربية لعلماء وشعراء وكُتاب البوسنة منذ العصر العثماني حتى العصر الحديث.

(2) يُقصد بالمدرسة هنا نوع جديد من المؤسسات التعليمية التي ظهرت في البلقان بعد الفتح العثماني، وتناظر حاليًا المعاهد المتوسطة والعليا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علماء عرب في عاصمة الدولة العثمانية

بقلم: كريم عبد المجيد

سقى الله عيشًا مر في زمن
الصبا وحيّاه عنّي بالعبير نسيم
ودهرًا بقسطنطينية قد قطعته
إذ السعد عبدٌ لي بها وخديم
بلاد هي الدنيا إذا ما قطنتها
فوجه الأماني مسفر ووشيم

بهذه الأبيات وصف الطبيب والعالِم «ابن النقيب الحلبي» عيشةَ أيام صباه وشبابه في عاصمة الدولة العثمانية «اسطنبول»، حيث ملتقى العلماء والشعراء من جميع أنحاء الدولة ومن جميع الأعراق والأشكال والألوان، وهو أمرٌ مثبتٌ على الدوام في كتب هذا العصر إلا أنّ بعض التوجهات الفكرية التي طغت على من يكتب التاريخ في دولنا العربية الحديثة جعلت هذه الحقيقة المُسطَّرة في كتب التواريخ موضع شك وطعن، بل والنظر إليها على أنها بحاجة إلى إعادة قراءة بمنهج عرقي أو قومي لا يصح النظر منه إلى هذا العصر، حيث تتلاشى الفكرة العرقية ويحل بديلًا عنها رابطة الدين.
وكثيرًا ما واجهت من بين الانتقادات التي وُجهت للدولة العثمانية أنها نبذت «العرب» وأنه لم يوجد عربي تقلد منصبًا في هذا العهد، وأنّ بلاد العرب لم تكن إلا الخزينة التي يحصل منها المركز على ما يريده من أموال، وأنّ المناصب كلها كانت في يد «الأتراك»، وهو أمر تُكذبه الأصول التاريخية التي بين أيدينا، فكتب التواريخ والتراجم والوثائق الخاصة بهذا العهد تذخر بالأسماء العربية التي نالت مناصب عالية بداخل أقطارها العربية أو بداخل عاصمة الدولة نفسها، مما يقوّض هذا الادعاء ويهدمه؛ فلفظة «التركي» نفسها في التاريخ العثماني كانت تُطلق على «الفلاحين» الذين يزرعون الأرض في الأناضول، وهيا تُقابل لفظة «الأعرابي» أو «البدوي» في شبه الجزيرة العربية.
فلسفة الإدارة العثمانية في اختيار رجالها
للنظام العثماني طريق في الوصول إلى أعلى المناصب القيادية أو العلمية في الدولة، وهي طريق يستطيع كل مسلم في الدولة أن يسلكها وأن يصل إلى درجاتها العُلى إذا أثبت أنه يستحقها، وهو أمر ينطبق على القيادة العسكرية كما ينطبق على نظام القضاء، وهما الفرعان اللذان يحتويان على سلطات قوية تجعل أصحابها ذوي نفوذ وقيادة، وإجمالًا فإنّ العسكريين يأتون بشكل أساسي من نظام «الدوشرمة»، ويؤخذون وهم صغار ليتم تقسيمهم وتربيتهم تربية معينة، ليرتقي منهم مَن يرتقي ليصل إلى منصب وزير أو رئيس وزراء أو حاكم لإقليم، أما النظام القضائي فهو يسير عبر مراحل دراسية تبدأ من الكُتاب أو المكتب ثم إلى مدرسة الولاية لتنتقل بعد ذلك إلى مدارس اسطنبول درجة بدرجة، وصولًا لأعلى منصب من حيث تولي الإفتاء أو القضاء أو مشيخة الإسلام، وهي درجات تشترطها الإدارة ليحصل الشخص على درجة وزير أو والي أو رئيس للقضاة في ولاية معينة، ومن يسِرْ على دربها من أي عرق يصلْ لهدفه، وهو أمر سنذكر عليه أمثلة بالأسفل من العلماء العرب.
وقد ولي أكبر المناصب في الدولة مَن تختلف أصولهم اختلافًا بينًا، فشيخ الإسلام «الملا فخر الدين العجمي» (ت ١٤٦٠) ثاني عالم يتولى أكبر منصب ديني في الدولة أصله «إيراني» هاجر إلى

اسطنبول وتلقى العلم هناك وتدرج حتى وصل لمنصب شيخ الإسلام، كما أنّ أكبر مؤرخي الدولة مثل المؤرخ «مصطفى عالي» (ت ١٦٠٠) رجل من أصل كرواتي أو بوسنوي -وما أكثر البوسنويين الذين خدموا الدولة في مواقع مختلفة- كما نجد أنّ منصب الصدارة العظمى وهو منصب يلي منصب السلطان مباشرة، يؤول إلى قائد عسكري مصري مملوكي وهو «عثمان باشا بن أوزديمير باشا» الذي تقلد هذا المنصب في عهد السلطان «مراد الثالث» حفيد السلطان سليمان القانوني، كما نجد عائلة «كوبرولو» الشهيرة التي أنقذت الدولة من أوضاع سياسية واقتصادية وعسكرية صعبة في نهايات القرن السابع عشر، عن طريق تقلد منصب الصدارة العظمي، هي عائلة ذات أصل ألباني، وهي أمثلة بسيطة وإلا فالحديث في هذا الجانب يطول.

العلماء في عاصمة الدولة

وبالنظر إلى البيئة العلمية في جميع أقطار الدولة، نجد هناك حركة علمية تأخذ بأقدام العلماء من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، فهذا القاضي البوسنوي يُعطى قضاء «مكة المكرمة»، وهذا القاضي البلغرادي يُعطى قضاء «القاهرة»، وهذا القاضي المصري يُعطى قضاء العاصمة، فهناك حركة مستمرة ودائمة من هنا لهناك، لم تتوقف في يوم من الأيام على عرق العالِم، لكن أتى التوقف غالبًا من الموقع الجغرافي، فالأقرب إلى العاصمة جغرافيًّا هم من نجدهم كثيري الزيارة، قادمين إليها أو خارجين منها، ومن يسِر على نهجها في الدراسة، نجده يصل لمنصب قاضي القضاة فيها أو في غيرها، لذا نجد مثلًا في تراجم العلماء الكثير من الشوام، الذين وصلوا إلى العاصمة زيارة أو متقلدين لمنصب، بينما يقلّ مثلًا التونسيون أو الجزائريون، وأصحب هنا خمسة نماذج وصلت إلى درجات عالية وكبيرة في العاصمة، بل وُجد منهم من عاش بقية حياته ومات ودُفن فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نبدأ بأول مثال من العلماء العرب الذين نالوا مكانة في عاصمة الدولة وهو العالِم الأديب قاضي القضاة «شهاب الدين الخفاجي المصري» (ت ١٦٥٩) الذي تلقى علومه في القاهرة والحجاز واسطنبول، وكان من شعراء عصره وفضلاء زمانه، وقد ارتحل من مصر إلى اسطنبول والتي تبدت له كما يقول: «مملوءة الفضلاء والأشراف معمورة الأقطار بالأعيان والأطراف» وقد ولي مناصب قضائية كبيرة منها قضاء «سكوب» في «الروملي» (البلقان) وهو منصب قضائي رفيع، وقد حاز الشهاب ثقة السلطان «مراد الرابع» فولاه قضاء «سلانيك» كما ولاه منصب «قاضي عسكر» مصر، وهي مناصب قضائية جليلة كلها إن دلت على شيء فإنما تدل على مكانة الرجل الكبيرة، التي حاز بسببها أعلى المراتب في الدولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما الشخص الثاني، فهو الفقيه والواعظ الشهير «محمد الاسطواني الدمشقي الحنفي» وهو من أشهر الواعظين الذين ترأسوا حركة سلفية/إحيائية في اسطنبول زمن السلطان «مراد الرابع» تُعرف باسم حركة «قاضي زاده»، وقد وصلت مكانة هذه الحركة في عهده ومن بعده، إلى أن أقبل الناس على سماع واعظيها في جوامع ومساجد العاصمة بكثرة، وإلى التأثير في القصر السلطاني والقرار السياسي في الدولة، وقد تولى إمامة «جامع السلطان أحمد»، كما تولى الوعظ في «جامع السلطان محمد الفاتح»، وقد عاش فترة من حياته في اسطنبول وتزوج فيها ومات في دمشق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العالِم الثالث،هو قاضي القضاة «أبو السعود بن عبد الرحيم الشعراني المصري» وهو من نسل عائلة عبد الوهاب الشعراني الصوفي الشهير، وقد ولي منصب قاضي قضاة الشام، كما ولي قضاء «إدرنة» و«بورصة» والعاصمة «اسطنبول»، ثم وصل لأعلى منصب قضائي في الدولة، وهو منصب «قاضي عسكر الأناضول».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نذكر الشخص الرابع، وهو أبو بكر بن محمود المعروف باسم «ابن الحكيم المصاحب»، وهو خطيب الجامع الأموي ورئيس أطباء دمشق، أخذ التصوف على الطريقة القادرية، وسافر إلى اسطنبول عاصمة الدولة، واتصل بالسلطان «مراد الثالث» حفيد السلطان «سليمان القانوني»، وصار نديمًا له -وفي بعض الأقوال أنهما كانا يتراسلان فقط-؛ بسبب حب السلطان للتصوف والمتصوفة، وتقدمت حالته بين موالي الدولة، حتى تم الإيشاء به، وتدبير مكيدة أبعد على إثرها للقاهرة، ومن ثم عاد مرة أخرى إلى القسطنطينية ومات فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ونختم بخامس الفضلاء وهو الشيخ العالِم الطبيب «خليل الحلبي» المشهور باسم «ابن النقيب» -المذكور أول المقال-، وقد درس علومًا عديدة، وجلس فترة يعطي دروسًا في الجامع الأموي، وسافر إلى اسطنبول، وتقرّب من بعضٍ أصحاب الديوان هناك، وقد اشتهر ببراعته في الطب في المدينة، وعالج بعض كبراء المدينة فشُفوا، فزادت شهرته وأقبل عليه الناس، وقد عاش بقية حياته في اسطنبول ذا سمعة طيبة وجاه، حتى توفى فيها عام ١٥٦٣ تقريبًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أقباط مصر تحت الحكم العثماني

بقلم: كريم عبد المجيد

يبدأ تاريخ الأقباط في مصر تحت الحكم الإسلامي، بانتزاعها من الدولة البيزنطية على يد سيدنا «عمرو بن العاص» عام ٢١ هـ/ ٦٤٢ م، الحدث الذي استقبله المصريون في ذلك الوقت بالقبول والدخول في دين الفاتح الجديد، والوقوف مع المسلمين أمام البيزنطيين الذين أذاقوهم ألوانًا من العذاب والاضطهاد. وباستقرار الأمر للحكم الجديد، نجد أنّ سيدنا «عمرو بن العاص» قد أبقى على بعض الموظفين البيزنطيين، المسؤولين عن إدارة شؤون الولاية، وأحلّ الأقباط محل آخرين.

ليصبح الأقباط من حينها طائفة متمرسة في الشؤون المالية والإدارية، مع سماح الإدارة للأهالي المسيحيين باستخدام لغتهم القبطية في الوثائق التي تخصّ شؤونهم القانونية والمسائل الدينية الداخلية، الأمر الذي لم تسمح به الإدارة البيزنطية إلا في أواخر عهدها، وعلى نطاق ضيق جدًّا.

وبمرور القرون تناوب على حكم مصر مجموعة من الدول الإسلامية وصولًا إلى القرن السادس عشر عندما دخلها السلطان العثماني «سليم الأول» عام ١٥١٧ بعد معركة «الرَيدانية» معلنًا بذلك انتهاء الحكم المملوكي، وبداية عهد جديد من تاريخ مصر استمر لمدة أربعة قرون، شهدت مصر خلالها تغيرات طالت جميع مناحي الحياة فيها.

بالنظر إلى الحياة الخاصة للأقباط لا نجد اختلافًا بينهم وبين بقية المسلمين في المجتمع، إلا أنهم لم يشكلوا طبقة اقتصادية مزدهرة مقارنة بإخوانهم المسيحيين في سوريا، فغالبيتهم طبقة ريفية وصعيدية.

العثمانيون وأقباط مصر

عاملت الإدارة العثمانية أقباط مصر كطائفة من الطوائف الدينية غير المسلمة المحكومة بنظام عُرف بنظام «الملل» والذي تؤول فيه شؤون كل طائفة دينية إلى الكنيسة الخاصة بها، ويمثلهم أمام الدولة بطريرك الكنيسة المسؤول عن شؤنهم، عبر طبقية هرمية تبدأ به وصولًا إلى الشخص المسيحي العادي. وكانت الإدارة تفضل أقباط مصر في تولي الأمور المالية لخبرتهم، وكانت تسند إليهم مهمة جمع الضرائب في القدس العثمانية عبر مجتمع قبطي صغير يعيش هناك، مفضلة إياهم عن الطوائف المسيحية الأخرى.

ويجمع المؤرخون على أنّ حياة الأقباط تحت الحكم العثماني، كانت أفضل من سابقه المملوكي، وكانت الحياة الدينية المسيحية في مصر تتنوع فيها الطوائف، من مسيحيين أرمن ونساطرة (وإن كانوا قلة) ويعاقبة (ويقصد بهم الأقباط في الوثائق العثمانية) بجانب الروم الملكيين، إلا أنّ كتابات مؤرخي مصر العثمانية عن المسيحيين الأقباط قليلة جدًّا، على عكس المادة الأرشيفية الكبيرة الباقية التي تصور الحياة الاجتماعية للمسيحيين وتساعدنا بشكل أساسي على معرفة شكل المجتمع المسيحي في ذلك الوقت، والذي هو محور هذه التدوينة.

الحياة الاجتماعية لأقباط مصر

أمدتنا وثائق العصر العثماني بالكثير عن تفاصيل الحياة الاجتماعية للأقباط، من تجارة وبيع وشراء وزواج وطلاق، وأماكن تواجدهم وشكل اندماجهم بداخل المجتمع، وقد خُصصت لشؤونهم الحياتية محكمة خاصة تنظر في قضاياهم، وهي محكمة «القسمة العربية»، وذلك وفق أحكام الشريعة

الإسلامية برغبتهم الكاملة، وكانت تختص بالنظر في الدعاوى القائمة، والفصل والحكم في المواريث والتركات وما إلى ذلك، رغم وجود كتب في الأحكام القضائية وضعها رجال دين مسيحيين، مثل الكتاب الذي ألفه الجاثليق «تيموثاوس» عام ٢٠٠ هـ، كي يقطع الطريق على المسيحيين المتعللين بعدم وجود قوانين للتحاكم والتقاضي فيما بينهم، ومن ثم يتم اللجوء للقاضي المسلم، وعلى الرغم من ذلك كان المسيحيون يلجؤون للشريعة الإسلامية للفصل بين منازعاتهم.
وبالنظر إلى الحياة الخاصة للأقباط، لا نجد اختلافًا بينهم وبين بقية المسلمين في المجتمع، إلا أنهم لم يشكلوا طبقة اقتصادية مزدهرة مقارنة بإخوانهم المسيحيين في سوريا، فغالبيتهم طبقة ريفية وصعيدية لا ينخرطون في التجارة الدولية في القاهرة، ويعملون في الأعمال البسيطة، أو ككتبة لدى الإدارة المسلمة، أو في الإدارة المالية والجمارك، وضرب العملة، وديوان الجوالي (الجزية)، مع وجود شخصيات مسيحية، عُرفت بثرائها الواسع في ذلك الوقت مع قلة عددهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتشير وثائق المحاكم الشرعية إلى أنّ المسيحيين كانوا يلجؤون إلى القاضي المسلم في كل أحوالهم الشخصية بلا استثناء من زواج، وطلاق، ووصية على الأموال، وبيع، وشراء، كما ظهر في مسيحيي الوجه البحري من اتخذ أكثر من زوجة على النظام الإسلامي رغم حظر الديانة المسيحية لتعدد الزوجات، وكانت علامة على ثراء هذا الزوج، فنجد من بين الوثائق، تطليق القاضي لفلان النصراني من فلانة النصرانية، طلقة ثانية بائنة أو ثالثة أو رابعة، مما يدلل على اندماج المسيحيين التام في المجتمع، وعيشهم كالمسلمين في أدقّ شؤون حياتهم.
ونتيجة لهذا التعايش داخل المجتمع، كثرت الوثائق التي تشير إلى إشهار أهل الذمة إسلامهم في العهد العثماني، سواء كانوا مسيحيين أو يهودًا مصريين أو عربًا أو من غير العرب، مع ملاحظة ازدياد هذه الظاهرة بشكل لافت في ثمانينيات القرن السابع عشر، حتى ثمانينيات التاسع عشر الميلادي، مما يؤكد هذا الاندماج الكامل داخل المجتمع المسلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وطبيعة الحياة داخل المجتمع المصري، تطلبت تمييزًا بين المسلم وغير المسلم حسب قوانين الدولة، فكان للمسيحيين ملابس بألوان معينة يغلب عليها الأسود والأزرق، كما حُظر عليهم ركوب الخيل وسُمح بركوب البغال والحمير، وكانت الإدارة تسمح لهم باتخاذ عبيد أو إماء، بشرط ألا يكونوا من المسلمين، ولم تتشدد الإدارة في تطبيق هذه الشروط وكانت في الغالب شكلية ولا تتم إلا بضغط من العلماء في بعض الأحيان، أو في أوقات الاضطرابات وعدم الاستقرار.
وهو نفس الأمر الذي تم بخصوص بناء كنائس جديدة، فكان عدم استحداث كنائس هو الأمر المفروض من الدولة، إلا أنه غالبًا ما خالف الأقباط هذا الحكم وقاموا ببناء كنائس جديدة داخل الأديرة القديمة أو بجوارها، ولم تصرّ الإدارة على التشدد في الإلزام بعدم البناء، كما كان هدم الكنائس في هذا العهد نادرًا، ولا تذكر لنا كتب التاريخ شيئًا ذا بال بخصوص الأمر.
أمّا على مستوى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فكان السلم هو الأصل بينهم، مع وجود حالات توتر ودماء بين الطرفين وإن كانت بشكل ظواهر فردية، فنجد مثلًا حادثة عام ١٥٢١ بعد الدخول العثماني لمصر بفترة بسيطة، قام ثلاثة من الأقباط بالسير في طرقات القاهرة وهم مخمورين، واشتبكوا مع قاضي مسلم في الطريق مع تعالي صيحاتهم بسبابه وسب الدين الإسلامي، فأمر القاضي باعتقالهم وعرضهم على قضاة المذاهب الفقهية الأربعة، فقرر ثلاثة منهم أن يتم تعزيرهم

دون الموت، كونهم لم يكونوا في وعيهم حين وقوع الاعتداء من طرفهم، إلا أنّ استياء بعض «الانكشارية» من الحكم دفعهم لتعقب المسيحيين الثلاثة وتمزيق اثنين منهم بالسيوف، ولكن الثالث خاف من مصير رفاقه وسارع بإشهار إسلامه لتجنب تعرضه للقتل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجد الأمر قد يتكرر في حادثة المعلم «يعقوب» القبطي، الذي انضم إلى الحملة الفرنسية بعد دخولها مصر، وقد عينه الفرنسيون على رأس فريق عسكري، وكان يشارك الفرنسيين في قتل المسلمين، وبانسحاب الفرنسيين من مصر، قرر ضابط عثماني قتل جميع الأقباط الخونة الذين انضموا للعدو ضد أهل البلد، إلا أنه سرعان ما تم تدارك الأمر بواسطة ضابط عثماني آخر، لأنه ليس من العدل معاقبة الجميع، بسبب فعل مجموعة منهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السقوط

الأندلس اليوم

بقلم: أيمن حويرة

الثاني من يناير ١٤٩٢.. توقفت عقارب الساعة عند هذه اللحظة التي غادر فيها أبو عبد الله الصغير غرناطة، ليرخى التاريخ سدوله على ثمانية قرون من حكم دولة الإسلام للأندلس، ذلك التاريخ الذي صار فيما بعد، دمعة حزينة في عيون المسلمين، وجرحًا غائرًا في قلوبهم بعد انهيار الصرح الحضاري الذي بنوه، على مدار سبعمئة وواحد وثمانين عامًا، وضياع الحلم الذي لم يدم إلا أربعة عقود... حلم أوروبا المسلمة الذي بدأ مع فتح الأندلس غربا عام ٧١١م، ثم لم يلبث أن خطا بضع خطوات إيجابية بعد فتح القسطنطينية شرقًا عام ١٤٥٣م، لكن المسلمين استيقظوا صباح ذلك اليوم الحزين، على كابوس أحال حياتهم إلى جحيم، هذا الجحيم الذي لم ينته بخروجهم مطرودين من أراضيهم، في بداية القرن السابع عشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه هي القصة كما اعتدنا أن نرويها، اعتدنا أن نقصّ أمجاد طارق بن زياد وموسى بن نصير، أو نردد حكايا الموريسكيين ومحاكم التفتيش.. ألفت آذاننا كلمات الفخر والتبجيل تمامًا كما اشتاقت أعيننا لعبرات الأسى وعبارات الشجون، صارت الأندلس إما معاركنا وحضارتنا التي جعلتنا سادة العالم، أو وجعنا الذي جعل من قصة أجدادنا الموريسكيين مأساة، من أقسى مآسي هذا العالم وأكثرها هولًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لهذا، وعلى مدار السنوات الماضية، ومنذ صارت قضية الأندلس أكثر سطوعًا، وغدا يوم سقوطها ذكرى سنوية، تقام فيه المآتم أو تنصب فيه زينات الأفراح، كان الحديث دومًا عن الأندلس المسلمة، أندلس الغافقي والداخل والمنصور بن أبي عامر، عن زلاقة ابن تاشفين وزهراء الناصر وعقاب الموحدين، تبارت كتب التاريخ في إخراج ما في جعبتها عن قرطبة القرن، التاسع وطليطلة التي سقطت على يد ألفونسو، يبدأ السرد يوم جئنا فاتحين، وينتهي يوم غادرت المراكب شواطئ بلنسية في سبتمبر ١٦٠٩. يتوقف الزمان ويضنّ الراوي علينا ببضع كلمات، تخبرنا ما آلت إليه أندلسنا المفقودة بعد رحيلنا، تتكالب صفحات تاريخنا المشرق على تاريخ أربعة قرون كاملة، عاشتها غرناطة وأخواتها تحت الحكم الإسباني، فتنحيها جانبًا بدعوى الخواء والفشل، الذي حل بهنّ بعد خروج المسلمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ونحن وإن كنا على قناعة تامة بعدالة قضيتنا وإجحاف الراوي الإسباني، إلا أنّ دراستنا للتاريخ تحتم علينا دومًا، أن نستمع بموضوعية لقصص هذا الراوي، نقرأ ما كتبه عن أندلسنا التي صارت إسبانيته، ونرى كيف كانت وإلام صارت، نترك غرناطة بني نصر، ونطير إلى قرطبة الملك كارلوس، وألمرية فرانكو، لنقرأ عن أندلس اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جناق قلعة.. آخر انتصارات العثمانيين

بقلم: أيمن حويرة

وقعدتَ للخصم اللدود بمرصد
ونقضت من تدبيره ما أبرما
فترى التقدم نحو خصمك مغنمًا
ويرى التأخر عن لقائك مغنما
ما كان جمعك في العديد كجمعهم
لكنّ حزمك كان منهُمُ أعظما

بهذه الكلمات عبر الشيخ بدر الدين النعساني، عن انتصار جناق قلعة أفضل تعبير، بعد أن دُعي على رأس وفد حلب، ضمن مجموعة من الوفود التي دعتها الدولة العثمانية من ولاياتها المختلفة، للاحتفال بالنصر العظيم في جاليبولي..

جاليبولي، هذه المعركة الخالدة التي أبلى فيها جيش المسلمين بلاءً حسنًا، ودافع عن عاصمة الخلافة (اسطنبول)، ضد جحافل جيوش الحلفاء الذين لم يأتوا فقط من أوروبا، بل لقد قطع بعضهم عشرات الآلاف من الكيلوم مترات من أقصى الشرق (استراليا - نيوزيلندا)، دون هدف إلا القضاء على هذا الكيان الجامع للمسلمين.لهذا فقد أعادت هذه المعركة إلى الأذهان ذكريات بعيدة، ذكرى جيوش الإسلام وهي تحارب أعداءها، ليس سعيًا خلف نصر عسكري أو أرض جديدة، وإنما بغية الدفاع عن دينها، تمامًا كما فعلها قطز من قبل أمام التتار، وفعلها صلاح الدين أمام الجيوش الصليبية. لم تكن المعركة نزهة للعثمانيين، بل لعل الأرقام تخبرنا أنّ ضحاياهم فاقت ضحايا جيوش الخلفاء وقاربت على الضعف، الأرقام مخيفة ومحزنة.. أكثر من تسعين ألف شهيد قضوا دفاعًا عن آخر عواصم الخلافة الإسلامية، فكان لهذه المعركة أن تتوج بلا منازع، كواحدة من أعظم انتصارات العثمانيين ... وآخرها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل جاليبولي هي آخر انتصارات العثمانيين؟ ربما لا، ربما نازعها اللقب حصار الكوت، وربما فاقت نتائجه نتائج جاليبولي. لكن تبقى جاليبولي انتصارًا بطعم التضحية والفدائية، انتصارًا خضبت فيه دماء جنوده المسلمين أراضي شبه الجزيرة، فرسمت لوحة راقية استحقت الخلود. قد يقول البعض ولماذا نوقف قطار الانتصارات، عند جناق قلعة أو الكوت، لتصبح حكرًا عليهما، وقد كتب الأتراك لاحقًا تاريخًا مجيدًا في حروب الاستقلال، لكنّ نظرة واحدة إلى الجملة السابقة ندرك معها، أنّ العثمانيين قد صاروا بعد جاليبولي أتراكًا... بل حتى ولو كانت القيادة العسكرية هي نفس القيادة، وكانت النزعة القومية هي المسيطرة على هؤلاء القادة في الحالتين، فإن التفاتة سريعة إلى تكوين جيش جاليبولي، يخبرنا كيف كان هذا الجيش عثماني النكهة، نرى ذلك بوضوح في تكوينه العربي التركي، الذي لا يحدث إلا تحت راية الخلافة. ذلك المزيج الذي لم نره بعد هذا اليوم... لم نره ونخشى ألا نراه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما خسر العثمانيون الحرب لاحقًا، ربما انهارت دولتهم التي عاشت أكثر من ستة قرون، ربما توارت معركة جناق قلعة أو جاليبولي في دهاليز التاريخ، فلم تنل شهرة حروب الاستقلال، ولم تعلق بذاكرة الجماهير. لكن تبقى جناق قلعة ليست فقط آخر انتصارات العثمانيين، وإنما واحدة من أروع انتصاراتهم ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الولايات المتحدة العربية

بقلم: أيمن حويرة

في أوائل شهر فبراير عام ١٨٦١، وقبل شهر من تولي إبراهام لنكولن الرئاسة الأمريكية، أعلنت سبع ولايات في جنوب الولايات المتحدة انفصالها عن الاتحاد الفيدرالي، تحت اسم الولايات الكونفيدرالية الأمريكية، ووضعت دستورًا مؤقتًا، وأسست عاصمتها المؤقتة في مونتغمري بولاية ألاباما. وقد دفع هذا لنكولن في الخامس من مارس، في خطابه الافتتاحي بعد أن حلف اليمين الدستورية، للإشادة بالدستور الأمريكي، والتشديد على ضرورة الوحدة معلنًا رفضه لأي محاولات انفصالية، و ذكر أنه ليس لديه نية لغزو الولايات الجنوبية المنفصلة، لكنه سيستخدم القوة للحفاظ على الأراضى الاتحادية. وقد حاولت هذه الولايات المنفصلة الدخول في معاهدة سلام مع الولايات المتحدة، وهو ما رفضه لينكولن على أساس أنّ الكونفدرالية ليست حكومة شرعية، ولكون أيّ معاهدة معها سيكون بمثابة اعتراف بأنها حكومة ذات سيادة.

انطلقت الحرب الأهلية الأمريكية في الثاني عشر من أبريل من نفس العام واستمرت حتى الثالث عشر من مايو ١٨٦٥، أي أنها امتدت أربعة أعوام كاملة راح ضحيتها أكثر من نصف مليون مواطن أمريكي من كلا الطرفين، انتهت الحرب ودام الاتحاد، وصارت الولايات المتحدة واحدة من أقوى الدول في العالم حتى يومنا هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العاشر من يونيو عام ١٩١٦، وفي خضم أتون الحرب العالمية الأولى، وبعد عدة شهور من معركة جاليبولي المجيدة، التي حارب فيها العثمانيون جنبًا إلى جنب مع العرب، وحققوا فيها انتصارًا عظيمًا على قوات التحالف البريطانية والفرنسية مع نظيرتها الاسترالية والنيوزيلندية، ظهر الحسين شريف مكه رافعًا لواء الاستقلال عن الدولة العثمانية، ومؤيَدًا من الإنجليز في دعوته الانفصالية، تلك الدعوة التي انتشرت حينها بدعوى إساءة معاملة العرب من قبل العثمانيين، والتي وافقت هوى في نفس حسين، باستعادة أمجاد العرب الزائلة، ونيل شرف الخلافة مرة أخرى بعد أربعة قرون كاملة، منذ آلت إلى بني عثمان عام ١٥١٧.

أشعل الحسين شرارة الثورة بتنسيق كامل مع الإنجليز، شنّ معارك طاحنة على مدينة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- أدّت إلى اتخاذ فخري باشا والي المدينة المنورة العثماني قرارًا بترحيل أهلها، فيما عُرف فيما بعد بسفربرلك. طالت المعارك مسجد الرسول، وانهار قطار الحجاز تحت ضربات العرب وخطط لورنس الإنجليزي، فصار حلم السلطان عبد الحميد بإنشاء خط سكة حديد يكون رمزًا للاتحاد، وحلقة وصل بين سائر أنحاء أراضي المسلمين التابعة للدولة العثمانية، صار هذا الرمز هو أول علامات انهيار هذا الاتحاد، الذي دام ثلاثة عشر قرنًا كاملة منذ غادر أبو بكر الصديق سقيفة بني ساعدة، حافظا لأمانة رسول الله، وحاملًا لقب خليفته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل كان خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما على يزيد بن معاوية، طعنة في صدر الخلافة الإسلامية؟ هل كانت ثورته سببًا في تفرق المسلمين؟ وهل كان فشل هذه الثورة سببًا في ظهورها بصورة ملائكية، بينما لو انتصر الحسين لربما كان المسلمون الآن أكثر فرقة، ولربما صبت الأجيال

القادمة غضبها على هذه الثورة، بزعم أنها مَن فرقت المسلمين؟ ربما تتوارد هذه الأسئلة في بال مؤيدي الثورة العربية ومناصريها، ربما يتساءل الكثيرون منهم: أولا ننتفض ونثور ضد الظلم حين نراه خوفًا من التشتت؟ ألم يكن العثمانيون سببًا رئيسًا في اندلاع هذه الثورة، بما اقترفته أيديهم من آثام وغبن وقع علينا نحن العرب؟ ألم يكن حسين مكة الهاشمي يسير على هدي جده الحسين؟ أو لم يكن الاتحاديون في اسطنبول هم يزيد هذا العصر، الذي اغتصب الخلافة وعاث في الأرض الفساد؟
ربما يكون لهذه الأسئلة أو بعض منها وجاهته، لكنّ الإجابات لن تكون في صالح شريف مكه بالتأكيد، فلا الحسين رضي الله عنه ثار من أجل منصب أو سلطة، بل من أجل مبدأ، بل لقد كان لأخيه الحسن دور عظيم في لم شمل المسلمين والحفاظ على وحدتهم، بعدما تنازل لمعاوية رضي الله عنهما عن الخلافة، تلك الخلافة التي سعى حسين مكة للحصول عليها، بعدما أغراه الإنجليز بهذا المنصب. لم يتحالف حفيد رسول الله مع الفرس أو الروم من أجل أن يزيح يزيد، بل لقد حارب وحده دون دعم كافٍ، فقط من أجل مبادئ العدل والحرية، بينما وقف فيصل بن الحسين في باريس ليعلن أول تطبيع عربي مع اليهود، بعد لقائه بحاييم وايتسمان رئيس المنظمة الصهيونية. بل إنّ فيصل نفسه الذي نصب نفسه ملكًا على سوريا بعد خروج العثمانيين منها، لم يتوان عن قبول إنذار الفرنسيين المعروف بإنذار غورو، بعد أربعة أشهر فقط من إعلان استقلال سوريا في مارس ١٩٢٠، وبينما كان يوسف العظمة يقاوم دخول الفرنسيين دمشق وينال الشهادة، كان الملك فيصل يحزم حقائبه مغادرًا إلى لندن بدعوة من العائلة المالكة، باحثًا عن أرض جديدة وتاج جديد،يجعل منه ملكًا مرة أخرى، فكان أن اختار له الإنجليز العراق، ليحكمها تحت الانتداب البريطاني من ١٩٢١ وحتى وفاته عام ١٩٣٣.
«لقد قمت بواجبي، فلتعش الأمة من بعدي بسعادة وقوة واتحاد»...
كانت هذه آخر كلمات فيصل قبل وفاته في سويسرا، لذا بدا من الصعب التعرف على أي أمة كان يقصد في حديثه، أهي الأمة العربية فعلًا؟ أي سعادة وقوة تلك التي تحدث عنها وقد كانت شعوب هذه الأمة ترزح تحت نير الاحتلال إمّا الإنجليزي أو الفرنسي؟ أي اتحاد هذا وقد تفرقت هذه الأمة إلى دويلات عديدة؟ أو لم يعد الحسين والد فيصل بدولة عربية موحدة قوية، ما الذي منعه إذن من تحقيق هذا الوعد؟ ما الذي منع فيصل العراق وعبد الله الأردن وعلي الحجاز -أبناءه- من الاتحاد؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«هدفي الرئيس من وراء هذا الصراع هو الحفاظ على الاتحاد، وليس استمرار الرقّ أو إنهاءه، إن استطعت أن أنقذ الاتحاد من دون تحرير العبيد سأفعل ذلك، وإذا كان بإمكاني حفظه عن طريق تحريرجميع العبيد سأفعل ذلك وإذا كان بإمكاني حفظه عن طريق تحرير بعض وترك الآخرين سأفعل ذلك أيضًا»...
هذه كانت أهداف لنكولن، في حربه ضد حركة الانفصال التي قامت بها الولايات الجنوبية، تلك الحركة التي قامت في الأساس للدفاع عن سلطة هذه الولايات، وقيمتها في كيان الاتحاد الفيدرالي، إلى جانب الدفاع عن حقوق السادة ضد العبيد. على جانب آخر كانت أهداف الحسين وأولاده تبدو في ظاهرها مع الحريات وضد الظلم، إلا أنّ باطنها يحمل الكثير من حب السلطة، والتطلع فقط لأن يستبدل بالخليفة العثماني آخر عربي، دون التخلص من جينات الظلم والطمع، التي اتصفت بها السلطة منذ رحيل عبد الحميد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا وبعد مئة وخمسين عامًا من انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية ووفاة إبراهام لنكولن، مازال الأمريكيون يبجلونه ويجلونه، ويعدونه أعظم من حكم الولايات المتحدة، وهو من حافظ على هذا الاسم حتى يومنا هذا، في الوقت الذي تمر فيه مئة عام على ذكرى الثورة العربية، وتسعة عقود على رحيل مفجرها، فلا نقرأ عن هذه الثورة ما يكفل لها اسمها، ولا نرى من يتغنى بصاحبها، ولا نجد لاسم الولايات المتحدة العربية مكانًا على الخارطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سايكس بيكو.. الوهم الذي عشناه منذ مئة عام

بقلم: أيمن حويرة

في منتصف القرن الثامن الميلادي، وبالتحديد عام ٧٥٠ انتقلت دفة قيادة الدولة الإسلامية إلى العباسيين، تلك الدولة مترامية الأطراف التي امتدت، على مساحة أكثر من عشرة آلاف كيلو متر مربع، من أطراف الهند في الشرق، وحتى المحيط الأطلسي وسواحل بلاد المغرب في الغرب، وقد استمرت هذه الحدود ثلاثة عقود كاملة، أضيفت لتسعة أخرى في عهد الأمويين، وأربعة عقود راشدة حافظ فيها المسلمون على دولة واحدة تحت راية واحدة، أكثر من مئة وستين عامًا حملت فيها الدولة لقب الدولة الإسلامية، حتى وإن تغيرت السلالات الحاكمة، أو تنازعت فيما بينها الزعامة والحكم. صحيح أنّ عبد الرحمن الداخل كان أول من أسس صراحة، دولة منفصلة عن دولة الخلافة القائمة حينها -العباسية- لكنها ظلت تجربة لها أسبابها، وملامحها التي لم تبلغ حينها حدًّا، يجعل من الدولة الإسلامية دولًا متناثرة متناحرة. لكن بحلول عام ٧٨٤م، كانت ست دول إسلامية أخرى تتقاسم خريطة الوطن العربي، جنبًا إلى جنب مع دولة بني العباس، على رأسها الدولة الرستمية، التي سيطرت على أجزاء كبيرة، من ليبيا والجزائر وتونس والمغرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يمض قرنٌ آخر حتى صارت هذه الدول سبعًاوعشرين دولة، جاء الحمدانيون والصفاريون والطولونيون وبنو جعفر والأغالبة والأدارسة وغيرهم، بل إنّ عام ٩١٠ م قد شهد حدثًا جديدًا على الدولة الإسلامية، حين أعلن عبيد الله المهدي نفسه خليفة للمسلمين، مؤسسًا دولته التي نسبها إلى فاطمة الزهراء ابنة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ومنازعًا الخليفة العباسي، ولم يلبث عبد الرحمن الناصر أن نصب نفسه هو الآخر خليفة في الأندلس، ليأتي يوم الجمعة السادس عشر من يناير عام ٩٢٩م، ومنابر المساجد تدعو لثلاثة خلفاء، في بغداد، وقرطبة، والمهدية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل كان لقسطنطين السابع، أو نقفور، أو باسيل، أو غيرهم من الأباطرة البيزنطيين، أي علاقة بانقسام الدولة الإسلامية، إلى أكثر من عشرين دويلة، منذ أواخر القرن التاسع وحتى بدايات القرن الحادي عشر؟ هل كان ألفونسو الخامس ملك ليون، أو سانشو الثالث ملك نافارا، هما السبب في أن يعهد الحكم المستنصر لطفله هشام المؤيد بالخلافة، ذلك الموقف الذي عجّل بسقوط الدولة الأموية في الأندلس، وتفككها، وانتقالها لعصر ملوك الطوائف، وهو ما ضاعف من عدد الدول الإسلامية إلى أكثر من أربعين دولة؟ ربما صارت الحال أفضل قليلًا في نهايات القرن الحادي عشر، وحتى منتصف القرن الثاني عشر، تلك الفترة التي أعاد في الأيوبيون للمسلمين جزءًا من وحدتهم في الشرق، وأعاد الموحدون -وقبلهم المرابطون- وحدة الغرب، ليتقلص عدد الدول الإسلامية إلى بضع دول، تتجاوز مساحة كل منها المليون كم مربع، لكن حتى الأيوبيون قسموا دولتهم بعد وفاة صلاح الدين لعدة دويلات متفرقة، دون أن يكون ريتشارد قلب الأسد مثلًا طرفًا في ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا يتحدث المنصفون عن فضل العثمانيين على العالم الإسلامي والعربي خاصة؟ لأنّ القرن السادس عشر -ولأول مرة منذ سبعة قرون على الأقل-، قد شهد عودة لون واحد، ليصبغ معظم

مساحة أراضي الإسلام على خارطة العالم، عادت القاهرة وبغداد وتونس والحجاز ودمشق وحلب لتشاركاسطنبول الدعاء لنفس الخليفة على منابر مساجدها. بل لقد انضمت سراييفو وبودابست وبلجراد والمورة وكوسوفو لركب الدولة الإسلامية، في حدث نادر. لم يطأ فيه الإسلام أراضٍ جديدة في أوروبا، منذ فعلها في بدايات القرن الثامن في الأندلس. لقد استطاع العثمانيون أن يعيدواً للخلافة الإسلامية معناها وقيمتها، بعد أن صارت مجرد لافتة يرفعها بنو العباس في بغداد، ومن بعدها القاهرة، دون أن تكون لهم أي سيطرة على أراضي المسلمين، خارج إطار هاتين المدينتين. استطاع سليمان القانوني أن يجمع المشرق والمغرب معًا، لأول مرة منذ فترة طويلة، بل لقد كان لانضمام الشمال أيضا -الأراضي الأوروبية- عامل تميز إضافي لهذه الدولة العظيمة. صحيح أنّ سيطرة العثمانيين لم تدم على جُل هذه الأراضي فترة طويلة، لكنهم على الأقل استطاعوا الحفاظ على أراضي الإسلام العربية، حتى لحظات دولتهم الأخيرة. لفظت الدولة أنفاسها في اسطنبول، في الوقت الذي كانت فيه حلب والقدس والبصرة، مازالتتدافع عنها وعن الرابطة التي جمعتها معًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل كانت خارطة الدولة الإسلامية عام ١٩١٦ تشي بسيطرة العثمانيين على مقاليد الأمور؟ سقطت ليبيا فريسة للاحتلال الإيطالي عام ١٩١١، وقبلها احتلت بريطانيا مصر، في الوقت نفسه أعلنت فرنسا الحماية على تونس. هل إذن كانت الدولة بحاجة لمؤامرة من البريطاني مارك سايكس و الفرنسي فرانسوا بيكو، لتنقسم إلى دويلاتٍ، ترزح تحت نير الاحتلال؟ هل كانت اتفاقية سايكس-بيكو فعلًا هي مأساة دولة الخلافة الإسلامية في أواخر أيامها؟أم أنّ الدولة كانت لتسقط سقوطًا حرًّا حتى ولو لم يكد لها الكائدون؟ من كان تأثيره أخطر على وحدة الدولة؟ الشريف حسين، أم الضابط الإنجليزي لورنس؟ هل يمكن تبرير وقوف بعض العرب ضد العثمانيين بالمؤامرات الخارجية؟، أم أننا قد تآمرنا على أنفسنا؟ هل قسمتنا بريطانيا وفرنسا؟، أم أننا من آثر الاستقلال عن الكيان الجامع، الذي -حتى وإن أصابه الوهن- استطاع الصمود في وجه المطامع العالمية قرونًا عدّة، آثرنا الانفصال في كيانات لا تغني ولا تسمن من جوع، تمامًا كما فعل الزيانيون والمرينيون والحمدانيون والإخشيديون وغيرهم، ممن ظنوا في إقامتهم لدولة منفصلة -حتى وإن كانت بمساحة لا تتجاوز مساحة قرية صغيرة- السبيل للخلود.

نعم.. يتآمر العالم علينا ويبغضوننا، بل يتآمر الجميع على الجميع دومًا من أجل إسقاطهم والسيطرة عليهم، لكن المؤامرات لا تنجح إلا لو صادفت ضعف المتآمر عليه أو خيانته، وحين جاء السادس عشر من مايو ١٩١٦، رسم سايكس ورفيقه حدودًا جديدة لدولتنا، لكن ربما لو لم يرسموها، لكنا فعلنا ما هو أسوأ منها، بضعفنا وخيانتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما ضاعت القدس

بقلم: أيمن حويرة

ثلاثون عامًا كاملة، عاشها أهل القدس والخوف رفيقهم.. شبح فقدان الأرض لا يفارق مخيلتهم، ووعد وزير الخارجية البريطاني، بإقامة وطن لليهود على أرضهم، يقضّ مضاجعهم.. ثلاثون عامًا كاملة عاشوها في انتظار الأمل الذي لم يأت.. ثلاثون عامًا ينتظرون صلاح الدين، الذي يبدو أنه قد مات قبل هذا التاريخ بزمن..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تخيلوا كثيرًا كيف سيقام هذا الوطن.. كيف ستفي بريطانيا بوعدها، لم تراودهم الشكوك كثيرًا حول تحقيقه، ففلسطين تحت الانتداب البريطاني، مما يعني أنّ مصيرهم فعليًّا، ومصير الوطن اليهودي المزعوم بأيدي الانجليز. ربما توهموا للحظات أنّ العرب سيهبّون لنجدتهم، والحيلولة دون هذا المصير، لكن نظرة سريعة على أوضاع هؤلاء العرب وحكامهم، كانت كفيلة دومًا بأن يدبّ اليأس في نفوس الفلسطينيين، ويجعلهم أسرى للحظات انتظار ثقيلة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر قرار التقسيم في نوفمبر ٤٧ فصار الوعد حقيقة، وانسحبت بريطانيا في ١٥ مايو ٤٨ لتصبح الحقيقة نكبة ومأساة، وأعلنت اسرائيل القدس الغربية عاصمة لها في ٣ديسمبر ٤٨، بعد أن قامت بسلسلة من الهجمات، تبعها تهجير قسري لأهل القدس، وغيرها من قرى ومدن فلسطين، فصارت المأساة حياة مستمرة، ومستقبلًا لا فكاك منه كما يبدو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتفض العرب وصرخوا، حاربوا وهزموا، ثم غدا كل شيء باهتًا منذ ذلك الحين، ضمّت الأردن القدس الشرقية عام ١٩٥٠، وتولت مصر إدارة غزة، وبدا أنّ الجميع راضين بما أنجزوه، الجميع إلا إسرائيل نفسها.. حاولت في ٥٦ وانتصرت عسكريًّا، لكن ما كتبه العرب في كتب تاريخهم لم يذكر هذه الهزيمة، لكن إسرائيل أبت إلا أن تسجل هزيمتها للعرب، بانتصار ساحق من الصعب إنكاره.. هنا كانت حرب الستة أيام.. النكبة الثانية والتي أسميناها زورًا نكسة..

أربع ساعات كانت كفيلة بتدمير أكثر من ٨٥٪ من مجموع القوات العربية معًا (مصر- الأردن - سوريا)، أربع ساعات احتلت فيها أكثر من ٦٨ ألف كم مربع، أربع ساعات حصلت فيها على أكثر من خمسة أضعاف ما ظلت تحلم به عقودًا، وحازته في قرار التقسيم.. فقط في أربع ساعات..

لكن العرب لم يسكتوا، عبد الناصر لم يسكت أيضًا، خرج على المصريين في مثل هذا اليوم من سبعة وأربعين عامًا، في مشهد درامي مؤثر، ليعلن تنحيه وتحمله المسؤولية، ثم ينتظر أقلّ من يوم ليعود إلى منصبه، بناء على رغبات الشعب!! أي شعب؟؟ أي رغبة؟؟ لقد استطاع بإعلامه تارة، وبقهره وقمعه تارة أخرى، أن يُنسي هؤلاء مشهد فرار الجنود بملابسهم الداخلية.. استطاع أن يلقي بالمسؤولية -التي أعلن تحملها سابقًا- على عبد الحكيم عامر وشمس بدران وغيرهم، دون أن يناله أي عقاب أو يحاسبه أحد.. عندها ضاع الحلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فقدنا القدس، وفقدنا معها ما تبقى لنا من تعاطف مع القضية،.. فقدنا شغفنا وصار حلم العودة عسير المنال.. فقدنا ما حاولنا استعادته بعدها بستة أعوام، لأننا فشلنا في استعادته.. صارت صورة المفتاح المربوط في عنق هذا الشيخ الفلسطيني، هي رمز العودة التي نتغنى بها دون أن نعودها... دون أن تزورنا في أحلامنا يوميًّا.. دون أن نتأمل ملامح المسجد الأقصى، ونتلمس موضع سجودنا فيه.. دون أن نعمل لنستحق هذه العودة..

اليوم.. لازلنا ننتظر، ننتظر بشغف أقلّ بكثير، بلهفة مصطنعة، بوجع زال أكثره يوم العاشر من يونيو ١٩٦٧.. يوم أن مات ضمير العرب ولم يستيقظ حتى الآن.. يومها ضاعت القدس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من ذاكرة التاريخ

فَجر حضارتنا.. نحن في عيون الآخر

بقلم: إبراهيم أحمد عيسى

«السراسنة قادمون... يثيرون الرعب في النفوس، يسلبون وينهبون يزهقون الأرواح بلا رادع، وبيزنطة أرهقتها الحروب المتتالية مع الفرس، الذين يعانون من نفس الويل... يقول الرهبان المسيحيون أنهم عقاب الربّ، ولدوا من جنس ملعون، أبناء هاجر المنبوذين بالصحراء... وفي مجلس كسرى كان الأمر لا يحتاج إلا لتفسير واحد... إنهم عبيد تمردوا على أسيادهم، يتبعون تعاليم شخص يقولون أنه بعث فيهم».

لم تكن تلك البداية، ولم يكن الفرسان ذوي الملابس البسيطة والخيول النحيلة، إلا طليعة لفجر حضارة عظيمة أنارت ربوع الأرض، حضارة حافظت على إرث وعلوم من سبقها من الأمم، بل وطوّرت العلوم، في وقت كان فيه العالم يغرق في وحل الظلام، لقرون تقاسمت الامبراطوريتان العظيمتان الأرض، بيزنطة وريثة روما التي سيطرت على أجزاء شاسعة من حوض البحر المتوسط، وفي الجهة المقابلة كان الفرس -الساسانيون- يمتد نفوذهم في ربوع آسيا... وبينما كان الصراع يحتدم بينهما في الشام... كان يحدث في جزيرة العرب أمر جلل... تغاضوا عنه وتضاحكوا على الأعراب، الذين لم يكونوا سوى قبائل متناحرة، يميل بعضهم إلى بيزنطة تارة، وإلى المدائن تارة أخرى... ولم يتخيل أحدهما أن يكون فناؤهما معًا، على يد تلك العصبة من قاطني الصحراء القاسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأمر أشبه بعاصفة جاءت من صحراء الجزيرة العربية، تآكلت الامبراطورية البيزنطية، بينما اجتيحت عاصمة الساسانيين... دخل جيش المسلمين إلى المدائن، وسط حالة من الذهول اجتاحت العالم آنذاك... والعدو كان له عدّة مسميات أطلقت على العرب والمسلمين، كان لهذه الأسماء دلائل إما دينيٌّة، أو جغرافيٌّة، أوعِرْقيّة، وجُلّها أُطلقَ على العرب قبل مجيء الإسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد ذكر المستشرق برنارد لويس في كتابه «الغرب والإسلام» أنّ الأوروبيين اظهروا إحجامًا غريبًا في أن يسمّوا المسلمين بأي اسم، ذي تضمين ديني، وفضلوا أن يسمّوهم بأسماءٍ عرقية، الهدفُ منها أن يقللوا من أهميتهم واحترامهم، وأن يقْصروهم على شيءٍ محليّ، أو حتى قَبَلِيٍّ. في أوقات متعددة وأماكن متنوعة، سمى الأوروبيون المسلمين: «السراسنة.. الهاجريون.. الطائيون والأتراك»وكان ذلك وفقًا لصنف الشعوب المسلمة الذين جابههم الأوروبيون... ونجد أنّ أول ذكر لتسمية «مسلم» باللغة الفرنسية كان سنة ١٥٥١م. وأول إشارة لتسمية «إسلام» باللغة الفرنسية كانت سنة ١٦٩٧م، أول ذكر لتسمية «مسلم» باللغة الانجليزية كان سنة ١٦١٥م. وأول اشارة لتسمية «اسلام» باللغة الإنجليزية كانت سنة ١٦١٣م.

السَّراسِنة

هو اسمٌ أتى من اليونانية، واللاتينية القديمة، واستخدمه الرومان بجانب مصطلح البرابرة، وهو أكثرُ أسماء المسلمين شيوعًا. أُطلق قبل مجيء الإسلام بقرون، على القبائل العربية المقيمة في بادية الشام و سيناء، وفي الصحراء الواقعة شمال الجزيرة العربية، وقد توسَّع مدلولُها بعد الميلاد، ولا سيما في

القرن الرابع، والخامس، والسادس، وأطلقت على العرب عامة، حتى إنّ كَتَبة الكنيسة ومؤرخي هذا العصر، كانوا يستخدمون لفظ Saraceni بكثرة في مراسلاتهم ...
وكانت هناك فترات، قام فيها الرومان بتجنيد السراسنة، للخدمة في الجيش الروماني في منطقة الشرق الأدنى. وفي أوائل انتشار الإسلام، والحروب الإسلامية البيزنطية، أصبح البيزنطيون يطلقون «ساراكيني»، على كل العرب بمن فيهم المسلمين.
وللاسم عدة تفسيرات، فقد ذهب البعض إلي أنّ اللفظ مأخوذ من كلمة «شرقو»، وتعني «سكان الصحراء» أو «أولاد الصحراء» وقيل: إنّالسراسنة أناسٌ عاشوا في شمال غرب الجزيرة العربية، حيث عاش النّبط. فالاسم كان يُطلق على قوم بأعيانهم، وليس عامًّا... ولكنه لاصق المسلمين لفترة طويلة، فقد كان الاسمُ يحمل في طيّاته مشاعرَ الكره والاستخفاف بالمسلمين، خاصّة أيام الحروب الصليبية. و بدأ اللفظ بالأفول في أوروبا الغربية، في أواخر العصور الوسطى.
الهاجريّون
وهو أقدم الأسماء التي وُسم بها العرب والمسلمون، ويشير إلى أنّ العرب هم أبناء إسماعيل ولد هاجر، زوجة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. لما كان بداية احتكاك الغرب بالإسلام عن طريق عرب الحجاز أولاد هاجر، فقد أطلق عليهم هذا الاسم، وفيما بعد على المسلمين العرب وغير العرب أيضًا..
وجاء في الكتاب المقدس أنّ الهاجريين: قبائل سكنت إلى الشرق من بلاد جلعاد (شرق الأردن)، وقد أطلق عليهم لفظة الإسماعيليين أيضًا، لأنّ الإسماعيليين هم عرب، وأنّ هاجر كنايةٌ عن أم إسماعيل، جدّ القبائل التي تحدثت عنها على رأي التوراة. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنّ مراد التوراة من (الهاجريين) الأعرابُ، أي البدو وهم عرب أيضًا. وقد امتدت منازلُ الهاجريين، من الفرات إلى طور سيناء، فهي منطقة واسعة تشمل بادية الشام والحجاز، وتضم عددًا كبيرًا من الأعراب، وهي منازل الإسماعيليين أيضًا.
وشأن لفظ الهاجريين كشأن السراسنة وغيره من الأسماء، التي كانت تحمل معاني الاستخفاف والحطّ من أمر العرب والمسلمين، إذ هم لا يعدون أن يكونوا «أبناء الجارية»، المستبعدين من وعد الخلاص الإلهي، بخلاف أبناء الحرة «سارة». ويستند أولئك الذين سمّوا المسلمين بأبناء الجارية إلى نصٍّ من العهد الجديد.
الأتراك
في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، كانت بداية ظهور الدولة العثمانية، والتي عُدّت بمثابة قوة عظمى، انتشلت المسلمين من التشرذم، تم تعريف المسلمين حينها بالأتراك، لأنّ بعضَ الدول الأوروبية كان لقاؤها الأوّل مع الإسلام عن طريق العثمانيين، ثم أُطلِق الوصفُ فيما بعدُ على سائر المسلمين سواءً أكانوا أتراكًا أم غير ذلك... ففي اصطلاحهم، كان لفظ «التركي» مرادفًا لكلمة «كافر»، والشخص المتوحش القاسي.
لقد كنا كذلك منذ البداية... قساة متوحشين، لم تتغير نظرتهم لنا أبدًا إلا في لحظات انسجام وتعايش لم تدم طويلًا... ولعل قصص وكتابات الرهبان كانت بمثابة منبر لبث الرعب في النفوس، عن أناس ذوي أنياب من نحاس ومخالب من حديد.... يجوبون الأرض للقتل والاغتصاب... وثنيين برابرة، ليس لهم أدني صلة بالتحضر والإنسانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيف تحوّلت إيران من التسنّن إلى التشيّع؟

بقلم: كريم عبد المجيد

لطالما كانت «إيران» معين علماء الإسلام على مدى قرون طويلة، هؤلاء العلماء الذين خرج منهم أئمة كبار من أهل السنة، ما زالت لهم يد طولى إلى الآن على العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي.

ومع بداية القرن السادس عشر، ظهرت «الدولة الصفوية» الشيعية على الأراضي الإيرانية، والتي أثرت بظهورها تأثيرًا كبيرًا على النواحي السياسية والاجتماعية والدينية تجاوزت إيران، وتعدتها إلى العراق وتركيا وأفغانستان، وصولًا إلى الهند، وكانت سببًا في قطيعة بين إيران والعالم الإسلامي السني، منذ ذلك الوقت حتى الآن.

وتبدأ قصة ظهور الدولة الصفوية، مع التصوف الذي انتشر على الأراضي الإيرانية، بعد الغزو المغولي لها في القرن الثالث عشر الميلادي، هذا التصوف الذي مزج بين التسنن الشافعي، وحب آل بيت النبي الكريم، وخاصة سيدنا «علي»، والذي سهّل التعامل بين المذاهب السنية والشيعية المختلفة، فالمتصوف يرى لقاء الله هو الهدف الأسمى، وليس في اختلاف المذاهب والطرق أثرٌ في هذا، ولكن رغم ذلك فغالبية تلك المناطق من أهل السنة الشافعية، وكان المتشيعة قلة، يتركزون في بعض المدن مثل «إقليم خراسان» و«قم»، و«قزوين»، و«هراة».

انتشرت الطرق الصوفية، وكان من بينها الطريقة التي أسسها الشيخ «صفي الدين الإردبيلي» (١٢٥٢-١٣٣٤) التركماني السني الشافعي، والتي عُرفت بالطريقة الصفوية نسبة إليه، واستطاعت الطريقة خلافًا لغيرها من الطرق، أن تتحول إلى حركة، ثم إلى تأسيس دولة وسلالة حكم، امتدت من عام ١٥٠١ حتى ١٧٣٦، واستطاع أبناؤه وأحفاده من بعده تأسيس بنية هرمية للحركة، وقفوا فيها على منصب شيخ الطريقة الأكبر.

تطورت الطريقة الصفوية وجذبت أتباعا كُثر، حتى أضحت قوة سياسية نافذة في شمالي غرب إيران، وشرقي الأناضول، في القرن الخامس عشر، خاصة مع تحول الطريقة من الوعظ إلى الجهاد والتشيع، مع أحد أحفاد الشيخ صفي الدين وهو «الجنيد» (ت ١٤٦٠) الذي مثّل نقلة في تاريخ الحركة؛ أدت إلى إعلان حفيده إسماعيل الأول المعروف باسم «الشاه إسماعيل» (١٤٨٧-١٥٢٤)، قيام الدولة الصفوية الشيعية، وتعيين نفسه كأول ملك لها، والقيام بتجميع جنود الحركة، الذين عرفوا بعد ذلك باسم «القزلباش»، في جيش تحت قيادته، ولعل الدافع القوي الذي دفع إسماعيل لإعلان دولته على التشيع، هو تمييزها عن الدول السنية المجاورة لها، وكان فرض التشيع بكل الوسائل المتاحة -كما سنرى- يهدف لإيجاد انسجام ديني ومذهبي، داخل المجتمع الإيراني الذي تحكمه الدولة الجديدة.

إعلان المذهب الشيعي وبداية المقاتل

تذكر المدونات الصفوية أنّ إسماعيل اجتمع ليلة الجمعة بأركان دولته، وبحث معهم إعلان الدولة الجديدة على المذهب الشيعي الإثنى عشري، وقد أثار هذا تخوف كثير منهم، خاصة وأنّ عدد سكان مدينة «تبريز» والذي ينوي الإعلان من خلالها، يزيد عن ثلاثمئة ألف شخص، ثلاثة أرباعهم من أهل السنة، وقد تحدث ردة فعل شعبية من الناس ترفض أن يحكمهم ملك شيعي، إلا أنّ جواب

إسماعيل أكد على أنه لا يخشى إلا «الله» و«الأئمة الإثنى عشر»، وأنه من يعترض منهم سيفصل السيفُ رأسه عن جسده.
وفي صباح الجمعة، وبينما الناس يتوافدون على «المسجد الكبير» بالمدينة، فوجئ المصلون بانتشار «القزلباش» في الجامع، وهم مدججون بالسلاح، وصعد الشاه على منبر المسجد الكبير، وأعلن المذهب الشيعي الإثنى عشري، مذهبًا رسميًا للدولة الجديدة، وتذكر المصادر الصفوية أنّ الشيخ «أحمد الإردبيلي»، قد قرأ الخطبة باسم الأئمة، فقوبل الأمر بالترحيب من نصف مَن كان في المسجد، واعترض النصف الآخر على الأمر، وما كان من القزلباش إلا أن استلوا سيوفهم، وأسكتوا كلّ مَن اعترض على هذا.
انطلق الشاه لاستئصال المخالفين لمذهبه عبر القتل والمطاردة، وصدرت الأوامر بلعن الخلفاء الثلاثة في الخطب والأماكن العامة، ومن يرفض من الناس اللعن فمصيره القتل، ومن يُرى وهو يصلي صلاة أهل السنّة ستُقطع رأسه، كما صدر قرار بحرق أهل السنّة الذين اضطهدوا الشيعة قبل ظهور دولة الشاه، وتم قتل كثيرٍ بهذا القرار في أذربيجان، كما جرى هدم الجوامع السنيّة، ونسف المزارات الصوفية النقشبندية، وقُمع العديد من الطرق الصوفية الأخرى، وقد امتدت يد المطاردة والقتل لأرباب التسنن والتصوف، طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهرت حالة من الذعر بين سكان المدن الإيرانية والأذربيجانية، عند وصول أخبار هذه المجازر إليهم، خاصة وأنّ الشاه كان يقوم بترهيب المناطق التي يُقبل على فتحها، قبل أن يدخلها، وينشر بداخلها، أنّ من سيعترض عليه وعلى حكمه ومذهبه، فمصيره القتل، فالناس هنا بين خيارين: إما إعلان تشيعهم، أو استقبال السيف في صدورهم، وقد قامت مذابح كبيرة ضد أهل السنة في كثير من المدن، مثل مذبحة «تبريز»، والتي يُقال إنّ عدد ضحاياها تجاوز العشرين ألفًا، ومدينة «يزد» التي لم يَقلّ فيها عدد القتلى عن سبعة آلاف قتيل، بالإضافة إلى «كازرون»، و«طبس»، و«مقاطعة خراسان»، و«بغداد» التي دخلها الشاه في أكتوبر ١٥٠٨، وفيها أمر بفتح قبر الإمام «أبي حنيفة»، وإخراج عظامه وحرقها ثم نثر رمادها، ثم هدم تربته وحرقها.
أقبل الأهالي في مختلف المدن على التشيع خوفًا من القتل، وكان يتم جلب الأهالي مجموعات مجموعات إلى ميدان كبير، ويقوم أحد علماء الشيعة بشرح أسس المذهب، ووعظ الناس وتحبيبهم في المذهب، ويقوم عالم آخر عند انتهاء الأول من حديثه، باستقبال الناس على دفعات، ليعلنوا موالاتهم لآل البيت وللأئمة الاثنى عشرية، وتشيعهم، ومَن يرفض فمصيره محتوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترسيخ المؤسسات الشيعية في الدولة
لم يعتمد انتشار المذهب الاثنى عشري في إيران، على السيف وقوة الدولة العسكرية فقط، بل أدرك الشاه منذ البداية؛ أنّ ترسيخ المذهب لا بد له أن يقوم على المؤسسات التعليمية الفقهية، وتعظيم التشيع في قلوب الناس بشتى الطرق، فقام أولًا باستقدام علماء الشيعة من «جبل عامل» بلبنان، كما استقدم أيضًا علماء البحرين وسورية والعراق وشمال شرق الجزيرة، وقد قاموا بوضع الأساس الفكري للتشيع في إيران، عبر وضع الكتب والمؤلفات، وقد برز العالم الشيعي اللبناني «علي الكركي» (١٤٦٥-١٥٣٤ تقريبًا) كأول عالم أسس مدرسة شيعية في إيران، وهي المدرسة التي حولت التشيع الصوفي الذي يتلاءم مع مرحلة الطريقة، إلى التشيع الفقهي المؤسسي، المتوافق مع تحولٍ الدعوة

إلى دولة، كما تم تأسيس مؤسسة دينة شيعية رسمية في الدولة، يترأسها «شيخ الإسلام» ممثلًا لأعلى منصب ديني في الدولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما على مستوى العمائر والمزارات الشيعية، فقد تم إعادة بناء المزارات الموجودة، وترميم ما هو قائم منها، في مدينة «مشهد» و«قم» وذلك في عهد الشاه «عباس الأول»، مع وقف ممتلكات واسعة عليها، كما جرى إهمال الحج إلى «مكة» بزيارة كربلاء بالعراق، وجرى زيادة الزيارات الطقسية الاحتفالية لأضرحة الأئمة، بدلًا من الزيارات التي كانت تتم لأضرحة الصوفية، وكل هذا كان بغية ربط الإيرانيين بالمؤسسة الدينية الشيعية الشعبية.

وهكذا انتقلت إيران السنية الشافعية إلى التشيع، والذي ما زال يلعب دورًا واضحًا الآن، في حقبة مَن يمكن تسميتهم بالصفويين الجُدد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقبرة

بقلم: نهى عودة

احبسوا دموعكم، تمالكوا أنفسكم، وتحكموا في مشاعركم.
دعوني أصحبكم في رحلة عبر التاريخ، نجول في أماكن مختلفة من الأرض على اتساعها، ونتعرف سويًّا على مقابر للمسلمين، لم تسلم من جرائم التخريب والنبش والسرقة. حتى إنّ الانتهاكات وصلت في بعض الأحيان إلى محو مقابر بأكملها.. وكما طالت هذه الجرائم مقابر العامة، طالت أيضًا مقابر عظماء خلد ذكرهم التاريخ...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن مسلمو الأندلس مجرد قوم فتحوا البلاد وعاشوا فيها، ثم طردوا منها وانتهى كل شيء، بل هم قوم أشعلوا فيها جذوة حضارة عظيمة فتية، أضاءت دروب أوروبا المظلمة. لم يخطر ببال أحد من الأندلسيين يومًا أنّ رفاته الراقدة في سلام، ستكون بمثابة أساس صلب لمجمع سكني يومًا ما!!
في مدينة آبلة الإسبانية يبدو كل شيء هادئًا، المدينة مثلها كمثل أغلب المدن الأوروبية المأهولة بالسكان، الحياة تسير وتمضي كعادتها، والأحياء لا يتوقفون ذهابًا و إيابًا داخل ذلك الحي، الذي لا يختلف كثيرًا في تفاصيله عن الأحياء، التي تقطنها الطبقة الوسطى من الإسبان، الأمور تبدو وكأنها عادية جدًّا؛ أشجار وبنايات بينها ممرات، تتخللها حدائق صغيرة، وتزينها الزهور البديعة، لكن المؤسف في الأمر، أنه منذ وقت غير بعيد، كان يوجد هناك تحت تلك البنايات، مقبرة تعود إلى العصر الإسلامي الأندلسي!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما اُعتُبر سكان شبه الجزيرة الأيبيرية من المسلمين، عقب سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس، مجرد مجموعات من المهمشين غير المرغوب فيهم؛ وكنتيجة لذلك فقد سيموا ألوانًا شتى من الظلم والقهر، وقد ظلّ أغلبهم متمسكًا بالشعائر الدينية الإسلامية؛ وكانوا يُطلقون على أنفسهم الغرباء. لكن كان بديهيًّا مع السياسة الدّموية الآثمة، التي انتهجتها السلطات الكاثوليكية وفرضتها عليهم، أن تنزوي تعاليم الإسلام شيئًا فشيئًا من حياتهم، وأن يصير أغلبهم-مع اشتداد المحنة وتعاقب الأجيال-غريبين عن دينهم وعن عاداتهم. إلا أنّاكتشاف مقبرة ضخمة للمسلمين في مدينة (آبلة)، والتي تُعدّ معقل التصوف المسيحي في إسبانيا، ومن أوائل المدن الأندلسية سقوطًا، ضربت بهذه الحقائق عرض الحائط.
تشير الرواية الرسمية إلى أنّ التواجد الإسلامي في مدينة آبلة لم يكن نافذًا، حيث شكل المسلمون المتواجدون فيها، مجموعات من أسرى غزوات الممالك المسيحية الشمالية، وآخرون فارون من حكم المرابطين، الذين أسرفوا في إراقة دماء كل من يخالفهم، أو من يُشك في ولائه لهم، لكن تعددت الدراسات التي أثبتت أنّ هناك جالية إسلامية مزدهرة، عاشت في المدينة بعد سقوط الحكم الإسلامي، وفي الفترة التي عرفت بعصر «المدجّنين»، والمدجّنون هم مسلمو الأندلس، الذين عاشوا في ممالك مسيحية في شمال شبه جزيرة إيبيريا،إلى أن أكرهوا على التنصر أو الرحيل، وقد تم التثبت بالوثائق أنّ المدجنين في هذه المدينة، كانت بينهم وبين القوى الإسلامية المتمثلة في غرناطة والشمال الإفريقي في ذلك الوقت، تواصل مستمر. وقد ترك هؤلاء الأندلسيون بصماتهم المعمارية بامتياز،

في المدينة التي عاشوا فيها، ودفنوا فيها على الشريعة الإسلامية، حيث أجمعت الحفريات على تواجد رفات الموتى على عمق بعيد من سطح الأرض، كما أنّ المتوفين مستلقون على جانبهم الأيمن، وباتجاه مكة المكرمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد توقّف الدّفن في المقبرة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر، بموجب قرار من السلطات الكاثولكية، واعتبر كثير من الباحثين الإسبان، المختصين بدراسة التاريخ الإسلامي في المدينة، وجوب الحفاظ على هذه المقبرة، كتراث وكنز تاريخي، وشاهد على تعايش الأديان تحت سماء تلك المدينة، وباعتبار أنها أيضًا على الأرجح أكبر مقبرة إسلامية في أوروبا، من حيث عدد القبور؛ حيث حدّد الباحثون عقب اكتشاف المقبرة عام ١٩٩٩م، أنها تضم حوالي ثلاثة آلاف قبر، في مقابل خمسين قبرًا وجدت في بلد الوليد على سبيل المثال، إلا أنّ السلطات الإسبانية والشركات العقارية، لم يكن لديها من رهافة الحسّ، ما يكفي للحفاظ على هذا الشاهد التاريخي، الذي كان يصدح بما كان يجهله السكان الحاليون من تاريخهم، فطمست المقبرة بين ليلة وضحاها، ولم يتبق من أثرها سوى بعض الصور الأرشيفية، وبعض البقايا الملقاة في مستودع متحف المدينة، وأخرى نقلت للجامعة للدراسات الأنثروبولوجية. كل هذا وسط صرخات مدوية ضلّ صداها طريق العودة من المدافعين عن التراث الإسلامي... إنها جريمة فادحة لن يغفرها التوسع في العمران، ولا روعة البنايات، ولا نسيم الزهور المنبعث من الحدائق، التي تغذّت على رفات أجدادنا الأندلسيين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن فردوسنا المفقود الأندلس إلى دمشق الحزينة... لم يكن غريبًا أن تحتضن ياسمينة الشام، محط الأنبياء، وبلاد الأولياء، جثمان الفارس النبيل صلاح الدين. وبرغم انبهار الأوروبيين بشخصية صلاح الدين الكاريزمية، وإعجابهم بها أيما إعجاب، ونسجهم حولها الأشعار والأساطير، إلا أنّ مرور مئات السنين على وفاته، لم يمنع أفعى الحقد والثأر، من التسلل إلى قلوب الصليبيين الجدد، وكيف لا وقد كان صلاح الدين طعنة في قلوب الأعداء. ذلك الفارس المتوّج الذي ظهر لهم حين ملأتهم الثقة وفاضت، بعدما كان العالم الإسلامي يعيش مرحلة من أصعب المراحل التي مر بها، وقد غلب عليه الانقسام والتشرذم والضعف والتخاذل، وبدا أنّ ليل المسلمين ليس له آخر. لم تصور لهم أكثر كوابيسهم رعبًا أنّ أحدًا من المسلمين يمتلك القدرة على رأب هذا الصدع المهول؛ فجاء صلاح الدين على حين غرة، ليكون بمثابة الصفعة المهلكة، فاسترد القدس بعد حوالي مئة عام من الأسر، وأجهز عليهم بالضربة القاضية حين دخلها منتصرًا، فأغدق على النصارى من الكرم والمروءة والنبل، ما جعلهم ينقشون اسمه على صفحات قلوبهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مئات السنين وقادة الإفرنج يجترون غيرتهم من صلاح الدين، مئات السنين وجرح الصليبيين في حطين لا يندمل. كانت خطوات الثأر ثابتة وفق خطة تمت حياكاتها بإحكام، وتعاقبت الأجيال عازمة على تنفيذها مهما مر الزمان. جنى الصليبيون أولى ثمار هذه الخطة حين نجحوا في دقّ المِسمار الأول في نعش الدولة الإسلامية، بعد أن وجّه العرب الطعنة الكبرى بأيديهم إلى دولتهم الموحدة، وفتتوها إربًا خلال الأحداث التي عُرفت بالثورة العربية. لم يأل توماس إدوارد المشهور بلورانس العرب جهدًا، حين كان يؤكد في كل سطر دوّنه من مذكراته، كم الحقد والكراهية والاحتقار التي كان يضمرها لهؤلاء العرب، وكيف استخدم الدهاء ليتحايل على هؤلاء السذج، وكيف قام بتحويلهم إلى

أدوات، تم استخدامها بذكاء، لتوطيد مخطط بريطانيا الاستعماري في المنطقة. كل هذه الأحداث الملتهبة لم تثن هذا اللورانس، سارق الأوطان، من أن ينتزع الإكليل الذي كان يزين قبر صلاح الدين الأيوبي. وكان هذا الأكليل قد أهداه الامبراطور الألماني وليم الثاني، لروح القائد الشهم صلاح الدين، تقديرًا منه لسياساته العسكرية، وكونه رمزًا يجسّد نبل أخلاق الفروسية، وكان ذلك في عام ١٨٩٨م، أثناء زيارته لمدينة دمشق، تلبية لدعوة قدمها إليه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. سنوات عجاف مرّت على أمتنا الإسلامية، انتهت بانتزاع دمشق من الدولة العثمانية لصالح بريطانيا، وانتزاع إكليل صلاح الدين. وقد كان لورانس من الولاء والإخلاص لوطنه، حتى إنه أهداه في ١١ نوفمبر ١٩١٨م إلى المتحف الحربي البريطاني، ومازال مستقرًا هناك إلى يومنا هذا. ومايزيدنا حسرة ذلك الملصق المجاور للإكليل وقد دوّن عليه «إكليل صلاح الدين، يبدو أنّ الملك فيصل قد أهداه إلى لورانس، عقب دخول دمشق»، ومن دون خجل تم تدوين ما يفيد، أنّ مستند الإيداع الأصلي للإكليل، والذي قدمه لورانس بنفسه قد ذُكر فيه: «هذا الإكليل انتزعته بنفسي فصلاح الدين لم يعد بحاجة إليه».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبقدر ما كانت انتصارات صلاح الدين موجعة للصليبيين، بقدر ما كان ثأرهم منه مضاعفًا، ففي عام ١٩٢٠م بعد سنتين من واقعة سرقة الإكليل، وعقب اتفاقية سايكس بيكو الملعونة، والتي بموجبها أصبحت سوريا من نصيب فرنسا، لم يفوّت الجنرال الفرنسي هنري غورو قائد معركة ميسلون، فرصة الثأر من صلاح الدين، وحينما دخل الفرنسيون دمشق في اليوم التالي لخسارة الجيش العربي السوري للمعركة، حرص قائدهم على الذهاب إلى قبر القائد صلاح الدين الأيوبي، ووقف أمام ضريحه، ليفلت لسانه بما يجيش به قلبه الحاقد دون تفكير، فقال: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين»!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عودة إلى الأندلس مرة أخرى، وبالتحديد في مدينة سالم، حيث لم يكن القائد الأندلسي الكبير المنصور بن أبي عامر، أوفر حظًا من صلاح الدين الأيوبي، إنه القائد العسكري الفذّ الطموح، الذي سيطر على مقاليد الأمور في الأندلس، بعد أن كادت تفلت من أيدي المسلمين، عقب وفاة الخليفة الحكم المستنصر، وتولي ولده الصبي هشام، فكانت الفرصة سانحة للإفرنج فنقضوا العهود والمواثيق، واستباحوا الثغور الأندلسية، فقيّض الله للأندلس قائدًا مثل المنصور، ليكبح به زمام ملوك النصارى، بعد أن تمادوا حتى كادوا يصلوا إلى قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية في الأندلس. لم يكن قد مرّ زمن طويل على انتقال روح المنصور إلى بارئها، إلا أنّ صدى انتصاراته وارتعاب ملوك النصارى منه، ظل يتردد في أجواء الأندلس؛ ليشعل فتيل الثأر حتى بعد مماته بنحو ثمانين عامًا. ويروي شجاع مولى المستعين بالله أحمد بن يوسف بن هود، حاكم سرقسطة في عهد ملوك الطوائف، بعد أن دبّت الفرقة والوهن في صفوف مسلمي الأندلس، أنه لما ذهب لملاقاة ملك النصارى الفونسو السادس، وجده في مدينة سالم، وقد أقام خيمة كبيرة، نصب فيها سريره فوق قبر الحاجب المنصور، وزوجته متكئه إلى جانبه، فقال له: يا شجاع، أما تراني اليوم قد ملكت بلاد المسلمين، وجلست على قبر مليكهم؟! فأجابه شجاع وقد حملته الغيرة ليقول له: «والله لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه، ما سُمِعَ منك ما يكره سماعه، وما استقر بك قرار». فهمّ به وكاد يقضي عليه، لولا أنّ زوجة ألفونسو حالت بينه وبين شجاع، وقالت له: صدقك فيما قال، أفيفخر مثلك بهذا؟!فأنى للإفرنج أن ينسوا، مَن سنّ سُنة الصوائف والشواتي في بلاد الأندلس، كيف لهم أن يتناسوا مَن جعلهم ينحوا جثث موتاهم جانبًا، ليفسحوا له الطريق ليرحل، بعد أن اشترط عليهم ذلك. وبرغم جريمة ألفونسو وقبيح فعله، إلا

أنه حق للمنصور أن يهنأ ويرقد بسلام، مطمئنًا تحت عرش ملوك النصارى، بعد أن غزاهم أكثر من أربع وخمسين مرة فلم تُنكس له راية، ولم تهلك له سرية، ولم ينهزم له جيشٌ قط!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك قصة أخرى مشابهة لكنها تبدو أشبه بالفكاهة، ففي مدينة سوغوت التركية يرقد جثمان أرطغرل غازي، الجد الكبير للسلاطين العثمانيين، الرجل الذي غيّر خارطة العالم، فجعل من مئة أسرة تسكن أربعمئة خيمة، نواة لامبراطورية عظيمة، حكمت العالم قرابة خمسة قرون. تحمل اللوحات الإرشادية، المعلقة داخل البناء الذي يضم قبر أرطغرل، تفسيرًا لتلك الثقوب المخترقة لبوابة المقبرة ونوافذها؛ فيبدو أنّ اليونانيين كانوا يخشون #قيامة_أرطغرل بحق، فأمطروا قبره بوابل من الرصاصات الحاقدة، أثناء هجومهم على المدينة، خلال الحرب اليونانية التركية عام ١٩٢١م..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد تبدو كل تلك الحوادث منطقية بعض الشيء، وسط عالم كانت تسوده الصراعات، لكن القصة العجيبة هي التي تخصّ هؤلاء المساكين، الذي قادهم القدر لأن يكون مثواهم الأخير على أراضٍ لا ينتمون إليها، فخلال الحرب العالمية الأولى وجد المشارقة المسلمون في صفوف الجيوش العثمانية أنفسهم، في مواجهة قاسية مع هؤلاء الذين جندتهم فرنسا قسرًا، من أبناء المغرب الإسلامي، خلال فترة الاستعمار، لتزج بهم في الصفوف الأمامية، وليس أتعس من هؤلاء الذين قادتهم فرنسا إلى أراضيها، ليشاركوا في حروبها ضد الألمان (الحرب العالمية الأولى والثانية)، فقضوا ودفنوا هناك، ولا يكاد يمر عام دون أن تسجل أكثر من واقعة لتدنيس مقابرهم بأقذر الطرق، تتدرج من رسم صلبان معقوفة، أو كتابات مسيئة للإسلام والمسلمين، مرورًا بأعمال هدم وتخريب، وانتهاء بالتبول على القبور، وتعليق رؤوس خنازير على شواهد تلك القبور.

عمل همجي واحد يروي لنا القصة باختصار... إنّ هؤلاء المخربين من الفرنسيين لا يجدون أيّ غضاضة، في رسم علامات النازية على شواهد هذه القبور، وكتابة عبارات تمجيد لهتلر، الذي أذاق فرنسا الأمرين في الحرب العالمية الثانية، فقط لكون هتلر قد قتل هؤلاء المسلمين، بالرغم من أنهم حينها كانوا يحاربون، ضمن صفوف الفرنسيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإسلام ونموذج العمل
(دولة المدينة ودولة مكة)

بقلم: أيمن حويرة

«تتعرض الشركة لخسائر كبيرة في الصين جراء المنافسة الشرسة، نحقق أرباحًا في الولايات المتحدة، لكننا نخسر مليار دولار سنويًّا في الصين. وبالرغم من أنّ الصين هي أكبر سوق دولي لنا، لكن نصيب الشركة من السوق الصينية يتقلص، بسبب منافسها الأكبر ديدي كيوادي. والذي بالرغم من أنه لا يحقق ربحًا في كل المدن التي يعمل بها، لكن حصته في السوق تتزايد» ...

كانت هذه الكلمات جزءًا من حوار أجرته رويترز مع ترافيز كالنيك، المدير التنفيذي لشركة أوبر لتأجير السيارات. تلك الشركة التي ظهرت للنور عام ٢٠٠٩، واستطاعت على مدار الأعوام القليلة الماضية أن تضاعف عائداتها، حتى وصلت إلى أكثر من عشرة مليارات في عام ٢٠١٥، مع قيمة سوقية للشركة تتخطى الستين مليار دولار. لكن بالرغم من عبقرية الفكرة التي قامت عليها الشركة، والنجاح المدوّي الذي لاقته عند بدء الخدمة في العديد من الدول والمدن حول العالم، بسبب نموذج العمل الذي ابتكرته وانتهجته، إلا أنّ هذا لم يمنعها من أن تسجل خسائر في الصين بصفة خاصة، وعلى مستوى الشركة عامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا في وقت كانت فيه شبه الجزيرة العربية تعيش حياة الجاهلية، كان أكثر العرب حينها يعبدون الأوثان، بينما اعتنقت نسبة صغيرة منهم اليهودية (خيبر- يثرب) والمسيحية (نجران - اليمن). كانت حياة القبائل تسيطر على كامل المشهد، وكانت قريش تسكن مكة وتحكمها. وُلد محمد -عليه الصلاة والسلام- وترعرع وسط هذه الظروف، وعاش طفولته وبداية شبابه كجزء من هذه المنظومة، حتى وإن لم يلتزم بقواعدها تمامًا، لكنه استطاع أن يحوز احترامًا وتبجيلًا لم ينكره أعداؤه الذين كذبوه لاحقًا.

وحين جاءه جبريل -عليه السلام- ليبدأ معه رحلة هداية أهل مكة، ومن بعدهم البشرية أجمعين، كان على رسول الله أن يقدم رسالته، بما يتوافق مع المجتمع والبيئة المحيطة به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في علم إدارة الأعمال، يتوقف نجاح أي فكرة جديدة أو مشروع على مدى تكامل وجودة نموذج العمل الخاص به (Business Model)، وقد كان على الإسلام أن يقدم نموذجًا متميزًا للعمل، يضمن نجاح المشروع الإسلامي. لكنّ هذا النموذج الذي طُرح في مكة بعد البعثة النبوية، كان نموذجًا دخيلًا إلى حد ما على قريش، حيث بدا أنه سيقود إلى تحطيم دولتهم وكسر سطوتهم. كانت قريش تعلم أنّ محمدًا ذا الأصول الكريمة والخصال الجليلة، قادرٌ على أن يأسر قلوب أهل مكة، وأن يصل إلى مقعد القيادة. لم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة التي أرّقت قريش وقضّت مضاجعهم، فالاختلاف الفكري بين ما يطرحه محمد وبين ما وجدوا أباءهم عليه كان جليًّا. كان الإسلام يدعو إلى المساواة في وقت كانت العبودية هي شعار المرحلة، جاء الإسلام ليُحرّم كثيرًا مما استحله أهل مكة على مدار عقود وقرون. إذن لن يأتي الإسلام على سلطتهم فحسب، بل سيطغى أيضًا على قناعاتهم وعاداتهم الاجتماعية. هذا الدين يحمل انقلابًا فكريًّا وسياسيًّا لا قِبل لهم به!

إذن جاءت فكرة عظيمة بنموذج عمل، بالتأكيد هو الأفضل لكونه سماويًّا، لكنه -نموذج العمل-رغم ذلك ظلّ يحاول لمدة ثلاثة عشر عامًا -هي عمر الدعوة في مكة- أن يحلّ محل نموذج العمل القرشي، بكل ما يحويه من خصائص دينية (عبادة الأوثان)، واجتماعية (شيوع الرقّ، والخمر، والزنا)، واقتصادية (الربا). كانت خصائص النموذج الإسلامي على النقيض من كل هذا، حتى وإن لم تطرح ذلك في البداية. لكنّ شيئًا ما في دعوة محمد كان ينبئ بأنّ هذا النموذج لن يكون نموذجًا مكملًا قابلًا للتعايش مع النموذج الجاهلي، وإنما سيكون نموذجًا بديلًا عنه، يطيح به ويجتثه من جذوره. نموذجًا يستمد شرعيته من الله عز وجل، لذا فإنّ محاولة تطويعه أو إعادة تشكيله ليتناسب ورغبات أكابر قريش ستمنى حتمًا بالفشل. حاول قادة قريش بالفعل فعرضوا على محمد عليه الصلاة والسلام أموالًا طائلة لكنه لم يستجب، اقترحوا أن يعبدوا آلهتهم وإلهه بالتناوب فأبى، فما كان منهم إلا أن رفضوا هذا النموذج وقاوموه، وعادوا كل من نادى به أو انضم لركبه، حتى أيقن قائد هذا النموذج بضرورة تغيير أحد أطراف المعادلة، فكان أن أذن له الله بالهجرة إلى المدينة، واختيار شركاء وعملاء جدد، لهذا المشروع الوليد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على النقيض تمامًا من مشروع دولة مكة الذي لم يكتب له النجاح، كانت المدينة المنورة أرضًا خصبة لمشروع الدولة الإسلامية المرجوة. اختلف نموذج العمل ليتماشى مع الظرف الجديد والبيئة المختلفة كليًّا عن نظيرتها في مكة. استعد الرسول جيدًا لهذه البيئة الجديدة، فأرسل سفيره (مصعبَ بن عمير) لينشر فكر الإسلام، ويمهد الطريق لهذا المشروع الفكري والسياسي. ربما يبدو الأمر غريبًا إذا علمنا أنّ دعوة مصعب - ذلك الغريب عن المدينة - لم تستمر أكثر من عام لكنها أتت أكلها، في الوقت الذي ظل محمد ﷺ -صاحب الدعوة نفسه- يدعو قومه عشرة أعوام جهرًا فلا يحقق النتائج المرجوة التي حققها أحد رجاله. لكنّ إجابة هذا السؤال العسير تكمن في المرونة التي اتصف بها نموذج العمل، والسياسة التي انتهجها الرسول في تجربة المدينة، لتلافي المعوقات التي لاقاها مع قومه في مكة. اختيار المدينة في حد ذاته كأرض جديدة لهذا المشروع كان تعديلًا جوهريًّا على هذا النموذج؛ فأهل المدينة -بعكس مكه- أهل كتاب، عاش اليهود على أرضها سنينَ عديدة يبشرون برسول جديد، وكانوا على أهبة الاستعداد لاستقبال الرسالة على عكس عبدة الأصنام في مكة. حتى عرب المدينة خافوا من استحواذ اليهود على هذا الرسول الجديد فآثروا الاستماع له والاقتناع به. كذلك كان لهلاك العديد من قادة العرب في يثرب - قبل الهجرة- في الصراعات المستمرة بين الأوس والخزرج وآخرها حرب بُعاث أثرًا واضحًا، فلم يمتلك قادة الصفّ الثاني في المدينة نفس الكبر والغرور، بل والقوة التي امتلكها قادة قريش في مكة، لمقاومة الدين الجديد أو بصورة أكثر وضوحًا مقاومة فقدان السلطة.

لقد استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن يجد منبتًا صالحًا، لزرعته التي زرعها في البداية في أرض بور، لم تشفع سقايته وجهده طوال بضعة عشر عامًا في أن يرى حصاد ما زرع، إلا حين اختار أرضًا أخرى يحرثها هو ورجاله. قضى أعوامه الأخيره في مكة يخطط لهذا التغيير الجوهري في مسار الرسالة والدعوة، تغييرًا جذريًّا في نوعية المتلقي والعلاقة معه. فبدلًا من العلاقة التي بدت ندّية بين الرسول وقريش في مكة، كان مصعب بن عمير ومن بعده المهاجرون وعلى رأسهم قائدهم إخوة لأنصارهم في المدينة؛ علاقة كانت منذ يومها الأول علاقة وديّة بعيدة عن التنافس أو الصراع. ربما كان لغياب بيت الله الحرام أيضًا دورٌ في تقبل الأنصار للدين الجديد، فقد كانت الكعبة في مكة

أحد أوجه الصراع وأركانه؛ صحيح أنّ ذلك لم يكن واضحًا قبل الهجرة، لكن نظرة سريعة لما حدث يوم فتح مكة، يخبرنا بأنّ الكعبة كانت دومًا رمزًا للصراع. الكعبة التي ترى قريش أنها ملك لها وحدها، بينما يعلم الأنصار جيدًا في المقابل أنّ المسجد النبوي الذي بناه الرسول هو ملك للجميع مهاجرين كانوا أو أنصارًا.

لم تقتصر روعة نموذج العمل -المعدل- على مرحلة ما قبل الهجرة في المدينة، لكنها امتدت لتشمل أحد عشر عامًا كاملة قضاها الإسلام ورسوله هناك، خطوات المسلمين كانت ممتازة ومحسوبة، غزوات الرسول كانت لتثبيت أركان الدولة الوليدة. علاقاته ومعاهداته مع اليهود ثم حروبه معهم بعد نقضهم لهذه المعاهدات، القيمة التي أضافها الكيان السياسي للإطار الدعوي والذي أكسب الدعوة بريقًا، فضلًا عن القوة التي اكتسبها المنتمون لها ولهذا الكيان، إلى جانب القيمة الاقتصادية التي كان لبعض خصائص هذا النموذج بالغ الأثر في إثرائها، حيث كان تحريم الربا -كمثال- أحد العوامل التي أثرت إيجابيًا في حالة المدينة الاقتصادية. وقد تجلت عظمة هذا النموذج في لحظة فتح مكة، تلك اللحظة التي ربما كان ليخطر ببال محمد عليه الصلاة والسلام أن يعود بعدها إلى موطنه ويتخذ من مكة عاصمة لدولة الإسلام الفتية. لكن تجربة مكة قبل الهجرة، كانت كفيلة بتأكيد أنّ بيئة المدينة وأهلها وخصائصها، هي الأنسب لهذا النموذج، بمعنى أصح كانت التعديلات التي أدخلت على نموذج العمل بما فيها تغيير المكان نفسه، ضرورية ولا سبيل للتراجع عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لماذا فشلت أوبر في الصين، بالرغم من نجاحاتها المبهرة في الولايات المتحدة؟ بل وبالرغم من الإبداع اللافت للنظر في نموذج العمل المبتكر الذي قدمته هذه الشركة، والذي صار مثالًا يُحتذى به فيما بعد؟ إجابة هذا السؤال تبدو -على الرغم من الفارق الشاسع- هي نفسها إجابة السؤال الذي لا يسأله الكثيرون: لماذا نجح الإسلام في إقامة دولته الأولى في المدينة، بينما لم تنجح المحاولة في مكة؟ الإجابة تتعلق بنموذج العمل نفسه، والمرونة في تطبيقه،وتطويعه، لا في المشروع. فالإسلام ودولته مشروع، يحمل في طياته مكوّنات النجاح، لكن نماذج العمل المقترحة لإرساء قواعد هذه الدولة، هي العامل الرئيس في نجاح أو فشل المشروع. وكما تعثر مشروع إقامة الدولة في مكة ونجح في المدينة، فقد صادف المشروع على مدار ألف وأربعمئة عام تحديات عديدة، ونماذج عمل مختلفة كان لكل منها مميزاته وعيوبه، التي يجب دراستها وتحليلها قبل الحكم على المشروع كله بالفشل، فالإسلام في حد ذاته ليس نموذج عمل، وإنما مشروع جليل قادر على أن يسود العالم، لكنه فقط بحاجة إلى اختيار النموذج المناسب لتطبيقه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإسلام ونموذج العمل
(دولة الصحابة)

بقلم: أيمن حويرة

«من كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت».

هكذا استهل خليفة رسول الله ورفيق رحلته -قبل الهجرة وأثناءها وبعدها- كلامه، حين علم بوفاة نبي الله وخاتم المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام. هكذا أسس أبو بكر رضي الله عنه لمرحلة جديدة من عمر دولة الإسلام، واضعًا أهم لبنة في بناء نموذج العمل الجديد، الذي بدا أنه سيواجه تحديات عديدة بعد وفاة مؤسسها. تحديات كان أولها التأسيس لقاعدة تداول السلطة، واكتساب الشرعية اللازمة لإدارة الدولة الوليدة. أمّا عن تداول السلطة فقد اجتاز الصديق هذه المعضلة بنجاح يوم السقيفة، حيث أرسى يومها قاعدة هامة، ظلت قائمة بعده لأكثر من تسعة قرون، مستعينًا بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، أنّ منهم -أي قريش- الأمراء، ومن الأنصار الوزراء، بعد أن كان الأنصار قد رشحوا سعد بن عبادة، ليخلف الرسول عليه الصلاة والسلام. وأمّا عن الشرعية فقد حازها، لما له من الفضل، سواءً لأسبقية دخوله الإسلام، أم لمرافقته للنبي في هجرته وغزواته. لكن هذا النموذج صادف اختبارًا عسيرًا، وتحديًا صعبًا في أولى محطات الخلافة، بعد امتنعت أكثر القبائل عن أداء الزكاة، في خطوة بدا ظاهرها كمجرد خلاف فقهي في تفسير الزكاة وحكمها، لكنها في الأساس كانت خروجًا سياسيًّا على دولة الخلافة الوليدة، التي ربما لم تنل رضا الجميع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا لو لم يقاتل أبو بكر رضي الله عنه القبائل التي ارتدّت؟ ماذا لو استطاع عمر بن الخطاب إقناعه بالكفّ عن قتالهم، وتركهم على ما هم عليه، مستشهدًا بقول الرسول ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»؟ بل ماذا لو قاتلهم الصديق وفشل في ردعهم، فضاعت دولة الإسلام التي أسسها رفيق الغار؟ ماذا لو انتصر حربيًّا ثم فشل سياسيًّا في إعادة هؤلاء المرتدين إلى كنف دولته، وهو ما يعني بالتبعية فشله في إضفاء الشرعية على خلافته؟ لماذا أصرّ على منازلتهم وقال قولته المشهورة والتي أقنعت عمر وسائر الصحابة: «والله لو منعوني عقالًا، كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنهم على منعها، إنّ الزكاة حقّ المال، والله لأقاتلن مَن فرّق بين الصلاة والزكاة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذا إذن هو الإصدار الثالث من نموذج عمل دولة الإسلام، ذلك النموذج الذي مازلت أؤكد على عظمة ما ينادي به، وعلى عصمة إصداره الأول والثاني، حتى وإن واجه كلاهما بعض الصعوبات، بل وحتى هذا الإصدار الثالث نفسه -إصدار دولة الصحابة- لهو من العظمة بأن يُحتذى به، ويظل قدوة للعديد من الدول الإسلامية وأنظمة العمل الخاصة بها على مدار ثلاثة عشر قرنًا لاحقة، حتى وإن حادت هذه الدول والأنظمة عن الصورة المثلى، التي رسمها الرسول وصحابته في صدر الإسلام. لقد جاء نموذج الصديق معتمدًا بصورة كبيرة، على شركاء المشروع (المسلمين)، حين اهتم بالحفاظ عليهم (حروب الردّة)، وعلى موارد المشروع الرئيسة (الزكاة)، بل وحاول توسيع قاعدة عملاء هذا المشروع العظيم، (فتوحات الشام والعراق). وقد جاء تسييره لجيش أسامة بن زيد كأول

عمل له وهو خليفة للمسلمين، للتأكيد على ثبات المبادئ الأساسية لنموذج العمل، وللمشروع الإسلامي نفسه، وتنفيذ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام، إرساءً لقاعدة هامة، مفادها أنّ القرآن والسنة هما المرجعية التي لا غنى عنها مهما حدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يختلف نموذج الفاروق كثيرًا عن نموذج سلفه، ربما أعطى عمر -رضي الله عنه- اهتمامًا إضافيًّا بالقيمة المضافة لعملاء المشروع الإسلامي، تلك القيمة التي كانت موجودة من قبل بالتأكيد، لكن لاختلاف المتلقي في عهد الرسول عنه في عهد الفاروق، فقد كان لزامًا أن يُدخل عمر بعض الإضافات الضرورية لمن لم يعاصر الرسول بنفسه، كان ضروريًّا أن يضيف عوامل مادية فرضتها الظروف والتطورات الزمانية والمكانية، تضاف لنظيرتها المعنوية التي جاءت بها الرسالة، فكانت تدبيراته الإدارية، والتعديلات التي أدخلها على نظام الدولة، وليدة الحاجة، بعد أن توسعت الدولة وترامت أطرافها، إثر الانتصارات المتتالية على الفرس والروم. بل إنّ هذه الانتصارات نفسها كانت سببًا في لحظة ما، لإدخال الفاروق عدة تعديلات على نموذج عمله، حتى يستطيع الحفاظ على تماسك عملاء هذا المشروع العظيم، لنراه وقد أوقف الفتوحات خوفًا على المسلمين من فتنة الدنيا، نراه وقد قرر في موقف جريء أن يوقف تدفق الأموال والغنائم -الهدف الرئيس لأي مشروع- خوفًا على الفكرة نفسها. بل نراه في موقف شبيه يقوم بعزل خالد بن الوليد أحد أعظم قادة المسلمين العسكريين -الشركاء الرئيسين للمشروع- حتى لا يُفتن به المسلمون. هنا تتجلى عظمة هذا المشروع، وروعة نماذج العمل الأولى التي صاحبته، والتي كان هدفها الأوحد والأسمى، هو الحفاظ على نقاء هذا المشروع ومبادئه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما يظنُّ البعض أنّ تلك الصورة الملائكية للمشروع الإسلامي، لم تدم إلا خمسة وعشرين عامًا، وأنّ شيئًا ما قد اختلف بعد أن تولّى ذو النورين، لكن هذا غير صحيح، فعهد عثمان بن عفان كان استكمالًا لما بدأه عمر، سواء على مستوى الفتوحات أم التعديلات الإدارية التي أدخلها على الدولة، بل لقد كانت الطريقة التي اختير بها في حد ذاتها نموذجَ عمل مبتكرًا في حد ذاته. وكما كان انتخابه -رضي الله عنه- جديدًا، كان انتهاء خلافته وشهادته حدثًا دخيلًا على الدولة الإسلامية، ذلك الحدث الذي ارتجّ له ذلك النموذج.. اهتزّ اهتزازًا هزّ معه الدولة كلها. لكنّ هذا الحدث ألقى الضوء على مدى صلابة الدولة ونموذج عملها، كما لم يتخيل أحد، تلك الدولة التي بدا وأنها انقسمت إلى فريقين متناحرين، أحدهما فريق الخليفة الراشد علي بن أبي طالب، والآخر للصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين. بدا وأنّ الدولة في أوهن لحظاتها لكن ومع ذلك ظلت متماسكة وحافظت على أراضيها ومكتسباتها، بل إنّ الخلاف الذي حدث بين عليّ ومعاوية، كان مجرد خلاف على أحد متغيرات نموذج العمل، وليس أركانه الأساسية، وهو ما جعل من السهل في لحظة ما، أن يجنح الفريقان للتحكيم، ثم ينجح الحسن رضي الله عنه لاحقًا في رأب الصدع، فكان أن انخرط الناس في مبايعة معاوية بعد استشهاد عليٍّ، لتعود الدولة كيانًا واحدًا متماسكًا مرة أخرى، وليسجل نموج عمل دولة الصحابة نجاحًا جديدًا، أضيف لعظمة نموذج عمل دولة المدينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإسلام ونموذج العمل
(دولة الفتوحات والحضارة)

بقلم: أيمن حويرة

منذ ارتقى معاوية سُدّة الحكم مؤسسًا دولته، وحتى انتهاك المغول لبغداد، عاصمة الدولة الإسلامية في منتصف القرن الثالث عشر ودرة حضارتها، شهدت الدولة انتعاشًا حربيًّا وسياسيًّا وحضاريًّا مبهرًا. كانت الدولة في مهدها، وبعد وفاة دولة المدينة إثر تغيرات بدت عنيفة في نموذج العمل، في حاجة إلى ما ينعشها ويبثّ فيها دماء الحياة من جديد. ورغم ما ورثته الدولة الوليدة من جينات دولة ذي النورين، إلا أنها استطاعت أن تدخل بعض التعديلات على نموذج العمل. كانت دولة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قد أُخذ عليها الاستعانة ببني أمية، كأحد أهم العناصر الرئيسة في الموارد الأساسية، وهو ما لاح استمراره بصورة مختلفة في عهد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، بعد مطالبات شيعته بالحسن خليفة من بعده. لذا باتت دولة معاوية في حاجة إلى ما يغطي على هذه الثغرة، التي انتوى معاوية أن يجعلها من ركائز سياسة دولته، ودولة من يأتي من بعده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفتوحات والتوسعات الجغرافية هي كلمة السر إذن، قيمة مقترحة جديدة (Value Preposition) تضاف إلى نموذج العمل الأموي تمنح الدولة بُعدًا جذابًا، بل وتضيف بالتبعية عملاء جدد من جنسيات وأعراق مختلفة، ومصادر للإيرادات لا حدّ لها. كانت هذه سمة من سمات الكيان الجامع الجديد، حتى وإن اختلفت درجات ومعدلات التطبيق من خليفة إلى آخر. وقد ظهر جليًّا ضعف بقية أركان نموذج العمل، في اللحظات التي توقفت فيها الفتوحات أو اختفت، والتي احتاج بعدها الخليفة لابتكار قيم مقترحة بديلة، تنقذ الدولة من الاضمحلال. فكان أن تبنى كلّ من مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، مشروع وحدة الراية الإسلامية، حين شعرا بسيطرة عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- على مقاليد الحكم في مكة، تلك الدولة التي دامت قرابة السبعة أعوام، لكنها لم تنجح في بناء مقومات استمرارها أو تطورها.

انتهى عصر هشام والوليد، وتراجعت وتيرة الفتوحات بعد فتح الأندلس والهزيمة في بلاط الشهداء، وجاء عمر بن عبد العزيز بقيمة مقترحة من إرث الراشدين، أوقف الفتوحات ونادى بالعدل وإصلاح حال الأمة، فكان أن أعاد نموذج عمل دولة الصديق والفاروق إلى الحياة لعامين كاملين، انتهت بانقضائهما صلاحية نموذج عمل الأمويين، وبدت السنوات المقبلة ما هي إلا مرحلة قصور ذاتي، أنهاها لاحقًا العباسيون بعدما بشّروا بنموذج عمل جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على عكس دولة معاوية، حوّل بنو العباس نقطة ضعف الموارد الأساسية، والمتمثلة في العائلة الحاكمة وتوريث الحكم، إلى قيمة بارزة في نموذج عمل دولتهم، وكيف لا وهم من نسل عم رسول الله -عليه الصلاة والسلام-. لكن هذه القيمة لم تكن كافية، لتحمل على أكتافها نموذج عمل الدولة التي دامت خمسة قرون، واحتاج العباسيون لاستحداث قيم أخرى وتعديلات جديدة على نموذج العمل الخاص بهم، فكان أن اهتموا ببناء حضارة ثقافية وعلمية وفكرية، جعلت عملاءهم في حالة رضا لا بأس بها.

لم يكن ذلك هو التعديل الوحيد، فقد عمد العباسيون -أو اضطروا- لتغيير وسائل الاتصال بعملائهم وطرق إدارة العلاقة معهم فانتدبوا -أو وافقوا على انتداب- دول وأنظمة أخرى لقيادة بعض المناطق الواقعة في نطاق سيطرتهم. فظهرت عشرات الدول الإسلامية التي حكمت تحت راية العباسيين، ولكن باستقلالية تامة، مثل السلاجقة، الحمدانيون، الأغالبة، البويهيون، الأيوبيون، الإخشيديون، الطولونيون. للوهلة الأولى تبدو هذه العلاقة هي السبب الرئيس في انهيار دولة العباسيين لاحقًا، لكن إذا دققنا قليلًا لوجدنا أنّ هذه الكيانات والتي حمل كل منها نموذج عمله الخاص، وقاعدة عملائه المتفردة وعلاقاته مع هؤلاء العملاء، بل وشركاء عمله، لوجدنا أنها من أعطت الدولة العباسية قُبلة الحياة، في عدة مواقف كانت فيها الدولة قد ماتت أكلينيكيًّا، وقد ساعد على ذلك أنّ أغلب هذه الدول والكيانات كانت سنية المذهب، مثلها مثل دولة بني عباس.

الدولة العبيدية أو الفاطمية... كانت أخطر الكيانات التي ناصبت العداء للعباسيين، وأعلنت الخلافة من المغرب، ثم انتقلت لمصر، ودامت لأكثر من قرن، كان العباسيون فيها يعانون من سكرات الموت. حينها انبرى صلاح الدين الأيوبي بفكر جديد وتعديلات، كانت ضرورية لنموذج عمل الدولة، استطاع من خلاله أن ينعش عملاء هذه الدولة، ويستقطبهم مرة أخرى، فقضى على المذهب الشيعي، وحرر القدس، وأسس لدولة استطاعت أن ترث تركة العباسيين الثقيلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العاشر من فبراير عام ١٢٥٨ ميلادية، كتب المغول مشهد النهاية لدولة الفتوحات والحضارة... هذه هي بغداد حاضرة الإسلام في ذلك الزمان، تبكي دمًا، نهر دجلة اتشح بالسواد، حدادًا على ما أصابه وأصاب دولته، انتهى الحال بتراث هذه الدولة المجيدة سابحًا على صفحة مياهه، وبنموذج عملها مهترئًا ممزقًا. لم يتبق منه ما يكفل للدولة الاستمرار بعد ما أصابها من ضعف، فلا فتوحات استمرت، ولا حضارة بقيت. بل لقد كان حدث سقوط الدولة العباسية فريدًا، بعد أن زالت على أيادٍ غير مسلمة، خلا منصب الخليفة لأول مرة منذ ستة قرون، وبات نموذج العمل في حاجة إلى ثورة، تعيد دولة الإسلام إلى الحياة، وهو ما كان على يد المماليك لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإسلام ونموذج العمل
(دولة الصمود)

بقلم: أيمن حويرة

«إذا طَرَقَ العدوُّ بلادَ الإسلام وجب على العالَم قتالُهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جهادكم، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح، والسروج الذهبية والفضية، والكبابيس المزركشة، وأسْقاط السيوف، والفضة، وغير ذلك، وأن تبيعوا مالكم من الحوائص الذهبية، والآلات النفيسة، ويقتصرَ كلُّ الجند على سلاحه ومركوبه، ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هذه المرة كان العزّ بن عبد السلام هو صاحب القيمة المقترحة، التي بُني عليها نموذج عمل دولة المماليك، الجهاد هي كلمة السر، والصمود هو شعار المرحلة التي استمرت ثلاثة قرون، كانت دولة قطز وبيبرس فيها هي الدرع الواقي للدولة الإسلامية، من عدوان المغول والصليبيين والبرتغاليين. وقد كان لمهارة المماليك الحربية والعسكرية أثرٌ كبير، في تعزيز هذه القيمة وحشد الجماهير خلفهم. جاءت عين جالوت لتبشر بدولة قوية، بدلًا من دولة العباسيين المنهارة، لكن المماليك كانوا من الحنكة والذكاء بحيث عرفوا أنّ قيمة الصمود لن تصمد طويلًا، وأنّ نموذج عملهم سينهار قريبًا، تحت ضربات المقارنة مع نظرائه للدول الإسلامية السابقة، فاختاروا العباسيين مرة أخرى، وأعادوا استنساخ قيمة دولتهم المطروحة، حين تأسست مرتكزة على حقيقة كونهم أولاد عمومة رسول الله -ﷺ- ومن بيت هو الأحقّ بالخلافة، ونصبوا أحدهم خليفة جديدًا عاصمته القاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكتف المماليك بقدرتهم العسكرية، أو استعانتهم بالعباسيين وإلباسهم ثوب الخلافة اسميًّا ليحفظوا دولتهم، لكنهم استحضروا روح العباسيين أيضًا، في حرصهم على بناء حضارة ثقافية ومعمارية، تكون سندًا لهم ولدولتهم، إذا ما تداعت الدعائم الأخرى. لكن هذه الحضارة لم تكن في ازدهار ولا نمو نظيرتها العباسية، وبدا أنّ الصمود عامل مناسب بصورة أكبر، ليكون ركيزة هذه الدولة الأساسية، خاصة مع تنامي الأخطار المحدقة بالدولة من كل اتجاه، بداية من أباقا خان ومحاولاته عام ١٢٧١ و ١٢٨١ - معركة حمص الثانية- ومرورًا بمحمود غازان إلخان مغول الفرس، وعدوانه على الشام عام ١٣٠٠، ثم معركة مرج الصفر عام ١٣٠٣، والحملة الصليبية على الإسكندرية عام ١٣٦٥، في عهد السلطان الأشرف شعبان، ثم حملات فتح قبرص ١٤٢٤-١٤٢٦، وانتهاء بالحروب البرتغالية المملوكية التي بدأت عام ١٥٠٥، وانتهت بسقوط دولة المماليك. وقد استعاد سلاطين المماليك أنطاكية، والكرك، وقيسارية، وصفد، ويافا، وقلعة المرقب، وطرابلس الشام، وعكا، وصور، وصيدا، وبيروت، ليتوجوا معاركهم بانتصارات مدوية، جمعت شمل المسلمين مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون، بدا أنّ دولة المماليك البحرية في طريقها إلى الزوال، لصالح وريثتها دولة المماليك البرجية، والتي تعاقب على حكمها العديد من السلاطين الضعفاء، وهو ما عجل بسقوطهم لاحقًا، وهزيمتهم أمام العثمانيين، بالإضافة إلى ضعف حركة التجارة بينهم وبين

أوروبا، بسبب حروبهم مع الصليبيين والمغول، فتأثرت مصادر الإيرادات بشدة، وانفض عملاء الدولة من حولها، بل ورحبوا بالعثمانيين حين قدموا إلى الشام ومصر، من أجل القضاء على فساد المماليك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل لو كانت دولة المماليك قد ظهرت في وقت آخر، لكان كُتب لها الاستمرار؟ تبدو إجابة هذا السؤال عسيرة، لكن المؤكد أنّ ظهورها كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحاجة إلى قوة عسكرية، ترد المخاطر التي حاقت بالدولة الإسلامية حينها، والتي لم يستطع أحد أن يصمد في وجهها إلا هؤلاء المماليك. لم تكن دولة المماليك تمتلك مقومات كتلك التي امتلكها الأمويون أو العباسيون، لم تكن في مهارة دولة صلاح الدين، أو فكر عبد الرحمن الناصر في الأندلس، لم تمتلك مشروعًا حقيقيًّا يكفل لها الخلود، لكن من الإنصاف التأكيد على فضل هذه الدولة على المسلمين، ودولتهم التي قاربت على الإنتهاء في منتصف القرن الثالث عشر، لولا أن قيض الله لها هؤلاء الرجال، ليمنحوها ثلاثمئة عامًا إضافية، ويسلموا الراية إلى العثمانيين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإسلام ونموذج العمل
(دولة السقوط)

بقلم: أيمن حويرة

قرص الشمس، وعمامة، وراية خضراء، وبندقية، وبلطة، ومسدس، وميزان، ونياشين، وصولجان، ومرساة، وقرن، وكتابان، وقوس، وبوق، وقذائف مدفعية، وسيف، ومدفع، ورمح، ودرع... هذا هو ملخص قصة حياة امبراطورية عاشت ستة قرون، منها أربعة رفعت فيها راية الخلافة، وحملت تركة الدولة الإسلامية، ودافعت عنها وعن الإسلام، هذا الملخص الذي عبر عنه السلطان عبد الحميد لاحقًا في رسم، اتخذت منه الدولة العثمانية شعارًا لها. ثلاثون عنصرًا اتحدت سويًّا لتكون هذا الشعار، ستة عشر عنصرًا منها ترمز للحرب، في دلالة واضحة على ملامح نموذج العمل، الذي انتهجته دولة بني عثمان وركائزه الأساسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على عكس بقية دول الخلافة الإسلامية، بدأت دولة العثمانيين بعيدة عن أراضي العرب. فلم تكن المدينة أو دمشق أو بغداد -كما جرت العادة- جزءًا من أراضي تلك الدولة، ولم تكن لغة قاطنيها ومنتسبيها هي العربية. وبقدر ما استفادت الدولة من ذلك أن احتوت ثقافات مختلفة وموارد متعددة، اكتسبتها بحكم اتساع أراضيها واختلاف جغرافيتها عن مثيلتها العربية، بقدر ما حمل لها ذلك تحديًا حقيقيًّا، حين دخل سليم الأول مصر، وأنهى دولة المماليك، وسمى نفسه بالخلافة، وسلالته من بعده. بدا الأمر غريبًا ليطالب غير قرشي، بل وغيري عربي، بالخلافة، بل وقيادة الدولة الإسلامية -العربية- بصورة مباشرة بعكس ما فعله المماليك من تولية العباسيين صوريًّا، والحكم من خلالهم.

القوة... هذا هو شعار المرحلة إذن، أعاد العثمانيون استنساخ تجربة المماليك العسكرية، وبنوا جيشًا سموه الانكشارية، استطاعوا من خلاله الزحف على أوروبا، وفتح مناطق لم يصلها الإسلام من قبل؛ ليكونوا بذلك قد أعادوا أمجاد الأمويين، ونشروا الإسلام، ووسعوا من رقعة الدولة الإسلامية، هذه هي القيمة الأولى، التي بنى عليها العثمانيون نموذج عمل دولتهم.

لم يكتف العثمانيون بذلك، لكنهم استطاعوا أن يضيفوا إلى دولاب بطولاتهم فتح القسطنطينية، حلم المسلمين منذ عهد معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- والذي بدأ أولى المحاولات لفتحها عام ٦٦٩ م ساعيًا لتحقيق بشارة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- فكان أن استطاع السلطان الشاب محمد الفاتح أن ينال هذا الشرف عام ١٤٥٣م، ويعزز علاقته بعملائه من المسلمين، المتطلعين إلى فتح القسطنطينية وروما.

ثم جاء البرتغاليون ليدقوا آخر المسامير في نعش دولة المماليك - دولة الصمود- ويمنحوا العثمانيين سببًا مقنعًا للسيطرة على تركتهم في مصر والشام، قبل استيلاء الغزاة البرتغاليين عليها. بهذا اكتمل نموذج دولة سليم الأول، والذي دام أربعة قرون، حتى سقطت الدولة في عهد عبد المجيد الثاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يستطع العثمانيون إرضاء طموحات العرب على مدار أربعمئة عام، ظلت فيها اسطنبول هي قلب الدولة النابض، وظلت مدن مثل القاهرة وحلب ودمشق، بعيدة قليلًا عن بؤرة الأحداث. ربما كان أصل العثمانيين الأوروبي، عاملًا من عوامل الاهتمام بالفتوحات الأوروبية أغلب الوقت، فبحكم

جغرافية المكان، أحيطت الامبراطورية العثمانية بأعداء كثر، جعلوا جل تركيزها منصبًّا على دحر هؤلاء الأعداء أحيانًا، ومبادرتهم بالهجوم أحيانًا أخرى. كان الإسبان والروس دومًا لها بالمرصاد، يناصبونها العداء، ويهددونها جنبًا إلى جنب مع مملكة النمسا والمجر، ثم صربيا وبلغاريا واليونان لاحقًا.

لقد كانت مصر والشام وشبه الجزيرة أراضٍ توطد فيها الإسلام، وقويت شوكته لدرجة تجعل من استئصاله شيئًا عسيرًا، فكانت المطامع الرامية للاستحواذ على هذه المناطق، غالبًا ما تأتي من دول إسلامية أخرى، دانت في مرات عديدة بالولاء للدولة الإسلامية الحاكمة. لكن في حالة العثمانيين، كانت أوروبا حديثة عهد بالإسلام، وكانت الممالك الأوربية حريصة على استرداد هذه المناطق حرصًا شديدًا؛ لذلك لم يهنأ العثمانيون براحة طوال فترة حكمهم، ولم يكن لديهم -ربما- الوقت الكافي، للعمل على تحسين نموذج عملهم، وإدخال تعديلات عليه، تضمن لهم البقاء والاستمرارية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكما كان للانكشارية دورٌ عظيم في ازدهار الدولة وتوسعها، كانوا أيضًا أحد أسباب انهيارها وبداية أفول نجمها، ليكون بذلك أهم مواردها وثرواتها هو أيضًا أهم أسباب سقوطها. تأتي السلطانات العثمانيات في مرتبة قريبة جدًّا من جنود الانكشارية، فقد كان لتدخلهنّ السافر في السياسة، واتخاذ قرارات هامة ومصيرية في الدولة، أثر لا يخفى على أحد. ثم يحل ثالثًا الثورة السياسية التي حدثت في أوروبا، في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، والتي لم يستطِع العثمانيون مجاراتها، ولم يكونوا بالمرونة الكافية لتعديل نموذج عملهم، لمواكبة هذه الثورة وموائمة التغيرات الناجمة عنها؛ فكان أن أطاحت بدولتهم في أوروبا، رياح النزعات العرقية الانفصالية التحررية، وأطاح بدولتهم في أفريقيا وآسيا، التوق إلى مملكة عربية إسلامية يحكمها عربي.

كتب فصل النهاية في حياة السلطنة العثمانية ودولة الخلافة بأسرها رجلان، أحدهما عربي، تمنى أن يتوج مجهوداته بدولة خلافة من النيل للفرات، فمات والنيل محتلًا وابنه يحكم الفرات تحت الانتداب الإنجليزي، والآخر تركي، اكتفى برقعة من الأرض، تمثل أقل من عُشر مساحة دولته سابقًا. كتب الشريف حسين ومصطفى كمال أتاتورك فصل النهاية في قصة الدولة الإسلامية، التي دامت ثلاثة عشر قرنًا...

فصلًا تحت عنوان «دولة السقوط».

المصادر

نُشرت هذه المقالات في المواقع الإلكترونية التالية:

- رقيم
- مدونات الجزيرة
- ساسة بوست
- تركيا بوست
- إضاءات
- المحطة
- مقال كلاود
- صفحة الطريق إلى الحضارة

- صفحة بصمة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المراجع

- مذكرات عائشة عثمان أوغلو.. والدي عبد الحميد
- أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، الجزء الثاني، ترجمة صالح سعداوي، الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١).
- أكمل الدين إحسان أوغلي، الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، ترجمة صالح سعداوي، الطبعة الأولى، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١).
- محمد زاهد جول، إبراهيم متفرقة ١٠٨٤-١١٥٦هـ، ١٦٧٤-١٧٤٤م: رجل الدولة التنويري ومؤسس أول مطبعة إسلامية ضمن كتاب التحولات الفكرية في العالم الإسلامي: أعلام – وكتب – وحركات – وأفكار – من القرن العاشر الهجري إلى القرن الثاني عشر الهجري، الطبعة الأولى، (الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٤م).
- وحيد بن الطاهر قدورة، تاريخ الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام، الطبعة الثانية، (الرياض: مطبوعات مكتبة فهد الوطنية، ٢٠١٠).
- محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند، الطبعة الأولى، (بيروت: دار النفائس، ٢٠٠٧).
- عبد الحي بن فخر الدين الحسيني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، الطبعة الأولى، (بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٩)
- نصير أحمد نور أحمد، عصر أكبر سلطان الدولة المغُليّة الإسلامية في الهند، (رسالة ماجستير)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٤.
- محمد طاهر البروسه لى، عثمانلى مؤلفلرى، مجلد ١، آستانه.
- صورة الإسلام في نبوءة ميثوديوس المجهول، عبد العزيز رمضان، (المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول المجلد ٤٤، ٢٠٠٦).
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله المحبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦.
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، محمد خليل المرادي، دار صادر، بيروت، ٢٠١٢.
- السياسة والدين في مرحلة تأسيس الدولة الصفوية (١٥٠١-١٥٧٦)، علي إبراهيم درويش، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، الدوحة، ٢٠١٢.
- مسألة الخلافة وجزيرة العرب، أبو الكلام أزاد، ترجمة مصباح الله عبد الباقي، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، ٢٠١٤.
- الأقباط في مصر في العصر العثماني، محمد عفيفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٢.
- وثائق أهل الذمة في العصر العثماني، سلوى علي ميلاد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٣.

- تاريخ تركيا الحديث، إيريك زوكر، ترجمة عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠١٢.
- الرحلة إلى مصر والسوادن وبلاد الحبش، أوليا جلبي، ترجمة الصفصافي أحمد القطوري، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠.
- الأعمال المختارة لمحمد خانجيتش البوسنوي،محمد خانجيتش، ترجمة عبد الرحيم ياقدي، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ٢٠١٥.
- رحلة الصيف إلى بلاد البوسنة والهرسك، الأمير محمد علي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧.
- عصام الشنطي: «التراث العربي الإسلامي في البوسنة والهرسك»، (مجلة تراثيات)، (٩)، يناير ٢٠٠٧، ١١- ٢٨.
- الجوهر الأسنى في تراجم عُلماء وشُعراء بوسنه، محمد بن محمد البوسنوي الخانجي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.
- البوسنة ما بين الشرق والغرب، محمد م. الأرناؤوط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.
- التراث المغدور: اغتيال ماضي البوسنة، روبرت ج.دنيا وجون ف.أ.فاين، ترجمة أحمد محمود، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٨.
- الإعلان الإسلامي، على عزت بيجوفيتش، ترجم وتقديم محمد يوسف عدس، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٩.
- البوسنة، نويل مالكوم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- م. الأرناؤوط: «دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة (سرايي□و نموذجًا)»، (مجلة أوقاف)، (٨)، ربيع الأول ١٤٢٦هـ/ مايو ٢٠٠٥، ٤٧- ٥٦.
- سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، فريدون أمجان، ترجمة جمال فاروق وأحمد كمال، الطبعة الأولى، دار النيل، القاهرة، ٢٠١٤.
- الدولة العثمانية المجهولة، أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك، ترجمة أورخان علي وعوني لطفي أوغلو، الطبعة الأولى، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، ٢٠٠٨.
- الوثائق تنطق بالحقائق، أحمد آق كوندوز، وقف البحوث العثمانية، اسطنبول، ٢٠١٤
- مارك غراهام، كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟ ص ٢٥٧
- إبراهيم مذكور في الفلسفة الإسلامية ٢/١٤٤.
- المقري، نفح الطيب، ٥/٣١٠
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٣/٦٣
- ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١١
- دراسات أندلسية ص ٩٣- ٩٤
- نبيلة عبد الشكور، شهيرات الأندلس، ص٤٩
- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ١/٢١٤
- د. جاسم ياسين الدرويش، أعلام نساء الأندلس، نقلًا عن الشعر النسوي الأندلسي ص١٦٤

- د. مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه (بتصرف)
- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس ٣/٤٥٢
- أبو القاسم المعتمد على الله محمد بن عبَّاد (٤٣١ هـ – ٤٨٨ / ١٠٤٠ – ١٠٩٥ م) هو ثالث وآخر ملوك بني عباد في الأندلس، كان ملكاً لإشبيلية وقرطبة في عصر ملوك الطوائف قبل أن يقضي على إمارته المرابطون وينقل أسيرًا إلى أغمات حيث وافته المنية هناك.
- سناء الشعيري،المرأة في الأندلس، ص
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمع وترتيب بشير يموت- ص ٢١٢
- د. سهى بعيون، إسهام العلماء المسلمين في العلوم في الأندلس، ص ٣٨٨
- د. نهاد عباس زينل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا القرون الوسطى ص ٢٥٤
- ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٢١ (بتصرف)
- الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس ص ٣٠٣ نقلًا عن العلوم الإسلامية ص ١٦٥
- ابن خلدون، المقدمة ص ٤١٢
- الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس، نقلًا عن الموجز في تأريخ الطب، ج١ ص ١٥١
- كتاب الصلة لابن بشكوال ص ٥٣١
- نزهة الجلساء، في أشعار النساء للإمام جلال الدين السيوطي، ص ٦١
- الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس
- المستشرق الإسباني براند تراند جون (Treand ،Brande ،Gohn) في دراسته عن إسبانيا و البرتغال، المنشورة في كتاب « تراث الإسلام»
- سناء الشعيري، المرأة في الأندلس، بتصرف،،منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات،مطبعة الأمنية - الرباط ٢٠٠٩
- د. عبد الحليم عويس - تجربة الأندلس أسباب السقوط
- د. محمد بن موسى الشريف - استجابات إسلامية لصرخات أندلسية
- د. محمد رزوق- الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب
- لحلة السيراء- ابن أبار
- الأدب العربي في الأندلس- د علي محمد سلامة
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين و الموحدين - يوسف أشباخ- ترجمة د. محمد عبد الله عنان
- دولة الإسلام في الأندلس - د.محمد عبد الله عنان
- الخطاط مصطفى راقم أفندي - ابن الأمين محمود كمال إينال (ترجمه من التركية: د. تحسين عمر طه أوغلى)
- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، مصطفى حلمي، دار الكتب العلمية ٢٠٠٤
- الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري - محمد الناصري، الناشر: دار الكتاب - الدار البيضاء.
- الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الناشر: دار الكاتب العربي - القاهرة، عام النشر: ١٩٦٧م.
- تاريخ العثمانيين - محمد سهيل طقوش

- الدولة العثمانية «عوامل النهوض وأسباب السقوط» - الصلابي المسلمون فى الامبراطورية الروسية - محمود شاكر
- سلاطين الدولة العثمانية - صالح كولن
- معاهدات غيرت التاريخ -منصور عرابي
- الحرب العالمية الأولى - عمر الديراوي
- موسوعة المدن الإسلامية - آمنة أبو حجر
- تاريخ مغول القبيلة الذهبية محمد سهيل طقوش
- الأندلسيون المواركة - عادل سعيد بشتاوي
- المسلمون المدجنون فى الأندلس - حسين يوسف دويدار
- دولة الإسلام فى الأندلس - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين - محمد عبد الله عنان
- مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس - محمد علي قطب الحروب الأهلية في غرناطة - بيريث دي إيتا - ترجمة مروة محمد إبراهيم - مراجعة جمال عبد الرحمن
- الحرب ضد الموريسكيين - خينيس بيريث دي إيتا - ترجمة عائشة محمود سويلم - مراجعة جمال عبد الرحمن
- حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها - محمد قشتيليو.
- دراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي - أ.د. عبد الجليل التميمي - مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية
- الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون « المجابهة الجدلية» - أ.د. عبد الجليل التميمي - مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية
- دراسات جديدة في التاريخ الموريسكي - أ.د. عبد الجليل التميمي - مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية
- تراجيديا طرد الموريسكيين من الأندلس - أ.د. عبد الجليل التميمي - مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية حياة الموريسكيين الدينية - بدرو لونغاس - ترجمة جمال عبد الرحمن - المركز القومي للترجمة.
- دراسات أندلسية وموريسكية - ترجمة جمال عبد الرحمن - المركز القومي للترجمة
- فصول من تاريخ الأندلس - ترجمة وتعليق د.عبد الفتاح عوض - عين للدراسات والبحوث
- الأندلس بحثا عن الهوية الغائبة - خوليو رييس روبيو «المجريطي» - ترجمة غادة عمر طوسون ورنا أبو الفضل دراسات في تاريخ إسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى - د.محمد محمود النشار
- الأندلسيون و هجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ ١٧ - د.محمد رزوق
- شفشاون تاريخ، حضارة، أصالة -د. محمد القاضي،د. أحمد أرشنان
- الموريسكيون الإسبان و وقائع طردهم - الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا -ترجمة د. كنزة الغالي
- كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري التلمساني كتاب تلمسان الأندلس الموعود- قصي زاوي
- المغول بين الانتشار والانكسار - الصلابي
- تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند - محمد سهيل طقوش

- الدولة الخوارزمية و المغول - حافظ أحمد حمدي
- رحلة الخلافة العباسية - المجلد الثالث «آخر آيام العباسيين» - محمد شعبان أيوب، المؤرخ محمد إلهامي في تاريخ الأيوبيين والمماليك - محمد أحمد محمد
- مصر المملوكية - هاني حمزة
- البداية والنهاية - ابن كثير
- الفتوح الإسلامية – العمري
- معارك العرب الحاسمة - صبحي عبد الحميد
- تيمورلنك «امبراطور على صهوة جواد» - منصور عبد الحكيم أشهر المعارك الحربية بين فكي التاريخ - إبارهيم جلال العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي
- بلاد الهند في العصر الإسلامي - عصام الدين عبد الرؤوف امبراطوريات الرياح الموسمية - مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
- تاريخ الدولة العثمانية - يلماز إيزتونا
- الدولة العثمانية المجهولة - أحمد آق كوندوز
- التاريخ السري للامبراطورية العثمانية مصطفى أزمغان
- تاريخ الخلفاء الراشدين - محمد سهيل طقوش
- الدولة السفيانية - الصلابي
- السلطان عبد الحميد آخر السلاطين المحترمين - منصور عبد الحكيم
- خالد بن الوليد - منصور عبد الحكيم
- السلطان سليمان القانوني - صلاح أبو دية
- حقيقة الخلاف بين الصحابة - الصلابي
- سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين - فريدون أمجان
- خلافة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير - الصلابي
- الدولة العباسية - محمد الخضري بك
- الدولة الأموية - يوسف العش
- شمس العرب تسطع على الغرب - زيغريد هونكه
- حضارة العرب - جوستاف لوبون
- صلاح الدين الأيوبي - أحمد عبد الجواد الدومي
- أصول التاريخ العثماني - أحمد عبد الرحيم مصطفى
- عظماء منسيون - محمد بن موسى الشريف
- بصمات خالدة في التاريخ العثماني - جان ألبجوونج
- دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني - فاضل بيات الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، المجلد الثاني، مجموعة من المؤلفين، ترجمة صالح سعداوي
- تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار وفق المصادر العثمانية المعاصرة، والأبحاث التركية الحديثة، سيد محمد السيد محمود العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب
- رحلة أوليا چلبي في كوردستان عام ١٠٦٥ هجري - ١٦٥٥ م، ترجمة رشيد أفندي
- نقد السياسة: الدولة والدين، برهان غليون

- دور الوقف في نشوء المدن الجديدة في البوسنة (سراييفو نموذجًا) محمد م. الأرناؤوط
- دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان، محمد م. الأرناؤوط
- تاريخ بلغراد الإسلامية، محمد موفاكو،
- هموم ومشكلات مسلمي البلقان: كوسوفا - مقدونيا - محمد محمد قاروط
- نحن وتاريخنا،إلبر أورطايلي.
- غزوات المسلمين فى أوروبا - شكيب أرسلان.
- صورة الإسلام في نبوءة ميثوديوس المجهول، عبد العزيز رمضان، (المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول المجلد ٤٤، ٢٠٠٦)

- Shefer-Mossensohn، Miri. "Science among the Ottomans: The Cultural Creation and Exchange of Knowledge"، University of Texas Press، Austin، 2015
- Pektaş، Nil. "The beginnings of printing in the Ottoman capital: Book production and circulation in early modern Istanbul"، Osmanlı Bilimi Araştırmaları، XVI/2 (2015): 3-32، Istanbul
- Öztuna، Yilmaz: "Osmanlı'da baskı san'atı"، Tarih ve Medeniyet Dergisi)) (12)، 1995، 36- 38
- Farooqi-، Naimur Rahman. "MUGHAL-OTTOMAN RELATIONS: A STUDY OF POLITICAL AND DIPLOMATIC RELATIONS BETWEEN MUGHAL INDIA AND THE OTTOMAN EMPIRE، 1556-1748"، Ph.D، The University of Wisconsin - Madison، 1986.
- Johnson .S، Aaron. "A Revolutionary Young Ottoman: Ali Suavi (1839-1878)" (Unpublished Doctoral's Thesis). institute of Islamic Studies، McGill University، Montreal، June 2012: 36- 37
- Turnaoğlu -"، Banu. "The Formation oF Turkish Republicanism. Princeton University Press، Princeton، New Jersey، 2017: 74
- Johnson .S، Aaron. "A Revolutionary Young Ottoman: Ali Suavi (1839-1878)"، 229-230
- Hüseyin Çelik ،10. Ali Suavî ve Dönemi (Istanbul: İletişim Yayınları، 1994): 39-40
- "Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources: Sallam's quest for Alexander's wall"، edited by Emeri van Donzel and Andrea Schmidt. LIDEN، Brill، 2009، p.17
- Kevin Van Bladel، "The Syriac Sources Of The Early Arabic Narratives Of "Alexander" in "Memory As History: The Legacy Of Alexander In Asia"، edited by Himanshu Prbaha Ray and Daniel T.Potts، 2007، p.56-57
- Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources"; p.17

Alexander The Flexible Friend: Some" ،Faustina C.W. Doufikar - Aerts -
Reflections On The Representation Of Alexander The Great In The Arabic
p.195 ،"Alexander Romance

،"The legend of Alexander the Great In The Christian Orient" ،S. Gero -
،1993 ،Library Of Manchester ،Bulletin Of The John Rylands University
p.6 ،Volume 75

The legend of Alexander the Great In The Christian Orient"; p.6" ،S. Gero -

"Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources"; p.17 -

Alexander The Flexible Friend"; p.203" ،Doufikar - Aerts -

The Syriac Sources Of The Early Arabic Narratives Of" ،Van Bladel -
Alexander"; p.57

"Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources"; p.22 -

The Alexander Legend in the Qur'an 18: 83–102" in" ،Kevin Van Bladel -
،edited by Gabriel Said Reynolds ،"The Qur'an in Its Historical Context"
p.176 ،2008 ،Routledge

"Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources"; p.22 -

The legend of Alexander the Great In The Christian Orient"; p.7" ،S. Gero -

THE SYRIAC LEGEND CONCERNING ALEXANDER THE" ،K. CZEGLÉDY -
No. 2/3 ،Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae Vol. 7 ،"GREAT
p.234 ،(1957)

Nurallah. "Islam and the Politics of Secularism: The Abolition of ،-Ardıç -
،Los Angeles ،University of California ،Ph.D ،"(the Caliphate (1908-1924
.2009

Tufan Gündüz. "Son Kızılbaş: ŞAH İSMAİL". YEDITEPE. Istanbul. 2013 -

Febe Armanios. "Coptic Christianity in Ottoman Egypt".Oxford University -
Press. 2011

،"M.Şükrü. "A Brief History of the Late Ottoman Empire ،-Hanioğlu -
2010 ،New Jersey ،Princeton ،Princeton University Press

Zahit Atçıl: "Why Did Süleyman the Magnificent Execute His Son Şehzade -
Mustafa in 1553?". THE JOURNAL OF OTTOMAN STUDIES. Issue XLVIII. 2016

Wakfs in Ottoman Cyprus" in "Frontiers of Ottoman" ،Netice Yıldız -
،Edited by Colin Imber ،"and the West Volume II ،Province ،Studies: State
p.179-196 ،2005 ،Keiko Kiyotaki and Rhoads Murphey

edited ،""Ottoman Cyprus: A Collection of Studies on History and Culture -
Harrassowitz ،Matthias Kappler ،Eftihios Gavriel ،by Michalis N. Michael
.2009 ،Wiesbaden ،Verlag

- “Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources: Sallam’s quest for Alexander’s wall”, edited by Emeri van Donzel and Andrea Schmidt. LIDEN, Brill, 2009, p.17
- Kevin Van Bladel, “The Syriac Sources Of The Early Arabic Narratives Of Alexander” in “Memory As History: The Legacy Of Alexander In Asia”, edited by Himanshu Prbaha Ray and Daniel T.Potts, 2007, p.56-57
- “Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources”; p.17
- Faustina C.W. Doufikar - Aerts, “Alexander The Flexible Friend: Some Reflections On The Representation Of Alexander The Great In The Arabic Alexander Romance”, p.195
- S. Gero, “The legend of Alexander the Great In The Christian Orient”, Bulletin Of The John Rylands University, Library Of Manchester, 1993, Volume 75, p.6
- S. Gero, “The legend of Alexander the Great In The Christian Orient”; p.6
- Ibid., p.6
- “Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources”; p.17
- Doufikar - Aerts, “Alexander The Flexible Friend”; p.203
- Van Bladel, “The Syriac Sources Of The Early Arabic Narratives Of Alexander”; p.57
- “Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources”; p.22
- Kevin Van Bladel, “The Alexander Legend in the Qur’an 18: 83–102” in The Qur’an in Its Historical Context”, edited by Gabriel Said Reynolds,“ Routledge, 2008, p.176
- “Gog and Magog in early Syriac and Islamic Sources”; p.22
- S. Gero, “The legend of Alexander the Great In The Christian Orient”; p.7
- K. CZEGLÉDY, “THE SYRIAC LEGEND CONCERNING ALEXANDER THE GREAT”, Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae Vol. 7, No. 2/3 p.234 ,(1957)
- Ibid., p.233

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

المحتويات

المصادر

المراجع